# التفسير الوسيط
# للقرآن الكريم

## تفسير سور

العنكبوت الروم
لقمان السجدة
الأحزاب سبأ
فاطر

الإمام الأكبر
الدكتور محمد سيد طنطاوي
شيخ الأزهر

المجلد الحادى عشر

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**

﴿رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧)

## بسم الله الرّحمن الرّحيم

### مقدمة وتمهيد

١ . سورة العنكبوت هي السورة التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة الروم ، أى : أنها من أواخر السور المكية في النزول ، إذ أن ترتيبها في النزول الثالثة والثمانون من بين السور المكية ، ولم ينزل بعدها قبل الهجرة سوى سورة المطففين [1] وعدد آياتها تسع وستون آية.

٢ . وجمهور العلماء على أنها مكية ، ومنهم من يرى أن فيها آيات مدنية.

قال الآلوسى : عن ابن عباس أنها مكية وذهب إلى ذلك . أيضا . الحسن وجابر وعكرمة. وعن بعضهم أنها آخر ما نزل بمكة ... وقال يحيى بن سلام : هي مكية ، إلا من أولها إلى قوله . تعالى . : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ.﴾ .. [2].

والذي تطمئن إليه النفس أن سورة العنكبوت كلها مكية ، وليس هناك روايات يعتمد عليها في كون بعض آياتها مدنية.

٣ . وقد افتتحت سورة العنكبوت ببعض الحروف المقطعة ﴿الم﴾ ، ثم تحدثت عن تكاليف الإيمان ، وأنه يستلزم الامتحان والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وعن الحسنة التي أعدها . سبحانه . لعباده المؤمنين الصادقين. قال . تعالى . : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

٤ . ثم حكت جانبا من أقوال المشركين ، ومن دعاواهم الكاذبة ، وردت عليهم بما يبطل أقوالهم ، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ...

قال . تعالى . : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ، وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) راجع كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٣٢.

٥ ـ ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فأشارت إلى قصة نوح مع قومه ، ثم ذكرت بشيء من التفصيل جانبا من قصة إبراهيم مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه ، وأتبعت ذلك بإشارات مركزة تتعلق بقصة شعيب وهود وصالح وموسى مع أقوامهم ...

ثم اختتمت هذه القصص ببيان العاقبة السيئة التي صار إليها المكذبون لرسلهم ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٦ ـ ثم ضربت السورة الكريمة مثلا لحال الذين أشركوا مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى في العبادة ، فشبهت ما هم عليه من كفر وشرك ـ في ضعفه وهوانه وهلهلته ـ ببيت العنكبوت ، وأمرت النبي ﷺ وأصحابه ، أن يزدادوا ثباتا على ثباتهم ، وأن يستعينوا على ذلك ، بتلاوة القرآن الكريم ، وبإقامة الصلاة ، وبالإكثار من ذكر الله ـ تعالى ..

قال ـ سبحانه ـ : ﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾.

٧ ـ ثم أمرت السورة الكريمة المؤمنين بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وأرشدتهم إلى ما يقولونه لهم ، ومدحت من يستحق المدح منهم ، وذمت من يستحق الذم ، وأقامت الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ..

قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ* وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ* بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

٨ ـ ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى المؤمنين ، حضهم فيه على الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإيمان ، ورغبهم في ذلك بوسائل ، منها : إخبارهم بأن الآجال بيد الله ـ تعالى ـ وحده ، وكذلك الأرزاق بيده وحده ، وأن من استجاب لما أمره الله ـ تعالى ـ به ، أعطاه ـ سبحانه ـ الكثير من خيره وفضله.

قال ـ تعالى ـ ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ* كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ، ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾.

٩ ـ ثم ساق ـ سبحانه ـ في أواخر السورة ، ألوانا من تناقضات المشركين ، حيث إنهم إذا سألهم سائل عمن خلق السموات والأرض ... قالوا : الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقهما ، ومع ذلك فهم يشركون معه في العبادة آلهة أخرى ، وإذا أحاط بهم الموج وهم في السفن ... ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ، وهم يعيشون في حرم آمن ، والناس يتخطفون من حولهم .. ومع ذلك فهم بالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون.

هذا شأنهم ، أما المؤمنون الصادقون فقد وعدهم الله ـ تعالى ـ بما يقر أعينهم فقال في ختام السورة : ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٠ ـ وهكذا نرى هذه السورة الكريمة ، وقد حدثتنا ـ من بين ما حدثتنا ـ عن الإيمان وتكاليفه ، وعن سنن الله في خلقه ، وعن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وعن هوان الشرك والشركاء ، وعما يعين المؤمن على طاعة الله ، وعن علاقة المؤمنين بغيرهم ، وعن البراهين الساطعة الناطقة بأن هذا القرآن من عند الله ، وعن أن المؤمن لا يليق به أن يقيم في مكان لا يستطيع فيه أن يؤدى شعائر دينه ، وعن سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار ... نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعا من عباده الأخيار.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**المؤلف**

**د. محمد سيد طنطاوى**

تفسير

# سورة العنكبوت

**قال الله تعالى :**

**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**

**﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٧)**

سورة العنكبوت من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي ﴿**الم**﴾ ، ويبلغ عدد السور التي افتتحت بحروف التهجي ، تسعا وعشرين سورة.

وقد سبق أن قلنا : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن الكريم ، فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله ، فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ...

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ للإنكار و ﴿حَسِبَ﴾ من الحسبان بمعنى الظن. وقوله : ﴿يُفْتَنُونَ﴾ من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان.

يقال : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم الجيد منه من الخبيث.

وجملة «أن يتركوا» سدت مسد مفعولي حسب ، وجملة «أن يقولوا» في موضع نصب ، على معنى : لأن يقولوا ، وهي متعلقة بقوله : ﴿يُتْرَكُوا﴾. وجملة «وهم لا يفتنون» في موضع الحال من ضمير «يتركوا».

والمعنى : أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان ، واختبار ، وابتلاء ، وبدون نزول المصائب بهم ، لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان؟ إن ظنهم هذا ظن باطل ، ووهم فاسد ، لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط ، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الابتلاء والاختبار ، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه.

قال القرطبي : والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد .. فكانت صدورهم تضيق بذلك ، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين. قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده ، اختبار للمؤمنين وفتنة.

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال ، فهي باقية في أمة محمد ﷺ ، موجود حكمها بقية الدهر ...» [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ﴾ مؤكد لما قبله من أن ظن الناس أن يتركوا بدون ابتلاء ، لقولهم آمنا ، هذا الظن في غير محله ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، وأن يجعل الكافرين يتصارعون مع المؤمنين ، إلا أن العاقبة في النهاية للمؤمنين.

والمقصود بقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ .. إظهار علمه ـ سبحانه ـ ، أو المجازاة على الأعمال.

أى : ولقد فتنا الذين من قبل هؤلاء المؤمنين من أصحابك ـ أيها الرسول الكريم ـ ، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا.﴾ .. أى فليظهرن الله ـ تعالى ـ في عالم الواقع حال الذين صدقوا في إيمانهم ، من حال الكاذبين منهم ، حتى ينكشف للناس ما هو غائب عن علمهم.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٣٠٤.

أو المعنى : ولقد فتنا الذين من قبلهم من المؤمنين السابقين ، كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم ، فليجزين الذين صدقوا في إيمانهم بما يستحقون من ثواب ، وليجزين الكاذبين بما يستحقون من عقاب ، ولترتب المجازاة على العلم ، أقيم السبب مقام المسبب.

قال الإمام ابن جرير : قوله : ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا.﴾ .. أى : فليعلمن الله الذين صدقوا منهم في قولهم آمنا ، وليعلمن الكاذبين منهم في قولهم ذلك ، والله عالم بذلك منهم ، قبل الاختبار ، وفي حال الاختبار ، وبعد الاختبار ، ولكن معنى ذلك : وليظهرن الله صدق الصادق منهم في قوله آمنا بالله ، من كذب الكاذب منهم ...

وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين ، عذبهم المشركون ، ففتن بعضهم ، وصبر بعضهم على أذاهم ، حتى أتاهم الله بفرج من عنده» (١).

وفي معنى هاتين الآيتين وردت آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢) وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ..﴾ (٣).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ (٤).

وقد ساق الإمام القرطبي عند تفسيره لهاتين الآيتين من سورة العنكبوت عددا من الأحاديث النبوية ، منها قوله : روى البخاري عن خباب بن الأرت قالوا : شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال : «قد كان من قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» (٥).

والخلاصة ، أن المقصود من الآيتين تنبيه الناس في كل زمان ومكان ، إلى أن ظن بعض الناس بأن الإيمان يتعارض مع الابتلاء بالبأساء والضراء ، ظن خاطئ ، وإلى أن هذا الابتلاء سنة ماضية في السابقين وفي اللاحقين إلى يوم القيامة.

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٠ ص ٨٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢.

(٣) سورة التوبة. الآية ١٦.

(٤) سورة محمد. الآية ٣١.

(٥) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٣٢٤.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن عقابه للمرتكبين السيئات واقع بهم ، وأنهم إذا ظنوا خلاف ذلك ، فظنهم من باب الظنون السيئة القبيحة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾.

و «أم» هنا منقطعة بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، وقوله : ﴿أَنْ يَسْبِقُونا﴾ سد مسد مفعولي حسب ، وأصل السبق : الفوت والتقدم على الغير. والمراد به هنا : التعجيز ، والمعنى : بل أحسب الذين يعملون الأعمال السيئات كالكفر والمعاصي ، «أن يسبقونا» أى : أن يعجزونا فلا نقدر على عقابهم ، أو أن في إمكانهم أن يهربوا من حسابنا لهم؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد : «ساء ما يحكمون» أى : بئس الظن ظنهم هذا ، وبئس الحكم حكمهم على الأمور.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يدخل السرور والاطمئنان على قلوب عباده المؤمنين الصادقين فقال ـ تعالى ـ : ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ ، فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أى : من كان من الناس يرجو لقاء الله ـ تعالى ـ يوم القيامة لقاء يسره ويرضيه ، ويطمعه في ثوابه وعطائه ، فليثبت على إيمانه ، وليواظب على العمل الصالح ، «فإن أجل الله لآت». أى : فإن الأجل الذي حدده الله ـ تعالى ـ لموت كل نفس وللبعث والحساب ، لآت لا محالة في وقته الذي حدده ـ سبحانه ـ «وهو السميع» لأقوال خلقه «العليم» بما يخفونه وما يعلنونه.

فالرجاء في لقاء الله ، بمعنى الطمع في ثوابه ، ومنهم من فسره بمعنى الخوف من حسابه ـ سبحانه ..

قال صاحب الكشاف : لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب ، لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها ... وقيل : «يرجو» يخاف ، كما في قول الشاعر :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها .. » (١) أى : إذا لسعته النحل لم يخف لسعها

وعلى كلا التفسيرين للرجاء ، فإن الآية الكريمة تبشر المؤمنين بما يدخل السرور على نفوسهم ، وتعدهم بأنهم متى ثبتوا على إيمانهم ، وأحسنوا أعمالهم ، فإن ثوابهم سيظفرون به كاملا غير منقوص ، بفضل الله وإحسانه.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠٣.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه. أى : ومن جاهد في طاعة الله ، وفي سبيل إعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، فإنما يعود ثواب جهاده ونفعه لنفسه لا لغيره.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ جميعا ، لأنه ـ سبحانه ـ لا تنفعه طاعة مطيع ، كما لا تضره معصية عاص ، وإنما لنفسه يعود ثواب المطيع وعليها يرجع عقاب المسيء.

ثم وضح ـ سبحانه ـ ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب جزيل فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ.﴾ .. أى : لنسترن عنهم سيئاتهم ، ولنزيلنها ـ بفضلنا وإحساننا ـ من صحائف أعمالهم.

ثم بعد ذلك ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : ولنجزينهم بأحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا ، بأن نعطيهم على الحسنة عشر أمثالها.

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ .. يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ، والخبر جملة القسم المحذوفة ، وجوابها أى : والله لنكفرن. ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر على الاشتغال. أى : ونخلص الذين آمنوا من سيئاتهم ...

وقال ﴿أَحْسَنَ﴾ لأنه سبحانه إذا جازاهم بالأحسن ، جازاهم بما هو دونه. فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن طاعة الله ـ تعالى ـ يجب أن تقدم على كل طاعة ، فقال :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾(٩)

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٦٨.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما أخرجه الترمذي ، من أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنه حين أسلم ، قالت له أمه حمنة بنت سفيان : يا سعد بلغني أنك صبأت ، فو الله لا يظلني سقف بيت ، وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد ﷺ ... فجاء سعد إلى النبي ﷺ فشكى إليه ما قالته أمه.

فنزلت هذه الآية .. فجاء سعد إليها فقال لها : يا أماه لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني ، فكلي إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى ، فلما يئست منه أكلت وشربت ...» [1] وقوله : ﴿حُسْناً﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف. أى : ووصينا الإنسان بوالديه إيصاء حسنا ، وعبر بالمصدر للمبالغة في وجوب الإحسان إليهما ، بأن يكون بارا بهما ، وعطوفا عليهما ، وسخيّا معهما.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنْ جاهَداكَ﴾ معطوف على ما قبله بإضمار القول : أى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له ﴿إِنْ جاهَداكَ﴾ أى : إن حملاك وأمراك ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ في العبادة أو الطاعة ﴿ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ في ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بيان للواقع ، فهذا القيد لا مفهوم له ، لأنه ليس هناك من إله في هذا الكون ، سوى الله عَزَّ وَجَلَّ .

وقوله تعالى : ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تذييل المقصود به التحذير من معصيته ـ سبحانه ـ.

أى : إلى مرجعكم جميعا ـ أيها الناس ـ يوم القيامة ، فأحاسبكم على أعمالكم حسابا دقيقا ، وأجازى الذين أساءوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ﴾ بفضلنا وإحساننا ﴿فِي الصَّالِحِينَ﴾ أى في زمرة الأقوام ﴿الصَّالِحِينَ﴾ الذين رضينا عنهم ، ورضوا عنا.

* * *

ثم يرسم القرآن الكريم بعد ذلك صورة واضحة لأصحاب القلوب المريضة ، والنفوس الضعيفة ، ويحكى جانبا من أقوالهم الفاسدة ، ودعاواهم الكاذبة فيقول :

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٣٢٨.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾(١٣)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ .. بيان لحال قوم ضعف إيمانهم ، واضطراب يقينهم ، بعد بيان حال المؤمنين الصادقين في قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ ...

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ.﴾ .. قال مجاهد : نزلت في ناس من المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك. وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر ، فقتل بعضهم» [1].

والمعنى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ بلسانه دون أن يواطئ هذا القول قلبه ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾.

وقوله ﴿فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ بيان لحال هذا البعض من الناس عند ما تنزل بهم المصائب والنكبات.

أى : فإذا أوذى هذا البعض ـ بعد قوله آمنا بالله ـ من أجل هذا القول ومن أجل تركه

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٣٣٠.

الدين الباطل ، ودخوله في الدين الحق ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ له أى جعل عذابهم له ، وإيذاءهم إياه ﴿كَعَذابِ اللهِ﴾ أى بمنزلة عذاب الله في الشدة والألم ، فيترتب على ذلك أن يتزلزل إيمانه ، ويضعف يقينه ، بل ربما رجع إلى الكفر بعد الإيمان.

وفي جعل هذا البعض ﴿فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ دليل واضح على ضعف إيمانه ، وفساد تفكيره ، لأن عذاب الناس له دافع ، أما عذاب الله فلا دافع له ، ولأن عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، أما عذاب الله فهو بسبب غضب الله . سبحانه . على من عصاه ، ولأن عذاب الناس معروف أمده ونهايته أما عذاب الله فلا يعرف أحد مداه أو نهايته.

ثم بين . سبحانه . حال هذا الفريق إذا ما منّ الله . تعالى . على المؤمنين الصادقين بنصر ، فقال : ﴿وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ ، لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

والضمير في قوله : ﴿لَيَقُولُنَ﴾ بضم اللام يعود إلى ﴿مِنَ﴾ في قوله : ﴿مَنْ يَقُولُ﴾. باعتبار معناها ، كما أن إفراد الضمائر العائدة إليها باعتبار لفظها ، أى : هكذا حال ضعاف الإيمان ، عند الشدائد يساوون عذاب الناس بعذاب الله ، ولا يثبتون على إيمانهم أما إذا جاءكم النصر . أيها الرسول الكريم . فإن هؤلاء الضعاف في إيمانهم ، يقولون بكل ثقة وتأكيد : إنا كنا معكم مشايعين ومؤيدين ، ونحن إنما أكرهنا على ما قلنا ، ومادام الأمر كذلك فأشركونا معكم فيما ترتب على النصر من مغانم وخيرات.

وقوله . سبحانه . : ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ﴾ رد عليهم في دعواهم الإيمان ، وفي قولهم للمؤمنين : ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ والاستفهام لإنكار ما زعموه ، ولتقرير علم الله . تعالى . الشامل للسر والعلانية.

أى : إن الله . تعالى . عالم بما في صدور العالمين جميعا من خير وشر ، وإيمان وكفر. وإن هؤلاء الذين يقولون آمنا ، ليس الله . تعالى . في حاجة إلى قولهم ، فهو . سبحانه . يعلم السر وأخفى ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾ . تعالى . علما تاما ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به حق الإيمان ﴿وَلَيَعْلَمَنَ﴾ حال المنافقين ، علما لا يخفى عليه شيء من حركاتهم وسكناتهم. وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب. وأكد . سبحانه . علمه بلام القسم وبنون التوكيد ، للرد على دعاوى ضعاف الإيمان بأقوى أسلوب ، وأبلغه ، حتى يقلعوا عن نفاقهم ، ويتبعوا المؤمنين الصادقين في ثباتهم.

ثم حكى . سبحانه . بعد ذلك ما زعمه أئمة الكفر من دعاوى باطلة ، ورد عليها فقال : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾.

أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا على سبيل التضليل والإغراء : اتبعوا سبيلنا أى

طريقنا الذي وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، ولنحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة ، إن كان هناك بعث وحساب.

واللام في قوله : ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ لام الأمر ، كأنهم آمرين أنفسهم بذلك ، ليغروا المؤمنين باتباعهم.

أى : اطمئنوا إلى أننا لن نتخلى عنكم ، ولن ننقض عهودنا معكم في حمل خطاياكم لو اتبعتمونا ، أو هو أمر في تأويل الشرط والجزاء. أى : إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم.

وقد رد الله ـ تعالى ـ زعمهم هذا بقوله : ﴿وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أى : وما هؤلاء الكافرون بحاملين لشيء من خطايا غيرهم التي زعموا حملها يوم القيامة ، وإنهم لكاذبون في كل أقوالهم.

و ﴿مِنْ﴾ الأولى بيانية ، والثانية لنفى حمل أى خطايا مهما صغرت. وقد جاء التكذيب لهم بهذا الأسلوب المؤكد ، حتى يخرس ألسنتهم ، ويمحو كل أثر من أقوالهم من الأذهان.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الأمر على عكس ما زعموه فقال : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾. أى : ليس الأمر ـ كما ـ زعموا من أنهم يحملون خطايا المؤمنين ، بل الحق أن أئمة الكفر هؤلاء سيحملون خطاياهم كاملة غير منقوصة ، وسيحملون فوقها خطايا أخرى ، هي خطايا تسببهم في إضلال غيرهم ، وصرفه عن الطريق الحق.

وعبر عن الخطايا بالأثقال ، للإشعار بغاية ثقلها ، وفداحة حملها ، وعظم العذاب الذي يترتب عليها.

﴿وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ سؤال تأنيب وتوبيخ ﴿عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى : عما كانوا يختلقونه في الدنيا من أكاذيب ، وأباطيل ، أدت بهم إلى سوء المصير.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ﴾ (١).

قال الإمام ابن كثير : وفي الصحيح : «من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم ، مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا» (٢).

* * *

---

(١) آية ٢٥ من سورة النحل.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٧٧.

وبعد هذا الحديث عن انواع الناس ، وعن اقوال المشركين الفاسدة ، وعن سوء عاقبتهم ، ساق - سبحانه - جانبا من قصة نوح وإبراهيم - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١٥) وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١٧)

قال الآلوسى : قوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ﴾. شروع في بيان افتتان الأنبياء - عليهم السلام - بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيدا للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثا لهم على الصبر ، فإن الأنبياء - عليهم السلام - حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها ، فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى ...» [1].

و «نوح» - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاث وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها شيء من التفصيل ، في سور : هود والأعراف ، والمؤمنون ، ونوح.

وقوم الرجل : أقر باؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد. وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٤٢.

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله ـ تعالى ـ إليهم نبيهم نوحا ، ليدلهم على طريق الحق والرشاد.

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا نوحا ـ عليه‌السلام ـ إلى قومه ، لكي يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن عبادة غيرنا (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً) يدعوهم إلى الدين الحق ، ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية.

قالوا : بعث الله نوحا وهو في سن الأربعين من عمره ، ولبث يدعو قومه إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فيكون عمره كله ألف سنة وخمسين سنة.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام؟ قلت : لأن تكرير اللفظ الواحد ، حقيق بالاجتناب في البلاغة ، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض يبتغيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك» [1].

والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التي قضاها نوح ـ عليه‌السلام ـ مع قومه ، تسلية الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وتثبيته ، فكأن الله ـ تعالى ـ يقول له : يا محمد لقد لبث أخوك نوح تلك المدة الطويلة ، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ، فعليك أن تقتدى به في صبره ، وفي مطاولته لقومه.

وقوله ـ سبحانه ـ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ) بيان لسوء عاقبة المكذبين لنوح ـ عليه‌السلام ـ بعد أن مكث فيهم تلك المدة الطويلة.

والطوفان : قد يطلق على كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام ، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء ، وهو المراد هنا.

أى مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ولكنهم كذبوه ، فأخذهم الطوفان ، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم والكفر ، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره.

ثم بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة نوح ومن آمن معه فقال : (فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ) : أى : فأنجينا نوحا ومن آمن معه ، وهم الذين ركبوا معه في السفينة. قيل : كان عدد هؤلاء الذين آمنوا به ثمانين ما بين ذكر وأنثى ، وقيل كانوا أقل من ذلك.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٤٦.

والضمير في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ للسفينة ، أو للحادثة والقصة.

أى : فأنجينا نوحا ومن ركب معه في السفينة ، وجعلناها أى هذه الحادثة عبرة وعظة للعالمين ، حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر والظلم على ممر الأيام والأعوام.

قالوا : ومن مظاهر وجوه العبرة في قصة نجاة نوح ومن معه : أن السفينة التي حملتهم وأقلتهم بقيت مدة طويلة ، وهي مستقرة على جبل الجودي ، الذي يرى كثير من المؤرخين ان مكانه بشمال العراق ، بالقرب من مدينة الموصل.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ مع قومه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ.﴾ ...

ولفظ ﴿إِبْراهِيمَ﴾ منصوب بفعل مضمر. أى : واذكر ـ أيها المخاطب ـ إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ وقت أن قال لقومه : اعبدوا الله ـ تعالى ـ وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ﴿ذلِكُمْ﴾ الذي أمرتكم به من العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الشرك ، ومن كل شيء في هذه الحياة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى : إن كنتم من ذوى العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر.

فأنت ترى أن إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ قد بدأ دعوته لقومه يأمرهم بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع ، الذي يتنافى مع الجهل ..

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل ، فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً.﴾ ...

والأوثان : جمع وثن. وتطلق الأوثان على التماثيل والأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو ما يشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله ـ تعالى ..

وقوله : ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ أى : وتكذبون كذبا واضحا ، حيث سميتم هذه الأوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عنكم ولا عن نفسها شيئا.

أو يكون قوله ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ بمعنى وتصنعون وتنحتون. أى : وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنعا ، من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل ما هو حق إلى كل ما هو باطل.

ثم بين لهم تفاهة هذه الأوثان فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ من أوثان وأصنام ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ أى : لا يملكون لكم شيئا من الرزق حتى ولو كان غاية في القلة.

وما دام الأمر كذلك : ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ﴾ ـ تعالى ـ وحده ﴿الرِّزْقَ﴾ الذي يكفيكم

ويغنيكم ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ـ سبحانه ـ ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ نعماءه ومننه وعطاياه.

فأنتم وجميع الخلق ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره ، فيجازيكم على أعمالكم

وهكذا نرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد سلك في دعوته قومه إلى الحق أبلغ الأساليب وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرضهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحضهم على طلب الرزق ممن يملكه وهو الله ـ عز وجل ـ الذي إليه المرجع والمآب.

ثم أخذ سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يحذر قومه من الاستمرار في تكذيبه ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن قبلهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٣)

قال صاحب الكشاف : وهذه الآية ـ وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ والآيات التي بعدها إلى قوله : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ﴾ .. محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم

ـ صلوات الله عليه ـ لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها.

فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم ، فما المراد بالأمم من قبله؟ قلت : المراد بهم قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمة في معنى أمم جمة مكذبة ...» [1].

وقال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات ، من كلام إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ، يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ﴾ [2].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ .. معطوف على محذوف ، والتقدير : إن تطيعوني ـ أيها الناس ـ فقد فزتم ونجوتم ، وإن تكذبوني فيما أخبرتكم به ، فلستم بدعا في ذلك ، فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم ، فكانت عاقبة المكذبين خسرا.

ثم بين لهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وظيفته فقال : ﴿وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى : لقد بلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، وتلك هي وظيفتي التي كلفنى بها ربي ، وليس على سواها ، أما الحساب والجزاء فمرده إلى الله تعالى وحده.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على أن البعث حق ، وأنه ـ تعالى ـ لا يعجزه شيء ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة ، والواو للعطف على مقدر.

والمعنى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله ـ تعالى ـ الخلق ابتداء ، ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ، وهي أهون عليه.

إنهم ليرون كيف يبدئ الله الخلق في النبتة النامية ، وفي الشجرة الباسقة ، وفي كل ما لم يكن ، ثم بعد ذلك يكون ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى ، مع أنه من المسلم عند كل ذي عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء؟

فالآية الكريمة تقرعهم على إنكارهم البعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على إمكانيته.

واسم الإشارة في قوله : ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ يعود إلى ما ذكر من الأمرين وهما : بدء الخلق ، وإعادته إلى الحياة مرة أخرى.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٠.

أى : إن ذلك الذي ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء.

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر في أحوال هذا الكون ، لعل هذا التأمل يهديهم إلى الحق فقال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ.﴾ ...

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المنكرين للبعث : سيحوا في الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله ـ تعالى ـ ابتداء على أطوار مختلفة ، وطبائع متمايزة. وأحوال شتى ... ثم قل لهم بعد كل ذلك ، الله الذي خلق الخلق ابتداء على تلك الصور المتنوعة والمتكاثرة ، هو وحده الذي ﴿يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أى : هو وحده الذي ينشئهم ويخلقهم ويعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن أوجدهم في المرة الأولى.

فجملة ﴿ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ معطوفة على قوله : ﴿سِيرُوا.﴾ .. وداخلة معها في حيز القول ..

والكيفية في هذه الآية باعتبار بدء الخلق على أطوار شتى ، وصور متعددة ...

وفي الآية السابقة وهي قوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ باعتبار بدء الخلق من مادة وغيرها.

والمقصود بالأمر بالسير : التدبر والتأمل والاعتبار ، لأن من شأن التنقل في جنبات الأرض ، أنه يوقظ الحس ، ويبعث على التفكير ، ويفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ، ولم يتأملها القلب قبل ذلك.

وجاء الأمر بالسير عاما ، لأن كل إنسان ـ في كل زمان ومكان ـ يأخذ من وجوه العبرة والعظة ـ عن طريق هذا السير ما يتناسب مع عقله ، وثقافته ، وبيئته ، وفكره ، ومستواه المادي ، والاجتماعى ، والحضارى ...

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبله. أى : هو ـ سبحانه ـ قادر على النشأة الأولى ، وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لا يعجزها شيء ولا يحول دون نفاذها حائل.

وهو ـ سبحانه ـ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾ ويرحم من يشاء برحمته ، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده لا إلى غيره ﴿تُقْلَبُونَ﴾ أى : ترجعون جميعا فيحاسبكم على أعمالكم.

﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ أى : وما أنتم ـ أيها الناس ـ بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله ـ تعالى ـ ومن حسابه ، سواء كنتم في الأرض ، أم كنتم في السماء ، إذ ليست هناك قوة في هذا الوجود تحول بينكم وبين الانقلاب إليه ـ سبحانه ـ والوقوف بين يديه للحساب والجزاء.

قال الشوكانى : ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ قال الفراء : ولا من في السماء بمعجزين الله فيها ... والمعنى : أنه لا يعجزه ـ سبحانه ـ أهل الأرض ولا أهل السماء في السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتني فلان هاهنا ولا بالبصرة. يعنى : ولا بالبصرة لو صار إليها ...» [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ مؤكد لما قبله. أى : لستم بقادرين على الهرب من لقاء الله ـ تعالى ـ في الآخرة. وليس سواه من ناصر ينصركم ، أو من قريب يدفع عنكم حكمه وقضاءه ـ سبحانه ـ.

ثم بين ـ سبحانه ـ مصير الكافرين فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى ذاته وصفاته .. وكفروا ـ أيضا ـ بالأدلة الدالة على ﴿لِقائِهِ﴾ بأن أنكروا البعث والحساب والجزاء ﴿أُولئِكَ﴾ الذين كفروا بكل ذلك ﴿يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أى : انقطع أملهم في رحمتي إياهم انقطاعا تاما وعبر ـ سبحانه ـ بالماضي لدلالة علمه التام على تحقق وقوع هذا اليأس ، وفقدان الأمل عند هؤلاء الكافرين وقت أن يقفوا بين يديه للحساب ، بسبب كفرهم وسوء أعمالهم.

وأضاف ـ عزوجل ـ الرحمة إليه ، للإشارة إلى سبقها لغضبه ، وأنها تشمل عبادة المؤمنين.

﴿وَأُولئِكَ﴾ أى : الذين كفروا بآيات الله وبلقائه ﴿لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يعلم مقدار شدته وفظاعته إلا هو ـ سبحانه ـ.

ثم قص ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم له ، وما رد به عليهم. فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ١٩٨.

﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٢٧)

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ.﴾ .. بيان لما رد به الظالمون على نبيهم إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ بعد أن وعظهم ونصحهم وأقام لهم أوضح الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه.

ولفظ «جواب» بالنصب ، خبر كان ، واسمها قوله : إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ..

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل.

وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، للاشعار بأن من قومه من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا جميعا على الإحراق ، كما جاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾.

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو أحرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، وتحطيمه لها ...

وقولهم هذا الذي حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم في الظلم والطغيان والجهالة ...

والفاء في قوله ـ تعالى ـ ﴿فَأَنْجاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ فصيحة. أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار ، وألقوه فيها بعد اشتعالها ، فأنجاه الله ـ تعالى ـ منها ، بأن جعلها بردا وسلاما عليه ...

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .. أى : إن في ذلك الذي فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ حيث أخرجناه سليما من النار ﴿لَآياتٍ﴾ بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يؤمنون ، بأن الله ـ تعالى ـ هو رب العالمين ، وأنه له الخلق والأمر.

وجمع ـ سبحانه ـ الآيات لأن في نجاة إبراهيم ، دلالات متعددة على قدرة الله ـ تعالى ـ لا دلالة واحدة ، فنجاته من النار وتحويلها عليه إلى برد وسلام آية ، وعجز المشركين جميعا عن أن يلحقوا به ضررا آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم مع ما شاهدوه ، آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة تبقى على جحودها حتى مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله ـ تعالى ..

ولذا خص ـ سبحانه ـ هذه الآيات ، لأنهم هم وحدهم المنتفعون بها.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ لقومه بعد أن نجاه الله من شرورهم فقال : ﴿وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً ، مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾.

ولفظ «مودة» وردت فيه قراءات : فقد قرأه بعض القراء السبعة بالنصب ، على أنه مفعول به لقوله : ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ أو على أنه مفعول لأجله ، فيكون المعنى :

وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقيدة واقتناع بأحقية عبادتها. وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم ، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضا في عبادتها ، على حساب الحق والهدى.

وهذا شأنكم في الدنيا ، أما في يوم القيامة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، حيث يتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة. ﴿وَمَأْواكُمُ النَّارُ﴾ أى : ومنزلكم الذي تأوون إليه أنتم وأصنامكم يوم القيامة النار ﴿وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ يخلصونكم من هذه النار ، أو يخففون سعيرها عنكم.

وبعض القراء السبعة قرأ لفظ ﴿مَوَدَّةَ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أى : أن ما اتخذتموه من عبادة الأوثان ، هو مودة بينكم في الحياة الدنيا ، أما في الآخرة فسيكفر بعضكم

ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا.

والمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوها في الدنيا آلهة تارة على سبيل التواد فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم .. أما في الآخرة فستتحول تلك المودات والمسايرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات ...

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ.﴾ .. بيان للثمرة الطيبة التي ترتبت على دعوة إبراهيم لقومه ، إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، بعد أن مكث فيهم مدة لا يعلمها إلا الله ، وبعد أن أقام لهم ألوانا من الأدلة على أن ما جاءهم به هو الحق ، وما هم عليه هو الباطل.

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ يشعر بأن لوطا ـ عليه‌السلام ـ وحده ، هو الذي لبى دعوة إبراهيم ، وصدقه في كل ما أخبر به.

ولوط ـ عليه‌السلام ـ يرى كثير من العلماء أنه ابن أخى إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ فهو لوط بن هاران بن آزر.

والضمير في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي.﴾ .. يرى بعضهم أنه يعود إلى لوط ، لأنه أقرب مذكور. أى : فآمن لوط لإبراهيم وصدقه في كل ما جاء به ، وقال : إنى مهاجر إلى الجهة التي أمرنى ربي بالهجرة إليها ، لأبلغ دعوته ، فهو لم يهاجر من أجل منفعة دنيوية ، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر ربه ، وإعلاء كلمته.

ويرى آخرون أن الضمير يعود إلى إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ ، لأن الحديث عنه.

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾ أى : وقال إبراهيم : إنى مهاجر ، أى : من قومي ، إلى ربي .. أى إلى الجهة التي أمرنى بأن أهاجر إليها ﴿إِنَّهُ﴾ ـ عزوجل ـ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ... ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة ..

وقيل : الضمير في ﴿وَقالَ﴾ للوط ـ عليه‌السلام ـ ، وليس بشيء لما يلزم عليه من التفكيك» [(١)].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض النعم التي أنعم بها على نبيه إبراهيم ، بعد أن هاجر من العراق إلى بلاد الشام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس فقال : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ.﴾ ...

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٥٢.

أى : ووهبنا لإبراهيم . بعد أن هاجر ومعه زوجه «سارة» وابن أخيه «لوط» . وهبنا له ابنه إسحاق ، ووهبنا لإسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا ، في ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا في ذريته . أيضا . الكتب التي أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن.

فالمراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية التي أنزلها . سبحانه . على موسى وعيسى وداود ومحمد . صلوات الله عليه . ، وهم جميعا من نسل إبراهيم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما بال إسماعيل لم يذكر ، وذكر إسحاق ويعقوب؟

قلت : قد دل عليه في قوله : ﴿وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره ، وعلو قدره.

فإن قلت : ما المراد بالكتاب؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة ، التي هي : التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن» [(١)].

وقوله . سبحانه . : ﴿وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا﴾ بيان لنعمة أخرى أنعم بها . سبحانه . على نبيه إبراهيم . عليه‌السلام . .

أى : وهبنا له الذرية الصالحة ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتب السماوية ، وآتيناه أجره على أعماله الصالحة في الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة الصالحة ، والذكر الحسن بعد وفاته.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين نعطيهم فيها أجزل العطاء وأوفاه.

وهكذا جمع الله . تعالى . بفضله وإحسانه ، لنبيه إبراهيم ، خيرى الدنيا والآخرة ، جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ، ووفائه في تبليغ رسالة ربه.

وبمناسبة الحديث عن قصة إبراهيم مع قومه ، جاء بعد ذلك الحديث عن جانب من قصة لوط مع قومه. لوط . عليه‌السلام . الذي آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى بلاد الشام ..

قال . تعالى . :

﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥١.

أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ
قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ
(٣٠) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا
ظالِمِينَ (٣١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ
الْغابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا
تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ
رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣٥)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ﴾ .. منصوب بالعطف على إبراهيم في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ﴾ .. أو بفعل مضمر.

أى : واذكر ـ أيها العاقل لتعتبر وتتعظ ـ نبينا لوطا ـ عليه‌السلام ـ وقت أن قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح :

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ أى : إنكم لتفعلون الفعلة

البالغة أقصى دركات القبح والفحش ، والتي ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول من ابتدعها ، وهي إتيان الذكور دون الإناث.

قال عمر بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط.

وقال الوليد بن عبد الملك : لو لا أن الله ـ تعالى ـ قد قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا.

وجاء قوله ـ عليه‌السلام ـ مؤكدا بجملة من المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد إلى ارتكابها.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ.﴾ .. بيان لتلك الفاحشة التي كانوا يقترفونها ، والاستفهام للتأنيب والتقريع.

والسبيل : الطريق. والنادي : اسم جنس للمكان الذي يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور ، أى : أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وتقطعون الطريق على المارة ، بأن تنتهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم إكراها على ارتكاب الفاحشة معهم ، أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور ، وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات في مجالسكم الخاصة ، وفي نواديكم التي تتلاقون فيها.

فأنت ترى أن نبيهم ـ عليه‌السلام ـ قد وصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها ، والباعث لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو انتكاس فطرتهم ، وفساد نفوسهم ، وشذوذ شهواتهم.

فماذا كان جوابهم على نبيهم ـ عليه‌السلام ـ؟ لقد كان جوابهم في غاية التبجح والسفاهة ، وقد حكاه القرآن في قوله : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره : ائتنا يا لوط بعذاب الله الذي تتوعدنا به ، إن كنت صادقا في دعواك أنك رسول ، وفي دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا هذه التي ألفناها وأحببناها.

وهكذا نرى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نصح نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (١).

---

(١) سورة النمل. الآية ٥٦.

ولذا لجأ لوط ـ عليه السلام ـ إلى ربه ، يلتمس منه النصرة والعون فقال : ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ ، أى : انصرني بأن تنزل عذابك على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على ارتكاب فواحش ، لم يسبقهم بها من أحد من العالمين.

وأجاب الله ـ تعالى ـ دعاء نبيه لوط ـ عليه السلام ـ ، وأرسل ـ سبحانه ـ ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق. قبل أن ينفذوا عذاب الله في قوم لوط ، قال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أى : وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق : قالوا له : يا إبراهيم ، إنا مرسلون من ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهي قرية سدوم التي يسكنها قوم لوط ، والسبب في ذلك ﴿إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾ ، حيث أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، واقترفوا في مجالسهم المنكرات.

وهنا قال لهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بخشيته وشفقته : ﴿إِنَّ فِيها لُوطاً﴾ أى : إن في هذه القرية التي جئتم لإهلاكها لوطا ، وهو نبي من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها؟ وهنا رد عليه الملائكة بما يزيل خشيته فقالوا : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها﴾ من الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين.

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ أى : اطمئن يا إبراهيم فإن الله ـ تعالى ـ قد أمرنا أن ننجي لوطا وأن ننجي معه من الهلاك أهله المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع المهلكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها للوط ـ عليه السلام ـ حيث كانت تقر جرائم قومها ، ولا تعمل على إزالتها وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات.

والغابر : الباقي. يقال : غبر الشيء يغبر غبورا ، أى : بقي ، وقد يستعمل فيما مضى ـ أيضا ـ فيكون من الأضداد. ومنه قولهم : هذا الشيء حدث في الزمن الغابر. أى : الماضي.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال لوط ـ عليه السلام ـ بعد أن وصل إليه الملائكة لينفذوا قضاء الله ـ تعالى ـ في قومه ، فقال ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ. وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾.

و «أن» هنا مزيدة لتأكيد المجيء. و «سيء بهم» أى : اعترته المساءة والأحزان بسبب مجيئهم ، لخوفه من اعتداء قومه عليهم.

قال القرطبي : والذرع مصدر ذرع. وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعا ، على قدر سعة خطوه ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك ، وضعف ومد عنقه. فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع ... وإنما ضاق ذرعه بهم ، لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه ..» [1]. أى : وحين جاءت الملائكة إلى لوط ـ عليه‌السلام ـ ورآهم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشي أن يعتدى قومه عليهم. وهو لا يستطيع الدفاع عن هؤلاء الضيوف.

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ : تعبير بليغ ، وتصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه ، وعجزه عن وجود مخرج للمكروه الذي حل به. و «ذرعا» تمييز محول عن الفاعل ، أى : ضاق بأمرهم ذرعه.

ولاحظ الملائكة ـ عليهم‌السلام ـ على لوط قلقه وخوفه ، فقالوا له على سبيل التبشير وإدخال الطمأنينة على نفسه ، يا لوط : ﴿لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ﴾ أى : لا تخف علينا من قومك ، ولا تحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة المفاجئة.

ثم أفصحوا له عن مهمتهم فقالوا : ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾.

أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من العذاب الذي ننزله بقومك ، إلا امرأتك فسيدركها العذاب مع قومك ، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئها معهم ، ورضاها بأفعالهم القبيحة.

ثم أخبروه بالكيفية التي ينزل بها العذاب على قومه فقالوا : ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

والرجز : العذاب الذي يزعج المعذب به ويجعله في حالة اضطراب وهلع. يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج.

أى : إنا منزلون بأمر الله ـ تعالى ـ وإرادته ، على أهل هذه القرية ـ وهي قرية سدوم التي كان يسكنها قوم لوط ـ ﴿رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾ أى : عذابا شديدا كائنا من السماء ، بحيث لا يملكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن حكمته قد اقتضت. أن يجعل آثار هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٧٤.

أى : ولقد تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة. تدل على هلاك أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعملون عقولهم في التدبر والتفكر.

قال ابن كثير : وذلك أن جبريل ـ عليه‌السلام ـ اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها. بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال : (وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) كما قال : (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) [1].

* * *

ثم ساق ـ سبحانه ـ جانبا من قصة شعيب وهود وصالح ـ عليهم‌السلام ـ مع أقوامهم ، وكيف أن هؤلاء الأقوام قد كانت عاقبتهم خسرا ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، فقال ـ تعالى ـ :

(وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧) وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٧.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤٠)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ .. معطوف على مقدر محذوف ، لدلالة ما قبله عليه. ومدين : اسم للقبيلة التي تنسب إلى مدين بن إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ .. وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى معان بين حدود الحجاز والشام.

وقد أرسل الله ـ تعالى ـ إليهم شعيبا ـ عليه‌السلام ـ ليأمرهم بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، ولينهاهم عن الرذائل التي كانت منتشرة فيهم ، والتي من أبرزها التطفيف في المكيال والميزان.

والمعنى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وإبراهيم إلى قومه ، أرسلنا إلى أهل مدين ، رسولنا شعيبا ـ عليه‌السلام ـ ..

﴿فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ أى : فقال لهم ناصحا ومرشدا ، الكلمة التي قالها كل نبي لأمته : يا قوم اعبدوا الله ـ تعالى ـ وحده ، واتركوا ما أنتم عليه من شرك.

وقال لهم ـ أيضا : وارجوا النجاة من أهوال يوم القيامة ، بأن تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، فإن الإفساد في الأرض ليس من شأن العقلاء ، وإنما هو من شأن الجهلاء الجاحدين لنعم الله ـ تعالى .. يقال : عثى فلان في الأرض يعثو ويعثى ـ كقال وتعب ـ ، إذا ارتكب أشد أنواع الفساد فيها.

فأنت ترى أن شعيبا ـ عليه‌السلام ـ وهو خطيب الأنبياء ـ كما جاء في الحديث الشريف ، قد أمر قومه بإخلاص العبادة لله ، وبالعمل الصالح الذي ينفعهم في أخراهم ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، فماذا كان موقفهم منه؟

كان موقفهم منه : التكذيب والإعراض ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى : فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أى : فأهلكهم الله ـ تعالى ـ بسبب تكذيبهم لنبيهم بالرجفة ، وهي الزلزلة الشديدة. يقال : رجفت الأرض ، إذا اضطربت اضطرابا شديدا.

ولا تعارض هنا بين قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وبين قوله ـ سبحانه ـ في سورة هود : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ لأنه يجوز أن الله ـ تعالى ـ جعل لإهلاكهم سببين : الأول : أن جبريل ـ عليه السلام ـ صاح بهم صيحة شديدة أذهلتهم ، ثم رجفت بهم الأرض فأهلكتهم. وبعضهم قال : إن الرجفة والصيحة بمعنى واحد.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم بعد هلاكهم.

والمراد بدارهم : مساكنهم التي يسكنونها ، أو قريتهم التي يعيشون بها وقوله : ﴿جاثِمِينَ﴾ من الجثوم ، وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل. يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم ـ من باب ضرب ـ ، إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه.

أى : فأصبحوا في مساكنهم هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا.

ثم أشار ـ سبحانه ـ بعد ذلك إلى مصارع عاد وثمود فقال : ﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

وعاد : هم قوم هود ـ عليه السلام ـ وكانوا يسكنون بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية ، بالقرب من حضرموت.

وثمود : هم قوم صالح ـ عليه السلام ـ وكانت مساكنهم بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت مساكنهم تعرف حتى الآن بقرى صالح.

أى : وأهلكنا عادا وثمود بسبب كفرهم وعنادهم ، كما أهلكنا غيرهم ، والحال أنه قد تبين لكم ـ يا أهل مكة ـ وظهر لكم بعض مساكنهم ، وأنتم تمرون عليهم في رحلتي الشتاء والصيف.

فقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ﴾ المقصود منه غرس العبرة والعظة في نفوس مشركي مكة ، عن طريق المشاهدة لآثار المهلكين ، فإن مما يحمل العقلاء على الاعتبار ، مشاهدة آثار التمزيق والتدمير ، بعد القوة والتمكين.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ السيئة. بسبب وسوسته وتسويله ، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق ، وعن الطريق المستقيم.

﴿وَكانُوا﴾ أى : عادا وثمود ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أى : وكانت لهم عقول يستطيعون التمييز بها بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ولكنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، وإنما استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغي على الرشد ، فأخذهم الله ـ تعالى ـ أخذ عزيز مقتدر.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ من الاستبصار ، بمعنى التمكن من تعقل الأمور ، وإدراك خيرها من شرها ، وحقها من باطلها.

ثم أشار ـ سبحانه ـ إلى ما حل بقارون وفرعون وهامان فقال : ﴿وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ﴾ أى : وأهلكنا ـ أيضا ـ قارون ، وهو الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم ، كما أهلكنا فرعون الذي قال لقومه : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ وهامان الذي كان وزيرا لفرعون وعونا له في الكفر والظلم والطغيان.

قال الآلوسى : وتقديم قارون ، لأن المقصود تسلية النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم فيما لقى من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى ـ عليه‌السلام ـ وقد لقى منه ما لقى. أو لأن حال قارون أوفق بحال عاد وثمود ، فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ، ولكنه لم يفده الاستبصار شيئا ، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئا .. »[1].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما جاءهم به موسى ـ عليه‌السلام ـ وموقفهم منه فقال : ﴿وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ﴾ أى : جاءهم جميعا بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : فاستكبر قارون وفرعون وهامان في الأرض. وأبوا أن يؤمنوا بموسى ، بل وصفوه بالسحر وبما هو برىء منه.

﴿وَما كانُوا سابِقِينَ﴾ أى : وما كانوا بسبب استكبارهم وغرورهم هذا ، هاربين أو ناجين من قضائنا فيهم ، ومن إهلاكنا لهم.

فقوله : ﴿سابِقِينَ﴾ من السبق ، بمعنى التقدم على الغير. يقال فلان سبق طالبه ، إذا تقدم عليه دون أن يستطيع هذا الطالب إدراكه.

والمراد أن قارون وفرعون وهامان ، لم يستطيعوا ـ رغم قوتهم وغنائهم ـ أن يفلتوا من عقابنا ، بل أدركهم عذابنا إدراكا تاما فأبادهم وقضى عليهم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الحديث عن هؤلاء المكذبين ، ببيان سنة من سننه التي لا تتخلف ، فقال : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ﴾.

أى : فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح ، وكقارون وفرعون وهامان وأمثالهم : كلا من هؤلاء الظالمين أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه التي أصر عليها دون أن يرجع عنها.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٥٨.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً﴾ أي : فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه ، بأن أرسلنا عليه ريحا شديدة رمته بالحصباء فأهلكته.

قال القرطبي : قوله : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً﴾ يعنى قوم لوط. والحاصب ريح يأتى بالحصباء ، وهي الحصى الصغار. وتستعمل في كل عذاب [1].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كما حدث لقوم صالح وقوم شعيب. عليهما السلام ..

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو قارون.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا﴾ كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه.

﴿وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أى : وما كان الله. تعالى. مريدا لظلمهم ، لأنه. سبحانه. اقتضت رحمته وحكمته ، أن لا يعذب أحدا بدون ذنب ارتكبه.

﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى : ما ظلم الله. تعالى. هؤلاء المهلكين ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وعرضوها للدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واتباعهم للهوى والشيطان.

وبذلك نرى الآيات قد قصت على الناس مصارع الغابرين ، الذين كذبوا الرسل ، وحاربوا دعوة الحق ، ليكون في هذا القصص عبرة للمعتبرين ، وذكرى للمتذكرين.

ثم ضرب الله مثلا ، لمن يتخذ آلهة من دونه : وتوعد من يفعل ذلك بأشد أنواع العذاب ، فقال. تعالى. :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (٤٣)

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٣٤٤.

والمثل والمثل : النظير والشبيه ، ثم أطلق المثل على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه ـ وهو الذي يضرب فيه ـ لمورده ـ وهو الذي ورد فيه أولا ـ ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ـ ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة ، إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة. وعلى هذا المعنى يحمل المثل هنا.

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس ، وعرض الغائب في صورة الحاضر ، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل ، أوقع في القلوب ، وأثبت في النفوس.

والعنكبوت : حشرة معروفة ، تنسج لنفسها في الهواء بيتا رقيقا ضعيفا ، لا يغنى عنها شيئا ، وتطلق هذه الكلمة على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب في استعمالها التأنيث. والواو والتاء زائدتان ، كما في لفظ طاغوت.

والمعنى : حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله ـ تعالى ـ أصناما يعبدونها ، ويرجون نفعها وشفاعتها ... كحال العنكبوت في اتخاذها بيتا ضعيفا مهلهلا ، لا ينفعها لا في الحر ولا في القر ، ولا يدفع عنها شيئا من الأذى.

فالمقصود من المثل تجهيل المشركين وتقريعهم ، حيث عبدوا من دون الله ـ تعالى ـ آلهة ، هي في ضعفها ووهنها تشبه بيت العنكبوت ، وأنهم لو كانوا من ذوى العلم لما عبدوا تلك الآلهة.

قال صاحب الكشاف : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلا ومعتمدا في دينهم ، وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة. وهو نسج العنكبوت. ألا ترى إلى مقطع التشبيه ، وهو قوله : (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ).

فإن قلت : ما معنى قوله : (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟

قلت : معناه ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ...» [1].

وقال الآلوسى : قوله : (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كانوا يعلمون شيئا من الأشياء ، لعلموا أن هذا مثلهم ، أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. و «لو» شرطية ، وجوابها محذوف ، وجوز بعضهم كونها للتمني فلا جواب لها ، وهو غير ظاهر» [2].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٥٤.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٦٢.

ثم بين . سبحانه . أن علمه شامل لكل شيء ، وأنه سيجازى هؤلاء المشركين بما يستحقونه من عقاب فقال : ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

و «ما» موصولة ، وهي مفعول يعلم ، والعائد محذوف ، و «من شيء» بيان لما.

أى : إن الله . تعالى . يعلم علما تاما الذي يعبده هؤلاء المشركون من دونه ، سواء أكان ما يعبدونه من الجن أم من الإنس أم من الجمادات أم من غير ذلك ، ﴿وَهُوَ﴾ . سبحانه . ﴿الْعَزِيزُ﴾ أى : الغالب على كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ﴾ التي سقناها في كتابنا العزيز ، والتي من بينها المثال السابق.

﴿نَضْرِبُها لِلنَّاسِ﴾ على سبيل الإرشاد والتنبيه والتوضيح.

﴿وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ أى : وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها ، إلا الراسخون في العلم ، المتدبرون في خلق الله . تعالى . ، الفاقهون لما يتلى عليهم.

ثم ذكر . سبحانه . ما يدل على عظيم قدرته ، وأمر نبيه ﷺ بالإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، ومن الصلاة ، فقال . تعالى . :

﴿خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾(٤٥)

أى : خلق الله . تعالى . السموات والأرض بالحق الذي لا باطل معه ، وبالحكمة التي لا يشوبها عبث أو لهو ، حتى يكون هذا الخلق متفقا مع مصالح عبادنا ومنافعهم ..

ومن مظاهر ذلك ، أنك لا ترى . أيها العاقل . في خلق الرحمن من تفاوت أو تصادم ، أو اضطراب.

واسم الإشارة في قوله . تعالى . : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعود إلى خلق السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه من بدائع وعجائب.

أى : إن في ذلك الذي خلقناه بقدرتنا ، من سماوات مرتفعة بغير عمد ، ومن أرض مفروشة بنظام بديع ، ومن عجائب لا يحصيها العد في هذا الكون ، إن في كل ذلك لآية بينة ، وعلامة واضحة ، على قدرة الله . عَزَّوَجَلَّ ..

وخص المؤمنين بالذكر ، لأنهم هم المتدبرون في هذه الآيات والدلائل ، وهم المنتفعون بها في التعرف على وحدانية الله وقدرته ، وعلى حسن عبادته وطاعته.

والمقصود بالتلاوة في قوله . تعالى . : ﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ﴾ : القراءة المصحوبة بضبط الألفاظ ، وبتفهم المعاني. والخطاب للرسول ﷺ ويشمل كل من آمن به. أى : اقرأ . أيها الرسول الكريم . ما أوحينا إليك من آيات هذا القرآن قراءة تدبر واعتبار واتعاظ ، وداوم على ذلك ، ومر أتباعك أن يقتدوا بك في المواظبة على هذه القراءة الصحيحة النافعة.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أى : وواظب على إقامة الصلاة في أوقاتها بخشوع وإخلاص واطمئنان ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا بك في ذلك.

وقوله : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ تعليل للأمر بالمحافظة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص. أى : داوم . أيها الرسول الكريم . على إقامة الصلاة بالطريقة التي يحبها الله . تعالى . ، فإن من شأن الصلاة التي يؤديها المسلم في أوقاتها بخشوع وإخلاص ، أن تنهى مؤديها عن ارتكاب الفحشاء . وهي كل ما قبح قوله وفعله . ، وعن المنكر . وهو كل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة ..

قال الجمل : «ومعنى نهيها عنهما ، أنها سبب الانتهاء عنهما ، لأنها مناجاة لله . تعالى . ، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته ، وإعراض كلى عن معاصيه.

قال ابن مسعود : في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزدد من الله إلا بعدا ..

وروى عن أنس . رضى الله عنه . أن فتى من الأنصار ، كان يصلى مع النبي ﷺ ثم يأتى الفواحش ، فذكر للنبي ﷺ فقال : إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله» [1].

والخلاصة : أن من شأن الصلاة المصحوبة بالإخلاص والخشوع وبإتمام سننها وآدابها ، أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن وجدت إنسانا يؤدى الصلاة ، ولكنه مع ذلك يرتكب

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٧٧.

بعض المعاصي ، فأقول لك : إن الذنب ليس ذنب الصلاة ، وإنما الذنب ذنب هذا المرتكب للمعاصي ، لأنه لم يؤد الصلاة أداء مصحوبا بالخشوع والإخلاص ... وإنما أداها دون أن يتأثر بها قلبه .. ولعلها تنهاه في يوم من الأيام ببركة مداومته عليها ، كما جاء في الحديث الشريف : «إن الصلاة ستنهاه».

وقوله . سبحانه . : ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أى : ولذكر الله . تعالى . بجميع أنواعه من تسبيح وتحميد وتكبير وغير ذلك من ألوان العبادة والذكر ، أفضل وأكبر من كل شيء آخر ، لأن هذا الذكر لله . تعالى . في كل الأحوال ، دليل على صدق الإيمان ، وحسن الصلة بالله . تعالى ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله . تعالى . : ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ ، قال ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر .. أى : ولذكر الله . تعالى . إياكم ، أكبر من ذكركم إياه . سبحانه ...

وروى عن جماعة من السلف أن المعنى : ولذكر العبد لله . تعالى . ، أكبر من سائر الأعمال.

أخرج الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملا أنجى له من عذاب الله يوم القيامة ، من ذكر الله . تعالى . ..

وقيل : المراد بذكر الله : الصلاة. كما في قوله . تعالى . : ﴿فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ ، أى : إلى الصلاة ، فيكون المعنى : وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها به ، للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله . تعالى . هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ، ناهية عن السيئات» (١).

ويبدو لنا أن المراد بذكر الله . تعالى . هنا : ما يشمل كل قول طيب وكل فعل صالح ، يأتيه المسلم بإخلاص وخشوع ، وعلى رأس هذه الأقوال والأفعال : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، والصلاة وما اشتملت عليه من أقوال وأفعال ..

وأن المسلم متى أكثر من ذكر الله . تعالى . ، كان ثوابه . سبحانه . له ، وثناؤه عليه ، أكبر وأعظم من كل قول ومن كل فعل.

وقوله . سبحانه . : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾ تذييل قصد به الترغيب في إخلاص العبادة لله ، والتحذير من الرياء فيها.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ١٦٥.

أى : داوموا ـ أيها المؤمنون. على تلاوة القرآن الكريم ، بتدبر واعتبار ، وأقيموا الصلاة في أوقاتها بخشوع وخضوع ، وأكثروا من ذكر الله ـ تعالى ـ في كل أحوالكم ، فإن الله ـ تعالى ـ يعلم ما تفعلونه وما تصنعونه من خير أو شر ، وسيجازى ـ سبحانه ـ الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ..

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله والمؤمنين. أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، ما داموا لم يرتكبوا ظلما ، وأقام ـ سبحانه ـ الأدلة على أن هذا القرآن من عنده وحده ، فقال :

﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (٤٧) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾(٤٩)

[(١)] والمجادلة : المخاصمة. يقال : جادل فلان فلانا ، إذا خاصمه ، وحرص كل واحد منهما على أن يغلب صاحبه بقوة حجته. أى : ولا تجادلوا ـ أيها المؤمنون ـ غيركم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، إلا بالطريقة التي هي أحسن ، بأن ترشدوهم إلى طريق

---

(١) أول الجزء الحادي والعشرين.

الحق بأسلوب لين كريم ، كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .. (١).

وقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الذين يجادلون بالتي هي أحسن.

أى : ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم. بأن أساءوا إليكم ، ولم يستعملوا الأدب في جدالهم ، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب.

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة ، دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى في مجادلتهم لأهل الكتاب عموما ، ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم.

وقيل : المراد بأهل الكتاب هنا : المؤمنون منهم ، والمراد بالذين ظلموا : من بقي على الكفر منهم.

فيكون المعنى : ولا تجادلوا ـ أيها المؤمنون ـ من آمن من أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم.

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر ، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقي على دينه من أهل الكتاب ، ولأن من ترك كفره منهم ودخل في الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب ، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون في حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته ، ولأن قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ.﴾ .. يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقي على دينه منهم.

أى : جادلوهم بالطريقة الحسنى ماداموا لم يظلموكم ، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد «آمنا بالذي أنزل إلينا» وهو القرآن ، وآمنا بالذي أنزل إليكم من التوراة والإنجيل.

قال الشوكانى : أى : آمنا بأنهما منزلان من عند الله ، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية ، والبعثة المحمدية ولا يدخل في ذلك ما حرفوه وبدلوه ، (٢).

﴿وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ﴾ لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته ﴿وَنَحْنُ﴾ جميعا معاشر المؤمنين ﴿لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى : مطيعون وعابدون له وحده ، ولا نتخذ أربابا من دونه ـ عزّ وجلّ ـ ..

---

(١) سورة النحل. الآية ١٢٥.

(٢) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٢٠٥.

قال القرطبي ما ملخصه : اختلف العلماء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ﴾ .. فقال مجاهد : هي محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، على معنى الدعاء لهم إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ ، والتنبيه على حججه وآياته ... وقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أى ظلموكم ..

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال وهي قوله : ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ...

وقول مجاهد : حسن ، لأن أحكام الله ـ عزّ وجلّ ـ لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول ...» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف الناس من هذا الكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ فقال : ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ...

والكاف بمعنى مثل : واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا. أى : ومثل ذلك الإنزال المعجز البديع ، أنزلنا إليك الكتاب ـ أيها الرسول الكريم ـ ليكون هداية للناس ، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق ، يؤمنون بهذا الكتاب الذي نزل عليك ، وهو القرآن.

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب : المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله. والمراد بالكتاب جنسه. والضمير في «به» يعود إلى القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب ، على سبيل المدح لهم. لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضاه ، أما غيرهم ممن بقي على كفره ، فلكونه لم ينتفع بما في الكتاب من هدايات ، فكأنه لم يره أصلا.

وقوله : ﴿وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أى : ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم ـ أيها الرسول الكريم ـ من يؤمن بهذا القرآن الذي أنزلناه إليك.

و «من» للتبعيض ، لأنهم لم يؤمنوا جميعا ، وإنما آمن منهم من هداه الله ـ تعالى ـ إلى الصراط المستقيم.

﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا ، ﴿إِلَّا الْكافِرُونَ﴾ أى : إلا الموغلون في الكفر ، المصرون عليه إصرارا تاما.

والجحود : إنكار الحق مع معرفة أنه حق.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٢٥٠.

وعبر عن الكتاب بالآيات ، للإشعار بأنها في غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله ـ تعالى ـ ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالجحود والنكران.

ثم ساق ـ سبحانه ـ أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده ـ تعالى ـ ، فقال : ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أى : أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ ما كنت في يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن ـ تاليا لكتاب من الكتب ، ولا عارفا للكتابة ، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون في شأنك ، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين.

و ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ كِتابٍ﴾ لتأكيد نفى كونه صلى‌الله‌عليه‌وسلم قارئا لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه.

وقوله : ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ لتأكيد نفى كونه صلى‌الله‌عليه‌وسلم يعرف الكتابة أو الخط.

قال الإمام ابن كثير : وهكذا صفته صلى‌الله‌عليه‌وسلم في الكتب المتقدمة ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ .. وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى يوم القيامة ، لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم ...» [1].

والمراد بالمبطلين ، كل من شك في كون هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، سواء أكان من مشركي مكة أم من غيرهم.

وسماهم ـ سبحانه ـ مبطلين ، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق ، لأن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة ، يعرفون حسبه ونسبه ، ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة.

ثم بين ـ سبحانه ـ حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال : ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ.﴾ ...

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٩٥.

أى : هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول ﷺ كما زعم المبطلون . ، بل هو آيات بينات واضحات راسخات ، في صدور المؤمنين به ، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته ، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب.

ووصف الله . تعالى . المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم ، والإعلاء من شأنهم ، حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم . سبحانه . من علم نافع ، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله ، ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

وقوله . سبحانه . : ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزوا كل حق وصدق في أحكامهم وتصرفاتهم.

أى : وما يجحد آياتنا مع وضوحها وسطوعها ، وينكر كونها من عند الله . تعالى . ، إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق ، ولكل ما هو صدق.

ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفا من أقوال المشركين الفاسدة وأمرت الرسول ﷺ أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم ، كما قصت علينا لونا من ألوان جهالاتهم ، حيث استعجلوا العذاب الذي لا يستعجله عاقل. فقال . تعالى . :

﴿وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥٥)

ومرادهم بالآيات في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الآيات الكونية، كعصا موسى، وناقة صالح. ولو لا حرف تحضيض بمعنى هلا.

أى : وقال المبطلون للنبي ﷺ على سبيل التعنت والعناد، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتي جاء بها بعض الأنبياء من قبلك، لكي نؤمن بك ونتبعك؟

وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إرشاد من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ إلى ما يرد به عليهم.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ في ردك على هؤلاء الجاهلين، إنما الآيات التي تريدونها عند الله ـ تعالى ـ وحده، ينزلها حسب إرادته وحكمته، أما أنا فإن وظيفتي الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتي، وليس من وظيفتي أن أقترح على الله ـ تعالى ـ شيئا.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ .. كلام مستأنف من جهته ـ تعالى ـ لتوبيخهم على جهالاتهم، والاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقدر.

والمعنى : أقالوا ما قالوا من باطل وجهل، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب الناطق بالحق، يتلى على مسامعهم صباح مساء، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم، لو تدبروه وآمنوا به، واتبعوا أوامره ونواهيه؟

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة عليهم، وغير منقطعة عنهم، وكان في إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا يعقلون.

ولذا ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أى : إن في ذلك الكتاب الذي أنزلناه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ، والذي تتلوه عليهم صباح مساء، لرحمة عظيمة، وذكرى نافعة، لقوم يؤمنون بالحق، ويفتحون عقولهم للرشد، لا للتعنت والجحود والعناد.

ثم أرشده ـ سبحانه ـ إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال : ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾. أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاهلين : يكفيني كفاية تامة أن يكون الله ـ تعالى ـ وحده ، هو الشهيد بيني وبينكم على أنى صادق فيما أبلغه عنه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده.

وهو ـ سبحانه ـ ﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ علما لا يعزب عنه شيء ، وسيجازيني بما أستحقه من ثواب ، وسيجازيكم بما تستحقونه من عقاب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ﴾ وأعرضوا عن الحق ﴿وَكَفَرُوا بِاللهِ﴾ ـ تعالى ـ مع وضوح الأدلة على أنه ـ سبحانه ـ هو المستحق للعبادة والطاعة.

الذين فعلوا ذلك : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ خسارة ليس بعدها خسارة ، حيث آثروا الغي على الرشد ، واستحبوا العمى على الهدى ، وسيكون أمرهم فرطا في الدنيا والآخرة.

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ.﴾ .. بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين ، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم. أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك ـ أيها الرسول الكريم ـ بل أضافوا إلى ذلك ، التطاول عليك ، لسوء أدبهم ، وعدم فهمهم لوظيفتك. بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء ، على سبيل التحدي لك. كما قالوا في موطن آخر : ﴿... اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ (١).

ثم يبين الله ـ تعالى ـ حكمته في تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول : ﴿وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ.﴾ ... أى : يستعجلك المشركون يا محمد في نزول العذاب بهم ، والحق أنه لو لا أجل مسمى ، ووقت معين ، حدده الله ـ تعالى ـ في علمه لنزول العذاب بهم ، لجاءهم العذاب في الوقت الذي طلبوه ، بدون إبطاء أو تأخير.

ومع ذلك فقل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ إن هذا العذاب آت لا ريب فيه في الوقت الذي يشاؤه الله ـ تعالى ـ ، وإن هذا العذاب المدمر المهلك : ﴿لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾. أى : ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات ، والحال أنهم لا يشعرون به ، بل يأتيهم بغتة فيبهتهم ، ويستأصل شأفتهم.

ثم كرر ـ سبحانه ـ أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم ، والتسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم عما لقيه منهم. فقال : ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢.

أى : يستعجلونك ـ أيها الرسول الكريم ـ بالعذاب ، الذي لا يطلبه أحد في ذهنه مثقال ذرة من عقل ، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة ، وستحيط بهم جهنم من كل جانب.

ثم بين ـ سبحانه ـ كيفية إحاطة جهنم بهم فقال : ﴿يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ﴾.

أى : ستحيط بهم جهنم من كل جانب. يوم يحل بهم العذاب ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أى : من جميع جهاتهم.

﴿وَيَقُولُ﴾ ـ سبحانه ـ لهم ، على سبيل التقريع والتأنيب ﴿ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : تذوقوا العذاب المهين الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا والذي أحاط بكم من كل جانب بسبب أعمالكم القبيحة ، وأقوالكم الباطلة.

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة المكذبين ، الذين استعجلوا العذاب لجهلهم وعنادهم ، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على الحق ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٦٠)

قال الإمام ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ.﴾ .. : هذا أمر من الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين ، بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ...

روى الإمام أحمد عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : «البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرا فأقم».

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك .. ثم بعد ذلك ، هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة ...» [1].

وفي ندائهم بقوله : ﴿يا عِبادِيَ﴾ وفي وصفهم بالإيمان ، تكريم وتشريف لهم ، حيث أضافهم ـ سبحانه ـ إلى ذاته ، ونعتهم بالنعت المحبب إلى قلوبهم.

وقوله : ﴿إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ﴾ تحريض لهم على الهجرة من الأرض التي لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : ليس هناك ما يجبركم على الإقامة في تلك الأرض التي لا قدرة لكم فيها على إظهار دينكم ، بل اخرجوا منها فإن أرضى واسعة ، ومن خرج من أجل كلمة الله ، رزقه الله ـ تعالى ـ من حيث لا يحتسب.

ومن المفسرين الذين أجادوا في شرح هذا المعنى ، صاحب الكشاف ـ رحمه‌الله ـ فقد قال : ومعنى الآية : أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ، ولم يتمش له أمر دينه كما يحب ، فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وأكثر عبادة ...

ولعمري إن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جربنا وجرب أولونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس ، وعصيان الشهوة ، وأجمع للقلب المتلفت ، وأضم للهم المنتشر ، وأحث على القناعة ، وأطرد للشيطان ، وأبعد عن الفتن ... من سكنى حرم الله ، وجوار بيت الله ، فلله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ...» [2].

والفاء في قوله ـ تعالى ـ ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ بمعنى الشرط ، وإياى منصوب بفعل مضمر ، قد استغنى عنه بما يشبهه. أى : فاعبدوا إياى فاعبدون.

والمعنى : إن ضاق بكم مكان ، فإياى فاعبدوا ، لأن أرضى واسعة ، ولن تضيق بكم.

ثم رغبهم بأسلوب آخر في الهجرة من الأرض الظالم أهلها ، بأن بين لهم بأن الموت سيدركهم في كل مكان ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ، ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾.

أى : كل نفس سواء أكانت في وطنها الذي عاشت فيه أم في غيره ، ذائقة لمرارة الموت ، ومتجرعة لكأسه ، ثم إلينا بعد ذلك ترجعون جميعا لنحاسبكم على أعمالكم.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده للمؤمنين الصادقين من جزاء طيب فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً.﴾ ...

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٩٩.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٦١.

أى : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، لننزلنهم من الجنة غرفا عالية فخمة.

هذه الغرف من صفاتها أنها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ زيادة في إكرام أصحابها ، وفضلا عن ذلك فقد جعلناهم ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ خلودا أبديا.

والمخصوص بالمدح في قوله : ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ محذوف. أى : نعم أجر العاملين ، أجر هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وقوله : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ صفة لهؤلاء العاملين.

أى : من مناقبهم الجليلة أنهم يصبرون على طاعة الله ، وعلى كل ما يحسن معه الصبر ، وأنهم يفوضون أمورهم إلى خالقهم لا إلى غيره.

ثم رغبهم ـ سبحانه ـ في الهجرة لإعلاء كلمة الله بأسلوب ثالث ، حيث بين لهم أن هجرتهم لن تضيع شيئا من رزقهم الذي كتبه الله لهم ، فقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

روى أن بعض الذين أسلموا بمكة عند ما أمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة قالوا : كيف نهاجر إلى بلدة ليس لنا فيها معيشة ، فنزلت هذه الآية.

وكلمة «كأين» : مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير. ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها. وهي مبتدأ. و «من دابة» تمييز لها.

وجملة : «لا تحمل رزقها» صفة لها ، وجملة «الله يرزقها» هي الخبر.

والدابة : اسم لكل نفس تدب على وجه الأرض سواء أكانت من العقلاء أم من غير العقلاء. أى : وكثير من الدواب التي خلقها الله ـ تعالى ـ بقدرته ، لا تستطيع تحصيل رزقها ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، لضعفها أو عجزها ... ومع هذا فالله ـ تعالى ـ برحمته وفضله يرزقها ولا يتركها تموت جوعا ، ويرزقكم أنتم ـ أيضا ، لأنه لا يوجد مخلوق ـ مهما اجتهد ودأب يستطيع أن يخلق رزقه.

﴿وَهُوَ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل شيء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تسرون وما تعلنون.

وقدم ـ سبحانه ـ رزق الدابة التي لا تستطيع تحصيله ، على رزقهم فقال : ﴿اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ﴾ لينفى من قلوب الناس القلق على الرزق ، وليشعرهم بأن الأسباب ليست هي كل شيء ، فإن واهب الأسباب ، لا يترك أحدا بدون رزق ، ولإزالة ما قد يخطر في النفوس من أن الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله قد تنقص الرزق ..

وهكذا يسوق ـ سبحانه ـ من المرغبات في الهجرة في سبيله ، ما يقنع النفوس ، ويهدى القلوب ، ويجعل المؤمنين يقبلون على تلبية ندائه ، وهم آمنون مطمئنون على أرواحهم ، وعلى أرزاقهم ، وعلى حاضرهم ومستقبلهم ، فسبحان من هذا كلامه.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببيان ما عليه المشركون من تناقض في أفكارهم وفي تصوراتهم ، وببيان حال هذه الحياة الدنيا. وببيان جانب من النعم التي أنعم بها على أهل مكة ، وببيان ما أعده للمجاهدين في سبيله من ثواب ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ

لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٦٩)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ .. بيان لما كان عليه مشركو العرب من اعتراف بأن المستقل بخلق هذا الكون هو الله ـ تعالى ـ ..

أى : ولئن سألت ـ أيها الرسول الكريم ـ هؤلاء المشركين ، من الذي أوجد هذه السموات وهذه الأرض ، ومن الذي ذلل وسخر لمنفعتكم الشمس والقمر ، ليقولن بدون تردد : الله ـ تعالى ـ هو الذي فعل ذلك بقدرته.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيب من تناقضهم في أفعالهم ، ومن انحراف في تفكيرهم ، ومن تركهم العمل بموجب ما تقتضيه أقوالهم.

أى : إذا كنتم معترفين بأن الله وحده هو الخالق للسموات والأرض ، والمسخر للشمس والقمر ، فلما ذا أشركتم معه في العبادة آلهة أخرى؟ ولما ذا تنصرفون عن الإقرار بوحدانيته ـ عزّ وجلّ ـ؟

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الأرزاق جميعها بيده ، يوسعها لمن يشاء ويضيقها على من يشاء فقال : ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ...

والضمير في قوله : ﴿لَهُ﴾ يعود على ﴿مَنْ﴾ على حد قولك : عندي درهم ونصفه. أى : ونصف درهم آخر.

أى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه عليه من عباده ، وهو وحده الذي يضيق الرزق على من يشاء أن يضيقه عليه من عباده. لأنه ـ سبحانه ـ لا يسأل عما يفعل ، وأفعاله كلها خاضعة لمشيئته وحكمته ، وكل شيء عنده بمقدار.

ويجوز أن يكون المعنى : الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي بقدرته أن يوسع الرزق لمن يشاء من عباده تارة ، وأن يضيقه عليهم تارة أخرى.

فعلى المعنى الأول : يكون البسط في الرزق لأشخاص ، والتضييق على آخرين ، وعلى المعنى الثاني يكون البسط والتضييق للأشخاص أنفسهم ولكن في أوقات مختلفة.

والله ـ تعالى ـ قادر على كل هذه الأحوال ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء.

﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما فيه صلاح عباده وما فيه فسادهم ، ويعلم من يستحق أن يبسط له في رزقه ، ومن يستحق التضييق عليه في رزقه.

ثم أكد ـ سبحانه ـ للمرة الثانية اعتراف هؤلاء المشركين بقدرة الله ـ تعالى ـ فقال : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ أى : ماء كثيرا ﴿فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها﴾ أى : فجعل الأرض بسبب نزول الماء عليها تصبح خضراء بالنبات بعد أن كانت جدباء قاحلة.

لئن سألتهم من فعل ذلك ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ هو الذي فعل ذلك.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل الثناء على الله ـ تعالى ـ : الحمد لله الذي أظهر حجته ، وجعلهم ينطقون بأنك على الحق المبين ، ويعترفون بأن إشراكهم إنما هو من باب العناد والجحود.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ إضراب عما هم عليه من انحراف وتناقض ، إلى بيان حقيقة حالهم ، وتسلية للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما يعتريه بسببهم من حزن.

أى : بل أكثرهم لا يعقلون شيئا مما يجب أن يكون عليه العقلاء من فهم سليم للأمور ، ومن العمل بمقتضى ما تنطق به الألسنة.

وفي التعبير بأكثرهم ، إنصاف لقلة منهم عقلت الحق فاتبعته ، وآمنت به وصدقته ، ثم بين ـ سبحانه ـ هوان هذه الحياة الدنيا ، بالنسبة للدار الآخرة فقال : ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

واللهو : اشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه. أو هو الاستمتاع بملذات الدنيا.

واللعب : العبث. وهو فعل لا يقصد به مقصد صحيح.

أى : أن هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من حطام ، تشبه في سرعة انقضائها وزوال متعها ، الأشياء التي يلهو بها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتا ، ثم ينفضون عنها.

أما الدار الآخرة ، فهي دار الحياة الدائمة الباقية ، التي لا يعقبها موت ، ولا يعتريها فناء ولا انقضاء.

ولفظ «الحيوان» مصدر حي. سمى به ذو الحياة ، والمراد به هنا : نفس الحياة الحقة.

وقوله : ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى : لو كانوا يعلمون حق العلم ، لما آثروا متع الدنيا الفانية على خيرات الآخرة الباقية.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم عند ما يحيط بهم البلاء فقال ـ تعالى ـ : ﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي

﴿الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ... أى : أن من صفات هؤلاء الجاحدين ، أنهم إذا ركبوا السفن ، وجرت بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، ثم جاءتهم بعد ذلك ريح عاصف ، وظنوا أن الغرق قد اقترب منهم ، تضرعوا إلى الله ـ تعالى ـ مخلصين له العبادة والدعاء.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ بفضله وكرمه ، وأنقذهم من الغرق المحقق ﴿إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ مع الله ـ تعالى ـ غيره في العبادة والطاعة.

وقد فعلوا ذلك : ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ من نعم ، وبما منحناهم من فضل ورحمة.

﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بمتع هذه الحياة وزينتها إلى حين ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عما قريب عاقبة هذا الكفران لنعم الله ، وهذا التمتع بزينة الحياة الدنيا دون أن يعملوا شيئا ينفعهم في أخراهم.

قال الآلوسى : قوله : ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ : الظاهر أن اللام في الموضعين لام كي ، أى : يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام. فالشرك سبب لهذا الكفران. وأدخلت لام كي على مسببه ، لجعله كالغرض لهم منه ، فهي لام العاقبة في الحقيقة.

وقيل : اللام فيهما لام الأمر ، والأمر بالكفران والتمتع ، مجاز في التخلية والخذلان والتهديد ، كما تقول عند الغضب على من يخالفك : «افعل ما شئت» [١].

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بنعمة الحرم الآمن ، الذي يعيشون في جواره مطمئنين ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

أى : أجهل هؤلاء قيمة النعمة التي هم فيها ، ولم يدركوا ويشاهدوا أنا جعلنا بلدهم مكة حرما آمنا ، يأمنون فيه على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ، والحال أن الناس من حولهم يقتل بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض بسرعة وشدة. والتخطف : الأخذ بسرعة.

قال صاحب الكشاف : كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ، ويتغاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون فيها آمنون لا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله بهذه النعمة الخاصة بهم» [٢].

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ للتعجب من حالهم ، وللتوبيخ لهم على هذا الجحود والكفر لنعم الله ـ تعالى ـ. أى : أفبعد هذه النعمة

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٣.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٦٤.

الجليلة يؤمنون بالأصنام وبنعمة الله التي تستدعى استجابتهم للحق يكفرون.

فالآية الكريمة قد اشتملت على ما لا يقادر قدره ، من تعجب وتوبيخ وتقريع.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ﴾.

أى : لا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا ، بأن زعم بأن لله ـ تعالى ـ شريكا ، أو كذب بالحق الذي جاءه به الرسول ﷺ بأن أعرض عنه ، وأبى أن يستمع إليه.

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾ للتقرير ، والمثوى : المكان الذي يثوى فيه الشخص ، ويقيم به ، ويستقر فيه.

أى : أليس في جهنم مأوى ومكانا يستقر فيه هؤلاء الكافرون لنعم الله ـ تعالى ـ؟ بل إن فيها مكانا لاستقرارهم ، وبئس المكان ، فإنها ساءت مستقرا ومقاما.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أى : هذا الذي ذكرناه سابقا من سوء مصير ، هو للمشركين الذين يؤمنون بالباطل ويتركون الحق ، أما الذين بذلوا جهدهم في سبيل إعلاء ديننا ، وقدموا أنفسهم وأموالهم في سبيل رضائنا وطاعتنا ، وأخلصوا لنا العبادة والطاعة ، فإننا لن نتخلى عنهم ، بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ، ونجعل العاقبة الطيبة لهم ، فقد اقتضت رحمتنا وحكمتنا أن نكون مع المحسنين في أقوالهم وفي أفعالهم ، وتلك سنتنا التي لا تتخلف ولا تتبدل.

وبعد فهذا تفسير لسورة «العنكبوت» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**كتبه الراجي عفو ربه**

**د. محمد سيد طنطاوى**

# تفسير

## سورة الرّوم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

## مقدمة وتمهيد

١ . سورة الروم هي السورة الثلاثون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فهي السورة الثانية والثمانون ، وقد كان نزولها بعد سورة الانشقاق.

٢ . وقد افتتحت بالحديث عن قصة معينة ، وهي قصة الحروب التي دارت بين الفرس والروم ، والتي انتهت في أول الأمر بانتصار الفرس ، ثم كان النصر بعد ذلك للروم.

قال . تعالى . : ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

٣ . ثم وبخت السورة الكريمة الكافرين ، لعدم تفكرهم في أحوال أنفسهم ، وفي أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، وتوعدتهم بسوء المصير بسبب انطماس بصائرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق ، ووعدت المؤمنين بحسن الجزاء.

قال . تعالى . : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾.

٤ . ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك اثنى عشر دليلا على وحدانية الله . تعالى . وقدرته ، وقد بدئت هذه الأدلة بقوله . تعالى . : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ، وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ. وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

٥ . وبعد أن أقام . سبحانه . هذه الأدلة المتعددة على وحدانيته وقدرته ، أتبع ذلك بأن أمر الناس باتباع الدين الحق ، وبالإنابة إليه . تعالى . فقال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً

فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٦ . ثم بين . سبحانه . أحوال الناس في السراء والضراء ، ودعاهم إلى التعاطف والتراحم ، ونفرهم من تعاطي الربا ، فقال . تعالى . : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ ، وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

٧ . ثم ساق . سبحانه . بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وبين الآثار السيئة التي تترتب على جحود هذه النعم ، ودعا الناس للمرة الثانية إلى اتباع الدين القيم ، الذي لا يقبل الله . تعالى . دينا سواه ، فقال . تعالى . : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ. مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

٨ . ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة الله في الرياح وفي إرسال الرسل ، وأمر كل عاقل أن يتأمل في آثار هذه النعم ، ليزداد إيمانا على إيمانه ، فقال . تعالى . ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩ . ثم ختم . سبحانه . السورة الكريمة ببيان أهوال الساعة ، وحكى أقوال أهل العلم والإيمان ، في ردهم على المجرمين عند ما يقسمون أنهم ما لبثوا في هذه الدنيا سوى ساعة واحدة ، وأمر . سبحانه . نبيه ﷺ أن يصبر على أذى أعدائه ، فقال . تعالى . : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾.

١٠ . وهكذا نجد أن سورة «الروم» قد أفاضت في الحديث عن الأدلة المتعددة ، التي تشهد بوحدانية الله . تعالى . وقدرته ، كما تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، وبأن يوم القيامة حق وصدق ، كما ساقت آيات متعددة في المقارنة بين مصير الأخيار ، ومصير الأشرار ، ودعت الناس إلى الثبات على الدين الحق ، وهو دين الإسلام ، كما حضت على التعاطف والتراحم بين المسلمين ، ونهت عن تعاطي الربا ، لأنه لا يربو عند الله . تعالى . ، وإنما الذي يعطى من صدقات هو الذي يربو عند الله . عزّ وجلّ . كما ذكرت أنواعا من النعم التي أنعم الله . تعالى . بها على عباده ، وأمرتهم بشكره . سبحانه . عليها ، لكي يزيدهم من فضله.

هذه أهم المقاصد التي اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يراها من يتدبر هذه السورة الكريمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**د. محمد سيد طنطاوى**

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾(٧)

سورة الروم من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد ذكرنا في أكثر من سورة آراء العلماء في هذه الحروف ، ورجحنا أن هذه الحروف قد ذكرها . سبحانه . في افتتاح بعض السور القرآنية ، للتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند الله ، لأن الله . تعالى . قد أنزله على رسوله ﷺ بمثل الحروف التي ينطق بها المشركون ، ومع ذلك فهم أعجز من أن يأتوا بسورة من مثله.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قوله . تعالى . : ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ .. روايات منها ، ما رواه ابن جرير . بإسناده . عن عبد الله بن مسعود . رضى الله عنه . قال : كانت فارس ظاهرة على الروم. وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ .. قالوا : يا أبا بكر.

إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين : قال : صدق. قالوا : هل لك أن نقامرك؟ . أى : نراهنك وكان ذلك قبل تحريم الرهان . فبايعوه على أربع قلائص . جمع قلوص ، وهي من الإبل : الشابة . إلى سبع سنين. فمضت السبع ولم يكن شيء. ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر للنبي ﷺ فقال : ما بضع سنين عندكم؟ قالوا : دون العشر.

قال : اذهب فزايدهم ، وازدد سنتين في الأجل. قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك. [1].

وقال بعض العلماء : اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان قد غزا بلاد الشام مرتين : في سنة ٦١٣ ، وفي سنة ٦١٤ ، أى : قبل الهجرة بسبع سنين ، فحدث أن بلغ الخبر مكة. ففرح المشركون ، وشمتوا في المسلمين .. فنزلت هذه الآيات.

فلم يمض من البضع . وهو ما بين الثلاث إلى التسع . سبع سنين ، إلا وقد انتصر الروم على الفرس ، وكان ذلك سنة ٦٢١ م. أى : قبل الهجرة بسنة [2].

وأدنى بمعنى أقرب. والمراد بالأرض : أرض الروم.

أى : غلبت الروم في أقرب أرضها من بلاد الفرس.

قال ابن كثير : وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم ، حين غلبت الروم ، بين أذرعات وبصرى ، . على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما . ، وهي طرف بلاد الشام مما يلي الحجاز.

وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة ، وهي أقرب بلاد الروم من فارس [3].

وقال الآلوسى : والمراد بالأرض : أرض الروم ، على أن «أل» نائبة مناب الضمير المضاف إليه ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة ، لأن الكلام معهم. أو المراد بها أرض مكة ونواحيها ، لأنها الأرض المعهودة عندهم ، والأقربية بالنظر إلى الروم [4].

وقوله . تعالى . : ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ بشارة من الله . تعالى . للمؤمنين ، بأن الله . تعالى . سيحقق لهم ما يرجونه من انتصار الروم على الفرس.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٠٥. وتفسير ابن جرير ج ٢١ ص ١٣.

(٢) تفسير القاسمى ج ١٢ ص ٤٧٦٥.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣١٠.

(٤) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٧.

أى وهم ـ أى الروم ـ من بعد هزيمتهم من الفرس ، سينتصرون عليهم ، خلال بضع سنين.

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ ، لتأكيد هذا الوعد ، وبيان أن نصر الروم على فارس سيتم خلال سنوات قليلة من عمر الأمم ، وقد تحقق هذا الوعد على أكمل صورة وأتمها ، فقد انتصر الروم على الفرس نصرا عظيما ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ حيث أخبر عن أمور ستقع في المستقبل ، وقد وقعت كما أخبر.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ جملة معترضة لبيان قدرة الله ـ تعالى ـ التامة النافذة ، في كل وقت وآن. أى : لله ـ تعالى ـ وحده الأمر النافذ من قبل انتصار الفرس على الروم ، ومن بعد انتصار الروم على الفرس : وكلا الفريقين كان نصره أو هزيمته بإرادة الله ومشيئته ، وليس لأحد من الخلق أن يخرج عما قدره ـ سبحانه ـ وأراده.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أى : ويوم أن يتغلب الروم على الفرس ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾ حيث نصر أهل الكتاب وهم الروم ، على من لا كتاب لهم وهم الفرس ، الذين كانوا يعبدون النار فأبطل ـ سبحانه ـ بهذا النصر شماتة المشركين في المسلمين ، وازداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم.

قال ابن كثير : وقد كانت نصرة الروم على فارس ، يوم وقعة بدر ، في قول طائفة كبيرة من العلماء ... فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب في الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ مؤكد لما قبله. أى : ينصر ـ سبحانه ـ من يريد نصره ، ويهزم من يريد هزيمته ، وهو ، العزيز الذي لا يغلبه غالب ، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

ثم زاد ـ سبحانه ـ هذا الأمر تأكيدا وتقوية فقال : ﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾.

ولفظ «وعد» منصوب بفعل محذوف.

أى : وعد الله المؤمنين بالنصر وبالفرح وعدا مؤكدا ، وقد اقتضت سنته ـ سبحانه ـ أنه لا يخلف وعده.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ، لانطماس بصائرهم ، ولاستيلاء الجهل على عقولهم ، ولاستحواذ الشيطان عليهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣١٠.

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ يعود للأكثر من الناس. أى : هؤلاء الأكثرون من الناس ، من أسباب جهلهم بسنن الله ـ تعالى ـ في خلقه ، أنهم لا يهتمون إلا بملاذ الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها ، ووسائل المعيشة فيها.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ وما فيها من حساب وثواب وعقاب ﴿هُمْ غافِلُونَ﴾ لأنهم آثروا الدار العاجلة ، على الدار الباقية ، فهم ـ كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً﴾ بدل من قوله : ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويسد مسده. ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا .. وفي تنكير قوله : ﴿ظاهِراً﴾ إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهر الحياة الدنيا [1].

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الكافرين وأشباههم ، انهماكهم في شئون الدنيا انهماكا تاما ، جعلهم غافلين عما ينتظرهم في أخراهم من حساب وعقاب. ورحم الله القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... في صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة في ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

ثم حضهم ـ سبحانه ـ على التفكر في خلق أنفسهم ، وعلى التفكير في ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر والتدبر يهديهم إلى الصراط المستقيم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٦٨.

وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾(١٠)

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ .. لتوبيخ أولئك الكافرين الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام. و ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما خَلَقَ﴾ للنفي ، والباء في قوله ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ للملابسة. وقوله : ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معطوف على الحق.

والمعنى : أبلغ الجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم اكتفوا بالانهماك في متع الحياة الدنيا ، ولم يتفكروا في أحوال أنفسهم وفي أطوار خلقها ، لأنهم لو تفكروا لعلموا وأيقنوا ، أن الله ـ تعالى ـ : ما خلق السموات والأرض وما بينهما ، إلا ملتبسة بالحق الذي لا يشوبه باطل ، وبالحكمة التي لا يحوم حولها عبث ، وقد قدر ـ سبحانه ـ لهذه المخلوقات جميعها أجلا معينا تنتهي عنده ، وهو وقت قيام الساعة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الأشقياء ، غفلتهم عن الدار الآخرة وما فيها من حساب ، وتحضهم على التفكر في تكوين أنفسهم ، وفي ملكوت السموات والأرض ، لأن هذا التفكر من شأنه أن يهدى إلى الحق ، كما تلفت أنظارهم إلى أن لهذا الكون كله نهاية ينتهى عندها ، وقت أن يأذن الله ـ تعالى ـ بذلك ، وبقيام الساعة.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة ببيان موقف الأكثرية من الناس من قضية البعث والجزاء فقال : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ﴾.

أى : وإن كثيرا من الناس لفي انشغال تام بدنياهم عن آخرتهم ، ولا يؤمنون بما في الآخرة من حساب وثواب وعقاب ، بل يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، وعلى رأس هذا الصنف من الناس مشركو مكة الذين أرسل النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم فيهم ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ .. للإشعار بان هناك عددا قليلا من الناس ـ بالنسبة لهؤلاء الكثيرين ـ قد آمنوا بلقاء ربهم ، واستعدوا لهذا اللقاء عن طريق العمل الصالح الذي يرضى خالقهم ـ عزّ وجلّ ..

ثم قرعهم ـ سبحانه ـ للمرة الثانية على عدم اتعاظهم بأحوال السابقين من الأمم قبلهم ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ...

أى : أقعد مشركو مكة في ديارهم ، ولم يسيروا في الأرض سير المتأملين المتفكرين المعتبرين فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، من الأمم الماضية ، كقوم عاد وثمود ، وقوم لوط.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ بيان لحال هؤلاء الأقوام السابقين ﴿وَأَثارُوا الْأَرْضَ﴾ أى : كان أولئك السابقون أقوى من أهل مكة في كل مجال من مجالات القوة ، وكانوا أقدر منهم على حراثة الأرض ، وتهيئتها للزراعة ، واستخراج خيراتها من باطنها.

﴿وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها﴾ أى : حرثوا الأرض وشقوا عن باطنها ، وعمروها عمارة أكثر من عمارة أهل مكة لها ، لأن أولئك الأقوام السابقين كانوا أقوى من كفار مكة ، وكانوا أكثر دراية بعمارة الأرض.

وهؤلاء الأقوام السابقون : ﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ أى : بالمعجزات الواضحات ، وبالحجج الساطعات ، ولكن هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله ـ تعالى ـ ﴿فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أى : فما كان الله ـ تعالى ـ من شأنه أن يعذبهم بدون ذنب.

﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث ارتكبوا من الكفر والمعاصي ما كان سببا في هلاكهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ المصير السيئ ، الذي حل بهؤلاء الكافرين فقال : ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى﴾.

ولفظ «عاقبة» قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ـ بفتح التاء ـ على أنه خبر «كان» قدم على اسمها ، وهو لفظ «السوأى» الذي هو تأنيث الأسوأ ، كالحسنى تأنيث الأحسن. وجرد الفعل «كان» من التاء مع أن السوأى مؤنث ، لأن التأنيث غير حقيقى.

فيكون المعنى : ثم كانت العقوبة السيئة وهي العذاب في جهنم ، عاقبة الذين عملوا في دنياهم الأعمال السيئات.

وقرأ الباقون برفع لفظ «عاقبة» على أنه اسم كان ، وخبرها لفظ «السوأى» أى : ثم كانت عاقبة هؤلاء الكافرين الذين أساءوا في دنياهم ، أسوأ العقوبات وأقبحها ، أو كانت عاقبتهم العاقبة السوأى وهي الإلقاء بهم في النار وبئس القرار.

وقوله . سبحانه . : ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ تعليل لما آل إليه أمرهم من عاقبة سيئة ، أى : لأن كذبوا ، أو بأن كذبوا بحذف حرف الجر.

أى ؛ كانت عاقبتهم في الآخرة أسوأ العقوبات وأقبحها وهي العذاب في جهنم ، لأنهم في الدنيا كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا ﷺ وكانوا بها يستهزئون.

ثم ساق . سبحانه . ما يدل على قدرته ، وبين أحوال الناس وأقسامهم يوم القيامة ، فقال . تعالى . :

﴿اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾(١٦)

أى : ﴿اللهُ﴾ . تعالى . وحده هو ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ أى : ينشئه ويوجده على غير مثال سابق ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى : إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء ، فيجازى . سبحانه . كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

وأفرد . سبحانه . : الضمير في ﴿يُعِيدُهُ﴾ باعتبار لفظ الخلق. وجمعه في قوله : ﴿تُرْجَعُونَ﴾ باعتبار معناه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حال المجرمين يوم القيامة فقال : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ و ﴿يُبْلِسُ﴾ من الإبلاس بمعنى السكوت والذهول وانقطاع الحجة ، يقال : أبلس الرجل ، إذا وقف ساكتا حائرا مبهوتا لا يجد كلاما ينقذه مما هو فيه من بلاء.

أى : ويوم تقوم الساعة ، ويشاهد المجرمون أهوالها ، يصابون بالذهول والحيرة والسكوت المطبق ، لانقطاع حجتهم ، وشدة حزنهم وهمهم ، ويأسهم من النجاة يأسا تاما.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ في هذا اليوم ﴿مِنْ شُرَكائِهِمْ﴾ الذين عبدوهم في الدنيا ﴿شُفَعاءُ﴾ يشفعون لهم ، ويجيرونهم من عذاب الله.

﴿وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ﴾ أى : أنهم في هذا اليوم العسير لم يكن لهم من شفعاء يشفعون لهم. بل إنهم صاروا في هذا اليوم الشديد ، كافرين بشركائهم الذين توهموا منهم الشفاعة ، لأنهم يوم القيامة تتجلى لهم الحقائق ، ويعرفون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع ، ولا يخشى منهم ضر.

ثم كرر ـ سبحانه ـ هذا المعنى على سبيل التأكيد والتهويل من شأنه فقال : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾.

والضمير في قوله : ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ للناس جميعا. والمراد بتفرقهم أن كل طائفة منهم تتجه إلى الجهة التي أمرهم ـ سبحانه ـ بالتوجه إليها ، لينال كلّ جزاءه.

ثم بين ـ سبحانه ـ كيفية هذا التفرق فقال : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

والروضة : تطلق على كل مكان مرتفع زاخر بالنبات الحسن. والمراد بها هنا : الجنة.

ويحبرون : من الحبور بمعنى الفرح والسرور والابتهاج.

أى : ويوم تقوم الساعة ، في هذا اليوم يتفرق الناس إلى فريقين ، فأما فريق الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحات ، فسيكونون في الآخرة في جنة عظيمة ، يسرون بدخولها سرورا عظيما ، وينعمون فيها نعيما لا يحيط به الوصف.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبرسله وباليوم الآخر ﴿وَكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ الدالة على وحدانيتنا وصدق أنبيائنا ﴿فَأُولئِكَ﴾ الكافرون ﴿فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ أى : مقيمون فيه ، ومجموعون إليه ، بحيث لا يستطيعون الهروب منه ـ والعياذ بالله.

وبعد هذا البيان المؤثر لأهوال يوم القيامة ، ولأحوال الناس فيه .. ساق ـ سبحانه ـ

أنواعا متعددة من الأدلة والبراهين على وحدانيته . عَزَّجَلَّ . وقدرته ، ورحمته بخلقه ، فقال . تعالى . :

﴿فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ

وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

قالوا الإمام الرازي : لما بين ـ سبحانه ـ عظمته في الابتداء بقوله ﴿ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ، وعظمته في الانتهاء ، بقوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ وأن الناس يتفرقون فريقين ، ويحكم ـ عزّوجلّ ـ على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى ، بعد كل ذلك أمر بتنزيهه عن كل سوء ، وبحمده على كل حال ، فقال : ﴿فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [1].

والفاء في قوله : ﴿فَسُبْحانَ﴾ .. لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولفظ «سبحان» اسم مصدر ، منصوب بفعل محذوف. والتسبيح : تنزيه الله ـ. تعالى ـ. : عن كل ما لا يليق بجلاله. والمعنى : إذا علمتم ما أخبرتكم به قبل ذلك ، فسبحوا الله ـ تعالى ـ ونزهوه عن كل نقص ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أى : حين تدخلون في وقت المساء ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أى : تدخلون في وقت الصباح.

وقوله ـ تعالى ـ. : ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملة معترضة لبيان أن جميع الكائنات تحمده على نعمه ، وأن فوائد هذا الثناء تعود عليهم لا عليه ـ سبحانه ـ..

وقوله ﴿وَعَشِيًّا﴾ معطوف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أى : سبحوا الله ـ تعالى ـ. : حين تمسون ، وحين تصبحون ، وحين يستركم الليل بظلامه. وحين تكونون في وقت الظهيرة ، فإنه ـ سبحانه ـ هو المستحق للحمد والثناء من أهل السموات ومن أهل الأرض ، ومن جميع المخلوقات.

قال ابن كثير : وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفي؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى ، سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون.

وفي حديث آخر : «من قال حين يصبح : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .. أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي ، أدرك ما فاته في ليلته [2]».

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٥١٤.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣١٤.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا من مظاهر قدرته فقال : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراجه الإنسان من النطفة ، والنبات من الحب ، والمؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ﴾ كما في عكس هذه الأمور ، كإخراجه النطفة من الإنسان ، والحب من النبات ، والكافر من المؤمن.

﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ : أى : بعد قحطها وجدبها ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تذييل قصد به تقريب إمكانية البعث من العقول والأفهام. أى : ومثل هذا الإخراج البديع للنبات من الأرض ، وللحي من الميت ، نخرجكم ـ أيها الناس ـ من قبوركم يوم القيامة ، للحساب والجزاء.

ثم أورد ـ سبحانه ـ بعد ذلك أنواعا من الأدلة على قدرته التي لا يعجزها شيء ، فقال ـ تعالى ـ ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

والآيات : جمع آية ، وتطلق على الآية القرآنية ، وعلى الشيء العجيب ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ .. والمراد بها هنا : الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته.

والمعنى : ومن آياته ـ سبحانه ـ الدالة على عظمته ، وعلى كمال قدرته ، أنه خلقكم من تراب ، أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فروع عنه.

و «إذا» في قوله : ﴿ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ هي الفجائية.

أى : خلقكم بتلك الصورة البديعة من مادة التراب التي لا يرى فيها رائحة للحياة ، ثم صرتم بعد خلقنا إياكم في أطوار متعددة ، بشرا تنشرون في الأرض ، وتمشون في مناكبها ، وتتقلبون فيها تارة عن طريق الزراعة ، وتارة عن طريق التجارة ، وتارة عن طريق الأسفار .. كل ذلك طلبا للرزق ، ولجمع الأموال.

وعبر ـ سبحانه ـ بثم المفيدة للتراخي ، لأن انتشارهم في الأرض لا يتأتى إلا بعد مرورهم بأطوار متعددة ، منها أطوار خلقهم في بطون أمهاتهم ، وأطوار طفولتهم وصباهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد.

قال الشوكانى : وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم ، بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهي أطوار الإنسان ، كما حكاها الله ـ تعالى ـ في

مواضع ، من كونه نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظما مكسوا لحما. (١).

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان آية ثانية ، دالة على كمال قدرته ورأفته بعباده ، فقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً﴾ أى : ومن آياته الدالة على رحمته بكم ، أنه ـ سبحانه ـ خلق لكم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى : من جنسكم في البشرية والإنسانية أزواجا.

قال الآلوسى : قوله : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم ـ عليه‌السلام ـ متضمن لخلقهن من أنفسكم «فمن» للتبعيض والأنفس بمعناها الحقيقي ، ويجوز أن تكون «من» ابتدائية ، والأنفس مجاز عن الجنس ، أى : خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر ، قيل : وهو الأوفق لما بعد (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾ بيان لعلة خلقهم على هذه الطريقة. أى : خلق لكم من جنسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، ويميل بعضكم إلى بعض ، فإن الجنس إلى الجنس أميل ، والنوع إلى النوع أكثر ائتلافا وانسجاما ﴿وَجَعَلَ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يا معشر الأزواج والزوجات ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أى : محبة ورأفة ، لم تكن بينكم قبل ذلك ، وإنما حدثت عن طريق الزواج الذي شرعه ـ سبحانه ـ بين الرجال والنساء ، والذي وصفه ـ تعالى ـ بهذا الوصف الدقيق ، في قوله ـ عزوجل ـ : ﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الذي ذكرناه لكم قبل ذلك ﴿لَآياتٍ﴾ عظيمة تهدى إلى الرشد وإلى الاعتبار ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ورحمته بخلقه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ آية ثالثة فقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : ومن آياته الدالة على قدرته التامة على كل شيء ، خلقه للسموات والأرض بتلك الصورة البديعة ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أى : واختلاف لغاتكم فهذا يتكلم بالعربية ، وآخر بالفارسية وثالث بالرومية .. إلى غير ذلك مما لا يعلم عدده من اللغات ، بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التي يتكلم بها أفرادها ، ومئات اللهجات ﴿وَأَلْوانِكُمْ﴾ أى : ومن آياته كذلك ، اختلاف ألوانكم ، فهذا أبيض ، وهذا أسود ، وهذا أصفر ، وهذا أشقر .. مع أن الجميع من أب واحد وأم واحدة وهما آدم وحواء. بل إنك لا تجد شخصين يتطابقان تطابقا تاما في خلقتهما وشكلهما.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٢١٩.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٣٠.

قال صاحب الكشاف : الألسنة : اللغات. او أجناس النطق واشكاله. خالف ـ عزّ وجلّ ـ بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة .. ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، ولو اتفقت وتشاكلت ، وكانت ضربا واحدا ، لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ... وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون (١).

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الذي وضحناه لكم ﴿لَآياتٍ﴾ بينات ﴿لِلْعالِمِينَ﴾ ـ بفتح اللام ـ وهي قراءة الجمهور ، أى : إن في ذلك لآيات لجميع أصناف العالم من بار وفاجر ، ومؤمن وكافر.

وقرأ حفص ـ بكسر اللام ـ أى : إن في ذلك لآيات لأولى العلم والفهم من الناس.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ آية رابعة فقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ﴾ أى : نومكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ لراحة أبدانكم وأذهانكم ، ﴿وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى : وطلبكم أرزاقكم فيهما من فضل الله وعطائه الواسع.

قال الجمل : قيل في الآية تقديم وتأخير ، ليكون كل واحد مع ما يلائمه ، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل ، وعطف عليه ، لأن حرف العطف قد يقوم مقام الجار ، والأحسن أن يجعل على حاله ، والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله ولا سيما في أوقات القيلولة في البلاد الحارة» (٢).

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ كله ﴿لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ هذه التوجيهات سماع تدبر وتفكر واعتبار فيعملون بما يسمعون.

ثم ساق ـ سبحانه ـ آية خامسة فقال : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا.

أى : ومن آياته ـ سبحانه ـ الدالة على قدرته ، أنه يريكم البرق ، فتارة تخافون مما يحدث بعده من صواعق متلفة ، وأمطار مزعجة ، وتارة ترجون من ورائه المطر النافع ، والغيث المدرار.

وانتصاب «خوفا وطمعا» على أنهما مفعول لأجله ، أى : يريكم ذلك من أجل الخوف والطمع ، إذ بهما يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يبطر ولا ييأس من رحمة الله. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ كثيرا ﴿فَيُحْيِي بِهِ﴾ أى : بسبب هذا الماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٣٣.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٨٩.

مَوْتِها) أى : بأن يحولها من أرض جدباء هامدة إلى أرض خضراء زاخرة بالنبات ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذه الإرشادات ، ويستعملون عقولهم في الخير لا في الشر ، وفي الحق لا في الباطل ، وفي استنباط المعاني الدالة على كمال قدرة الله . تعالى . ورحمته.

ثم ذكر . سبحانه . آية سادسة فقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ والمراد بقيامهما : ثباتهما وبقاؤهما بتلك الصورة العجيبة البديعة.

أى : ومن آياته . سبحانه . الدالة على كمال قدرته ، خلقه للسموات وللأرض ، وإبقاؤه لهما على هذه الصورة البديعة ، وقيامهما وثباتهما واستمساكهما على تلك الهيئة العجيبة ، وذلك كله بإرادته وأمره ومشيئته.

قال ابن كثير : وشبيه بذلك قوله . تعالى . : ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾. وكان عمر بن الخطاب. رضى الله عنه . إذا اجتهد في اليمين قال : لا ، والله الذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أى : هي قائمة ثابتة بأمره وتسخيره إياها (١).

وقوله . تعالى . : ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ بيان لامتثالهم لأمره بدون تقاعس ، عند ما يدعوهم الداعي للخروج من قبورهم للبعث والحساب. و «ثم» بعدها كلام محذوف ، و «إذا» الأولى شرطية ، والثانية فجائية ، والداعي هو إسرافيل بأمر الله . تعالى . : وقوله : ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله ﴿دَعاكُمْ﴾.

أى : ثم بعد موتكم ووضعكم في قبوركم ، إذا دعاكم الداعي دعوة واحدة من الأرض التي أنتم مستقرون فيها ، إذا أنتم تخرجون من قبوركم مسرعين بدون تلبث أو توقف ، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع.

قال صاحب الكشاف : وإنما عطف هذه الجملة على قيام السموات والأرض بثم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر ، واقتداره . سبحانه . على مثله وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كما قال . تعالى . : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٢).

وكما في قوله . سبحانه . : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ. فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (٣) وكما في قوله . عَزَّ وَجَلَّ . : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ. وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (٤).

---

(١) سورة النحل. الآية ١٢٥.

(٢) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٢٠٥.

(٣) سورة النازعات الآيتان ١٣ ، ١٤.

(٤) سورة الإسراء الآية ٥٢.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات ، بآية جامعة لكل معاني القدرة والإيجاد والهيمنة على هذا الكون فقال : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى من الملائكة والجن والإنس ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ، كل ذلك له وحده ـ سبحانه ـ لا لأحد غيره.

وقوله : ﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ مؤكد لما قبله ومقرر له ، أى : كل الخلائق له لا لغيره طائعون خاضعون ، خاشعون ، طوعا وكرها ، إذ لا يمتنع عليه ـ سبحانه ـ شيء يريد فعله بهم ، من حياة أو موت ، ومن صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر.

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يرى أكثر من عشرة أدلة ، على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى انفراده بالخلق ، وعلى إمكانية البعث ، ومن هذه الأدلة خلق الإنسان من تراب ، وصيرورته بعد تقلبه في أطوار التكوين بشرا سويا ، وإيجاده ـ سبحانه ـ للذكور والإناث ، حتى يبقى النوع الإنسانى إلى الوقت المقدر في علمه ـ تعالى ـ : وإيجاده للناس على هذه الصورة التي اختلفت معها ألسنتهم وألوانهم ، مع أن أصلهم واحد ، وجعله ـ تعالى ـ الليل مناما لراحة الناس ، والنهار معاشا لابتغاء الرزق ، وإنزاله المطر من السماء لإحياء الأرض بالنبات ، وبقاء السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة بأمره وتدبيره .. إلى غير ذلك من الأدلة المبثوثة في الأنفس والآفاق.

ثم أكد ـ سبحانه ـ ما يدل على إمكانية البعث ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ...

أى : وهو ـ سبحانه ـ الذي يبدأ الخلق بدون مثال سابق ، ثم يعيد هذه المخلوقات بعد موتها إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء.

والضمير في قوله : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ للإعادة المفهومة من قوله ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، أى : والعود أو الرد ، أو الإرجاع أهون عليه.

أى : وهو ـ سبحانه ـ وحده الذي يخلق المخلوقات من العدم ، ثم يعيدها إلى الحياة مرة أخرى في الوقت الذي يريده ، وهذه الإعادة للأموات أهون عليه ، أى : أسهل عليه من البدء.

وهذه الأسهلية على طريقة التمثيل والتقريب ، بما هو معروف عند الناس من أن إعادة الشيء من مادته الأولى أسهل من ابتدائه.

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد وضح هذا المعنى فقال : قوله : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أى : فيما يجب عندكم ، وينقاس على أصولكم ، ويقتضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة

شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وتعتذرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم : أول الغزل أخرق ، وتسمون الماهر في صناعته معاودا ، تعنون أنه عاودها كرة بعد أخرى ، حتى مرن عليها وهانت عليه.

فإن قلت لم أخرت الصلة في قوله : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقدمت في قوله ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؟ قلت. هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقيل : هو عليه هين ، وان كان مستصعبا عندكم أن يولد بين همل . أي : شيخ فان . وعاقر . وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى ..» [1].

ومنهم من يرى أن أهون هنا بمعنى هين ، أي : إرجاعكم إلى الحياة بعد موتكم هين عليه.

والعرب تجعل أفعل بمعنى فاعل في كثير من كلامهم ، ومنه قول الشاعر :

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

أي : بنى لنا بيتا دعائمه عزيزة طويلة ومنه قولهم : الله أكبر أي : كبير.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ .. أي : وله ـ سبحانه ـ الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله ، لا في السموات ولا في الأرض ، إذ لا يشاركه أحد في ذاته أو صفاته فهو ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي يغلب ولا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته.

وبعد هذا التطواف المتنوع في آفاق الأنفس ، وفي أعماق هذا الكون ، ضرب ـ سبحانه ـ مثلا لا مجال للجدل فيه ، لوضوحه واعتماده على المنطق السليم ، وأمر رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يمضى في طريقه المستقيم ، كما أمر المؤمنين بأن يلتجئوا إليه ـ سبحانه ـ وحده ، وأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضبه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٥٦.

أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٣٢)

و ﴿مِنْ﴾ في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ابتدائية ، والجار والمجرور في محل نصب ، صفة لقوله : ﴿مَثَلاً﴾.

أى : ضرب لكم ـ أيها الناس ـ مثلا ، يظهر منه بطلان الشرك ظهورا واضحا ، وهذا المثل كائن من أحوال أنفسكم ، التي هي أقرب شيء لديكم.

قال القرطبي : والآية نزلت في كفار قريش ، كانوا يقولون في التلبية : «لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ..» [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ﴾ تصوير وتفصيل للمثل ، والاستفهام للإنكار والنفي. و ﴿مِنْ﴾ الأولى للتبعيض ، والثانية لتأكيد النفي ، وقوله ﴿شُرَكاءَ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿لَكُمْ﴾ وقوله : ﴿مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ متعلق بمحذوف حال من شركاء.

وقوله : ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ﴾ جواب للاستفهام الذي هو بمعنى النفي. والجملة مبتدأ

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٣.

وخبر. وقوله : ﴿تَخافُونَهُمْ﴾ خبر ثان لأنتم ، وقوله : ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى : تخافونهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم.

والمعنى : ضرب الله ـ تعالى ـ لكم ـ أيها الناس ـ مثلا منتزعا من أنفسكم التي هي أقرب شيء إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن يشارككم في أموالكم التي رزقناكم إياها ، عبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم في البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم ، أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين لكم في الحرية وفي جواز التصرف في تلك الأموال. فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم ـ الذين هم مثلكم في البشرية ، والذين لم تخلقوهم بل نحن الذين خلقناكم وخلقناهم ـ فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى في العبادة ، مع أنه ـ سبحانه ـ هو الخالق لكم ولهم ، والرازق لكم ولهم؟!!.

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان ، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم غيركم في أموالكم ، ورضيتم أن تشركوا مع الله ـ تعالى ـ : غيره في العبادة ، مع أنه ـ سبحانه ـ هو الخالق والرازق لكل شيء.

فالمقصود من الآية الكريمة ، إبطال الشرك بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، وأصدق حجة ، وأقوى دليل.

ولذا ختمها ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى : مثل ذلك التفصيل الجلى الواضح ، نفصل الآيات الدالة على وحدانيتنا ، لقوم يعقلون هذه الأمثال ، وينتفعون بها في إخلاص العبادة لله الواحد القهار.

قال الإمام القرطبي : قال بعض العلماء : هذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، ونفيها عن الله ـ سبحانه ـ وذلك أنه قال ـ سبحانه ـ : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ، فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا أنفسكم عن مشاركة عبيدكم ، وتجعلوا عبيدي شركائى في خلقي ، فهذا حكم فاسد ، وقلة نظر وعمى قلب!!

فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ، والخلق كلهم عبيد الله ـ تعالى ـ فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكا لله ـ تعالى ـ في شيء من أفعاله.

ثم قال ـ رحمه‌الله ـ : وهذه المسألة أفضل للطالب ، من حفظ ديوان كامل في الفقه ،

لأن جميع العبادات البدنية ، لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب فافهم ذلك [1].

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك أن هؤلاء المشركين لم ينتفعوا بهذه الأمثال لاستيلاء الجهل والعناد عليهم فقال : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ...

أى : لم ينتفع هؤلاء الظالمون بهذا المثل الجلى في إبطال الشرك ، بل لجوا في كفرهم ، واتبعوا أهواءهم الزائفة ، وأفكارهم الفاسدة ، وجهالاتهم المطبقة دون أن يصرفهم عن ذلك علم نافع ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أى : إذا كان هذا هو حالهم ، فمن الذي يستطيع أن يهدى إلى الحق ، من أضله الله . تعالى . : عنه بسبب زيفه واستحبابه العمى على الهدى.

إنه لا أحد يستطيع ذلك ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عقابه . سبحانه . لهم.

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يثبت على الحق الذي هداه . عَزَّ وَجَلَّ . إليه فقال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ .. والفاء هي الفصيحة ، وقوله : ﴿فَأَقِمْ﴾ من الإقامة على الشيء والثبات عليه ، وعدم التحول عنه.

قوله : ﴿حَنِيفاً﴾ من الحنف ، وهو الميل من الباطل إلى الحق ، وضده الجنف ، و ﴿حَنِيفاً﴾ حال من فاعل ﴿فَأَقِمْ﴾.

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك . أيها الرسول الكريم . من بطلان الشرك فاثبت على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله . تعالى . وحده ، وأقبل على هذا الدين الذي أوحاه الله إليك ، بدون التفات عنه ، أو ميل إلى سواه.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ أى : فقوم وجهك له وعدّله ، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه ، وسدد إليه نظره ، وقوم له وجهه ، مقبلا به عليه.

والمراد بالفطرة في قوله . تعالى . : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ﴾ الملة. أى : ملة الإسلام والتوحيد.

أو المراد بها : قابلية الدين الحق ، والتهيؤ النفسي لإدراكه. والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٣.

أى : اثبت . أيها الرسول الكريم . على هذا الدين الحق ، والزموا . أيها الناس . فطرة الله ، وهي ملة الحق ، التي فطر الناس عليها ، وخلقهم قابلين لها.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول . تعالى . : فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه . تعالى . : فطر خلقه على معرفته وتوحيده.

وفي الحديث : «إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم . أى حولتهم . الشياطين عن دينهم».

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول : فطرة الله التي فطر الناس عليها ..» (١).

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحّد الخطاب أولا ، ثم جمع؟ قلت : خوطب رسول الله ﷺ أولا ، وخطاب الرسول خطاب لأمته ، مع ما فيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص (٢).

وقوله : ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التي فطر . سبحانه . الناس عليها.

أى : الزموا فطرة الله التي هي دين الإسلام ، وقبول تعاليمه والعمل بها ، لأن هذا الدين قد ارتضاه الله . تعالى . لكم ، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه لكم.

و ﴿ذلِكَ﴾ الدين الذي اختاره . سبحانه . لكم ، هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى : القويم المستقيم ، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

فاسم الإشارة يعود إلى الدين الذي أمرنا . سبحانه . بالثبات عليه ، في قوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾.

وقوله . تعالى . : ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك لبيان موقف الناس من هذا الدين القيم.

أى : ذلك الدين الذي ارتضيته لكم هو الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٤٠.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٧٩.

الحقيقة ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، واتباعهم للأهواء الزائفة ، والتقاليد الفاسدة.

ثم حرضهم . سبحانه . على الاستمرار في اتباع توجيهات هذا الدين القيم فقال : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾.

قال القرطبي : وفي أصل الإنابة قولان : أحدهما : أنه القطع. ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع ، فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله . عَزَّجَلَّ . بالطاعة. والثاني : أن أصله الرجوع ، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة ، ولفظ ﴿مُنِيبِينَ﴾ منصوب على الحال [1].

والمعنى : أقيموا وجوهكم . أيها الناس . لخالقكم وحده ، حالة كونكم راجعين إليه بالتوبة والطاعة ، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة ، ومتقين له في كل أحوالكم ، ومداومين على إقامة الصلاة في أوقاتها بخشوع واطمئنان.

﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المبدلين لفطرة الله . تعالى . المتبعين لأهوائهم وشهواتهم.

وقوله ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً﴾ بدل مما قبله.

أى : ولا تكونوا من المشركين ، الذين اختلفوا في شأن دينهم اختلافات شتى على حسب أهوائهم ، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أى : كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل ، وملة فاسدة ، وعقيدة زائفة ، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلهم ، وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق.

ثم بين . سبحانه . أحوال الناس في السراء والضراء وعند ما يوسع الله . تعالى . في أرزاقهم ، وعند ما يضيق عليهم هذه الأرزاق ، فقال . تعالى . :

﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣١.

سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣٧)

أى : ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ من قحط أو مصيبة في المال أو الولد ، ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أى : إذا نزل بهم الضر ، أسرعوا بالدعاء إلى الله ـ تعالى ـ متضرعين إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء.

هذا حالهم عند الشدائد والكروب ، أما حالهم عند العافية والغنى وتفريج الهموم ، فقد عبر عنه ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

و ﴿إِذا﴾ الأولى شرطية ، والثانية فجائية.

أى : هم بمجرد نزول الضر بهم يلجئون إلى الله ـ تعالى ـ لإزالته ، ثم إذا ما كشفه عنهم ، وأحاطهم برحمته ، أسرع فريق منهم بعبادة غيره ـ سبحانه ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ : إنصاف وتشريف لفريق آخر من الناس ، من صفاتهم أنهم يذكرون الله ـ تعالى ـ في كل الأحوال ، ويصبرون عند البلاء ، ويشكرون عند الرخاء.

والتنكير في قوله ـ سبحانه ـ «ضر ، ورحمة» للإشارة إلى أن هذا النوع من الناس ، يجزعون عند أقل ضر ، ويبطرون ويطغون لأدنى رحمة ونعمة.

واللام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ هي العاقبة. أى : فعلوا ما فعلوا من الجزع عند الضر ، ومن البطر عند النعم ، ليكون مآل حالهم إلى الكفر والجحود لنعم الله ، وإلى سوء العاقبة والمصير.

ثم التفت إليهم ـ سبحانه ـ بالخطاب مهددا ومتوعدا فقال : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى : فتمتعوا ـ أيها الجاحدون لنعم الله ـ بهذا المتاع الزائل من متع الحياة الدنيا ، فسوف تعلمون ما يترتب على ذلك من عذاب مهين.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ التفات

من الخطاب إلى الغيبة ، على سبيل التحقير لهم ، والتهوين من شانهم. والاستفهام للنفي والتوبيخ.

والسلطان : الحجة والبرهان.

أى : هؤلاء الذين أشركوا معنا غيرنا في العبادة ، هل نحن أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد لهم بأن شركهم لا يخالف الحق ، وتنطق بأن كفرهم لا غبار عليه؟

كلا ، إننا ما أنزلنا عليهم شيئا من ذلك ، وإنما هم الذين وقعوا في الشرك ، بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير.

فالآية الكريمة تتهكم بهم لسفههم وجهلهم ، وتنفى أن يكون شركهم مبنيا على دليل أو ما يشبه الدليل ، أو أن يكون هناك من أمرهم به سوى تقاليدهم الباطلة ، وأهوائهم الفاسدة وأفكارهم الزائفة.

ثم عادت الصورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال بعض النفوس البشرية في حالتي العسر واليسر ، فقال . تعالى . : ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ من صحة أو غنى أو أمان ﴿فَرِحُوا بِها﴾ أى : فرحوا بها فرح البطر الأشر ، الذي لا يقابل نعم الله . تعالى . بالشكر ، ولا يستعملها فيما خلقت له.

فالمراد بالفرح هنا : الجحود والكفران للنعم ، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدة أو مصيبة ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى : بسبب شؤم معاصيهم ، وإهمالهم لشكر الله . تعالى . على نعمه ﴿إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أى : أسرعوا باليأس من رحمة الله ، وقنطوا من فرجه ، واسودت الدنيا في وجوههم ، شأن الذين لا يعرفون سنن الله . تعالى . في خلقه ، والذين يعبدون الله على حرف ، فهم عند السراء جاحدون مغرورون .. وعند الضراء قانطون يائسون.

وعبر . سبحانه . في جانب الرحمة بإذا ، وفي جانب المصيبة بإن ، للإشعار بأن رحمته . تعالى . بعباده متحققة في كل الأحوال. وأن ما ينزل بالناس من مصائب ، هو بسبب ما اجترحوه من ذنوب.

ونسب . سبحانه . الرحمة إلى ذاته فقال : ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ دون السيئة فقد قال : ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ لتعليم العباد الأدب مع خالقهم . عزّ وجلّ . ، وإن كان الكل بيده . سبحانه . وبمشيئته ، وشبيه بهذا قوله . تعالى . : ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾.

والتعبير بإذا الفجائية في قوله ﴿إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ، للإشارة إلى سرعة يأسهم من رحمة الله . تعالى . حتى ولو كانت المصيبة هينة بسيرة ، وذلك لضعف يقينهم وإيمانهم. إذ القنوط من رحمة الله ، يتنافى مع الإيمان الحق.

ثم عقب . سبحانه . على أحوالهم هذه ، بالتعجيب من شأنهم ، وبالتقريع لهم على جهلهم ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أى : أجهل هؤلاء الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله . تعالى . بمقتضى حكمته ، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده. ويضيقه على من يشاء منهم ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل.

إن واقع الناس يشهد ويعلن : أن الله . تعالى . يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فما لهؤلاء القوم ينكرون هذا الواقع بأفعالهم القبيحة ، حيث إنهم يبطرون عند السراء ، ويقنطون عند الضراء؟ فالمقصود بالآية الكريمة توبيخهم على عدم فهمهم لسنن الله في خلقه.

ثم ختم . سبحانه . الآية بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى : إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من أحوال الناس ، ومن قدرتنا على كل شيء ﴿لَآياتٍ﴾ واضحات ، وعبر بينات ، لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه ، ويعملون بما يقتضيه إيمانهم.

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك ما يجب على المسلم بالنسبة للمال الذي وهبه الله إياه ، فقال . تعالى . :

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ

﴿شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤٠)

والخطاب في قوله . تعالى . : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ﴾ .. للنبي ﷺ ولكل من يصلح له من أمته. والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من أن بسط الأرزاق وقبضها بيدي وحدي ، فأعط . أيها الرسول الكريم . ذا القربى حقه من المودة والصلة والإحسان ، وليقتد بك في ذلك أصحابك وأتباعك.

وأعط . أيضا . ﴿الْمِسْكِينَ﴾ الذي لا يملك شيئا ذا قيمة ، حقه من الصدقة والبر ، وكذلك ﴿ابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله في سفره ، ولو كان غنيا في بلده.

وقدم . سبحانه . الأقارب ، لأن دفع حاجتهم واجب من الواجبات التي جعلها . سبحانه . للقريب على قريبه.

قال القرطبي : واختلف في هذه الآية ، فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث. وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم في البر على كل حال ، وهو الصحيح ، قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله . عزّ وجلّ . ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة [(١)].

وقال الجمل في حاشيته : وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة ، يدل على أن ذلك في صدقة التطوع ، وقد احتج أبو حنيفة . رحمه الله . بهذه الآية على وجوب نفقة المحارم ، والشافعى . رحمه الله . قاس سائر الأقارب . ما عدا الفروع والأصول . على ابن العم ، لأنه لا ولادة بينهم.

ثم قال : وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للإنسان مال زائد ، لأن المقصود هنا : الشفقة العامة ، والفقير داخل في المسكين ..» [(٢)].

ثم بين . سبحانه . الآثار الطيبة المترتبة على هذا البر والعطاء فقال : ﴿ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٥.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٩٤.

أى : ذلك الإيتاء لهؤلاء الثلاثة ، خير وأبقى عند الله ـ تعالى ـ للذين يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله ، وأولئك المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، هم الكاملون في الفلاح ، والظفر بالخير في الدنيا والآخرة.

وبعد أن حضهم على صلة الأقارب والمساكين وابن السبيل ، نفرهم من تعاطى الربا فقال : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾.

والربا : الزيادة مطلقا. يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد ونما ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾. أى : زادت.

قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن المراد بالربا هنا ، الزيادة المعروفة في المعاملة التي حرمها الشارع. ويشهد لذلك ما روى عن السدى ، من أن الآية نزلت في ربا ثقيف ، كانوا يرابون ، وكذلك كانت قريش تتعاطى الربا.

وعن ابن عباس وغيره : أن المراد به هنا العطية التي يتوقع بها مزيد مكافأة ، وعليه فتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب للزيادة [(١)].

ويبدو لنا أن المراد بالربا هنا ، الربا الذي حرمه الله ـ تعالى ـ بعد ذلك تحريما قاطعا ، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج ، حتى إذا جاء التحريم النهائى له ، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم.

قال صاحب الكشاف : هذه الآية في معنى قوله ـ تعالى ـ ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ﴾. سواء بسواء. يريد : وما أعطيتم أكلة الربا ﴿مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي﴾ أموالهم ، أى : ليزيد ويزكو في أموالهم ، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه [(٢)].

ثم حض ـ سبحانه ـ على التصدق في سبيله فقال : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ﴾ أى من صدقة تتقربون بها إلى الله ، و ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأدائها ﴿وَجْهَ اللهِ﴾ أى : رضاه وثوابه.

﴿فَأُولئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أى : ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب والعطاء الكريم ، فالمضعفون جمع مضعف ـ بكسر العين ـ على أنه اسم فاعل من أضعف ، إذا صار ذا ضعف ـ بكسر فسكون ـ كأقوى وأيسر ، إذا صار ذا قوة ويسار.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ولم يقل : فأنتم المضعفون ، لأنه رجع

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٤٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٨١.

من المخاطبة إلى الغيبة ، كأنه قال لملائكته : فأولئك الذين يريدون وجهى بصدقاتهم ، هم المضعفون ، فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك مظاهر فضله على الناس فقال : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ على غير مثال سابق ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ من فضله بأنواع من الرزق الذي لا غنى لكم عنه في معاشكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد انقضاء أعماركم في هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء.

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ للإنكار والنفي. أى : ليس من شركائكم الذين عبدتموهم من يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك ، فكيف اتخذتموهم آلهة وأشركتموهم معى في العبادة؟ إن الله ـ تعالى ـ وحده هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي وهو المميت.

﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين وعن جهل أولئك الجاهلين.

وبعد هذا التوجيه الحكيم ، يسوق ـ سبحانه ـ الآثار السيئة التي تترتب على الكفر والمعاصي ، ويأمر بالاعتبار بالسابقين ، ويبين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار فيقول :

﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾(٤٥)

قال ابن كثير ما ملخصه : قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هاهنا ، الفيافي. وبالبحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر.

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف. وبالبحر : البحر المعروف.

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره ابن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة ، وكتب له ببحره ـ يعنى ببلده ـ [1].

والمعنى : ظهر الفساد في البر والبحر ، ومن مظاهر ذلك انتشار الشرك والظلم ، والقتل وسفك الدماء ، والأحقاد والعدوان ، ونقص البركة في الزروع والثمار والمطاعم والمشارب ، وغير ذلك مما هو مفسدة وليس بمنفعة ..

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض فقد أفسد فيها ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود : «الحد يقام في الأرض ، أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا».

والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس ، أو أكثرهم ، أو كثير منهم ، عن تعاطى المحرمات. وإذا ارتكبت المعاصي كان سببا في محق البركات .. وكلما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات. وقد ثبت في الحديث الصحيح : «إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب» [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ .. بيان لسبب ظهور الفساد. أى : عم الفساد وطم في البر والبحر ، بسبب اقتراف الناس للمعاصي. وانهماكهم في الشهوات ، وتفلتهم من كل ما أمرهم الله ـ تعالى ـ به ، أو نهاهم عنه. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

فظهور الفساد وانتشاره ، لا يتم عبثا أو اعتباطا ، وإنما يتم بسبب إعراض الناس عن طاعة الله ـ تعالى ـ ، وارتكابهم للمعاصي ...

ثم بين ـ سبحانه ـ ما ترتب على الوقوع في المعاصي من بلاء واختبار ، فقال : ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

واللام في «ليذيقهم» للتعليل وهي متعلقة بظهر. أى : ظهر الفساد ... ليذيق ـ سبحانه ـ الناس نتائج بعض أعمالهم السيئة ، كي يرجعوا عن غيهم وفسقهم ، ويعودوا إلى الطاعة والتوبة.

---

(١ و ٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٢٦.

ويجوز ان تكون متعلقة بمحذوف ، اى : عاقبهم بانتشار الفساد بينهم ، ليجعلهم يحسون بسوء عاقبة الولوغ في المعاصي ، ولعلهم يرجعون عنها ، إلى الطاعة والعمل الصالح.

ثم يلفت ـ سبحانه ـ أنظار الناس إلى سوء عاقبة من ارتكس في الشرك والظلم ، فيقول : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس : سيروا في الأرض سير المتأملين المعتبرين ، لتروا بأعينكم ، كيف كانت عاقبة الظالمين من قبلكم ...

لقد كانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، بسبب إصرار أكثرهم على الشرك والكفر ، وانغماس فريق منهم في المعاصي والفواحش.

فالمراد بالسير ، ما يترتب عليه من عظات وعبر ، حتى لا تكون عاقبة اللاحقين ، كعاقبة السابقين ، في الهلاك والنكال.

ثم أكد ـ سبحانه ـ ما سبق أن أمر به رسوله ﷺ من ثبات على الحق فقال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ .. أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك ـ أيها الرسول الكريم ـ من سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار. فاثبت على هذا الدين القويم ، الذي أوحيناه إليك ، ولا تتحول عنه إلى جهة ما.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ أى : اثبت على هذا الدين القيم ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذي لا يقدر أحد على ردّه أو دفع عذابه إلا الله ـ تعالى ـ وحده.

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوال الناس في هذا اليوم فقال : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

أى : يتفرقون. وأصله يتصدعون ، فقلبت تاؤه صادا وأدغمت. والتصدع التفرق : يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

أى : لن يتفرقا.

والمعنى : اثبت على هذا الدين ، من قبل أن يأتي يوم القيامة ، الذي يتفرق فيه الناس إلى فريقين ثم بين ـ سبحانه ـ الفريق الأول فقال : ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أى : من كفر من الناس ، فعاقبة كفره واقعة عليه لا على غيره ، وسيتحمل وحده ما يترتب على ذلك من عذاب مهين.

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار ،

لأن من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ الفريق الثاني فقال : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أى : ومن عمل في دنياه عملا صالحا ، فإنه بسبب هذا العمل يكون قد مهد وسوى لنفسه مكانا مريحا يستقر فيه في الآخرة.

والمهاد : الفراش. ومنه مهاد الصبى أى فراشه. ويقال مهدت الفراش مهدا ، أى : بسطته ووطأته. ومهدت الأمور. أى : سويتها وأصلحتها.

فالجملة الكريمة تصوير بديع للثمار الطيبة التي تترتب على العمل الصالح في الدنيا ، حتى لكأن من يعمل هذا العمل ، يعد لنفسه في الآخرة مكانا معبدا ، ومضجعا هنيئا ، ينزل فيه وهو في أعلى درجات الراحة والنعيم :

قال ابن جرير : قوله ـ تعالى ـ ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أى : فلأنفسهم يستعدون ، ويسوون المضجع ، ليسلموا من عقاب ربهم ، وينجوا من عذابه ، كما قال الشاعر :

أمهد لنفسك ، حان السقم والتلف ... ولا تضيعن نفسا مالها خلف [2]

ثم بين ـ سبحانه ـ ما اقتضته حكمته وعدالته فقال : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾.

أى : فعل ما فعل ـ سبحانه ـ من تقسيم الناس إلى فريقين ، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، الجزاء الحسن الذي يستحقونه ، وليعطيهم العطاء الجزيل من فضله ، لأنه يحبهم ، أما الكافرون ، فإنه ـ سبحانه ـ لا يحبهم ولا يرضى عنهم.

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن آيات الله ـ تعالى ـ الدالة على قدرته ، وعن مظاهر فضله على الناس ورحمته بهم ، وعن الموقف الجحودى الذي وقفه بعضهم من هذه النعم .. قال ـ تعالى ـ :

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٨٣.

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢١ ص ٣٣.

بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٥٣)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ.﴾ .. بيان لأنواع أخرى من الظواهر الكونية الدالة على قدرته ـ عزّ وجلّ ..

أى : ومن الآيات والبراهين الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ ونفاذ قدرته ، أنه ـ سبحانه ـ يرسل بمشيئته وإرادته الرياح ، لتكون بشارة بأن من ورائها أمطارا ، فيها الخير الكثير للناس.

قال الآلوسى : قوله : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ﴾ أى : الجنوب ، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، والصبا : ومهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش. والشمال : ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر ، فإنها رياح الرحمة. أما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل ، فريح العذاب ...» [1].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٥١.

وقوله : ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ .. بيان للفوائد التي تعود على الناس من إرسال الرياح التي تعقبها الأمطار ، وهو متعلق بقوله ﴿يُرْسِلَ﴾.

أى : يرسل الرياح مبشرات بالأمطار ويرسلها ليمنحكم من رحمته الخصب والنماء لزرعكم ، ولتجرى الفلك عند هبوبها في البحر بإذنه ـ تعالى ـ ولتبتغوا أرزاقكم من فضله ـ سبحانه ـ عن طريق الأسفار ، والانتقال من مكان إلى آخر ، ولكي تشكروا الله ـ تعالى ـ على هذه النعم : فإنكم إذا شكرتموه ـ سبحانه ـ على نعمه زادكم منها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ.﴾ .. كلام معترض بين الحديث عن نعمة الرياح ، لتسلية الرسول ﷺ عما لحقه من قومه من أذى.

أى ولقد أرسلنا من قبلك ـ أيها الرسول الكريم ـ رسلا كثيرين ، إلى قومهم ليهدوهم إلى الرشد ، وجاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات التي تدل على صدقه.

وقوله ﴿فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ معطوف على كلام محذوف. أى : أرسلناهم بالحجج الواضحات ، فمن أقوامهم من آمن بهم ، ومنهم من كذبهم ، فانتقمنا من المكذبين لرسلهم.

﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : وكان نصر المؤمنين حقا أوجبناه على ذاتنا ، فضلا منا وكرما ، وتكريما وإنصافا لمن آمن بوحدانيتنا ، وأخلص العبادة لنا.

«وحقا» خبر كان ، و «نصر المؤمنين» اسمها و «علينا متعلق بقوله حقا.

قال ابن كثير : قوله ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرما وتفضلا ، كقوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

وعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة : ثم تلا ﷺ هذه الآية» [1].

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن الرياح وما يترتب عليها من منافع فتقول : ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ﴾ بقدرته ومشيئته.

﴿فَتُثِيرُ سَحاباً﴾ أى : هذه الرياح التي يرسلها الله ـ تعالى ـ تتحرك في الجو وفق

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٢٨.

إرادته ـ سبحانه ـ وتحرك السحاب وتنشره من مكان إلى آخر.

﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ﴾ : أي فيبسط الله ـ تعالى ـ هذا السحاب في طبقات الجو ، بالكيفية التي يختارها ـ سبحانه ـ ويريدها ، بأن يجعله تارة متكاثفا ، وتارة متناثرا ، وتارة من جهة الشمال ، وتارة من جهات غيرها.

﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ أي : ويجعله قطعا بعضها فوق بعض تارة أخرى. والكسف : جمع كسفه ، وهي القطعة من السحاب.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي : المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ أي يخرج ويتساقط من خلال هذا السحاب ، ومن بين ذراته. ﴿فَإِذا أَصابَ بِهِ﴾ ، أي : بهذا المطر ﴿مَنْ يَشاءُ﴾ إصابته به ﴿مِنْ عِبادِهِ﴾ بأن ينزله على أراضيهم وعلى بلادهم ﴿إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي : يفرحون بذلك ، لأنه يكون سببا في حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم ..

وأعرف الناس بنعمة المطر ، أولئك الذين يعيشون في الأماكن البعيدة عن الأنهار. كأهل مكة ومن يشبهونهم ممن تقوم حياتهم على مياه الأمطار.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم قبل نزول تلك الأمطار عليهم فقال : ﴿وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾.

وإن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، والضمير في ﴿يُنَزَّلَ﴾ يعود للمطر ، وفي قوله ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعود لنزول المطر ـ أيضا ـ على سبيل التأكيد. وقوله : ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ خبر كان. والإبلاس : اليأس من الخير ، والسكوت ، والانكسار غما وحزنا. يقال : أبلس الرجل ، إذا سكت على سبيل اليأس والذل والانكسار.

أي : هم عند نزول الأمطار يستبشرون ويفرحون ، ولو رأيت حالهم قبل نزول الأمطار لرأيتهم في غاية الحيرة والقنوط والإبلاس ، لشدة حاجتهم إلى الغيث الذي طال انتظارهم له وتطلعهم إليه دون أن ينزل.

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من باب التكرير والتوكيد ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها﴾ (١) «ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك» (٢).

---

(١) سورة الحشر الآية ١٧.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٨٥.

ثم لفت . سبحانه . أنظار الناس إلى ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة فقال : ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ﴾ .. والفاء للدلالة على سرعة الانتقال من حالة اليأس إلى الاستبشار. أى : فانظر . أيها العاقل . نظرة تعقل واتعاظ واستبصار ، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر ، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح ، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة.

وقوله . تعالى . : ﴿كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ في محل نصب على تقدير الخافض. أى : فانظر إلى آثار رحمة الله بعد نزول المطر ، وانظر وتأمل كيف يحيى الله . تعالى . بقدرته ، الأرض بعد موتها بأن يجعلها خضراء ويانعة ، بعد أن كانت جدباء قاحلة.

واسم الإشارة في قوله . تعالى . ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ يعود على الله . تعالى .. أى : إن ذلك الإله العظيم الذي أحيا الأرض بعد موتها ، لقادر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق بينهما بالنسبة لقدرة الله التي لا يعجزها شيء. ﴿وَهُوَ﴾ . سبحانه . ﴿عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملة الأشياء المقدور عليها ، إحياء الموتى.

وهكذا يسوق القرآن الكريم الأدلة على البعث ، بأسلوب منطقي ، منتزع من واقع الناس ، ومن المشاهد التي يرونها في حياتهم.

وبعد أن صور . سبحانه . أحوال الناس عند رؤيتهم للرياح التي تثير السحب المحملة بالأمطار ، وأنهم عند رؤيتها يفرحون ويستبشرون. بعد أن صور ذلك بأسلوب بديع ، أتبع ذلك بتصوير حالهم عند ما يرون ريحا تحمل لهم الرمال والأتربة ، وتضر بمزروعاتهم فقال . تعالى . ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

والضمير في «رأوه» يعود إلى النبات المفهوم من السياق. أى : هذا حال الناس عند ما يرون الرياح التي تحمل لهم الأمطار ، أما إذا أرسلنا عليهم ريحا معها الأتربة والرمال ، فرأوا نباتهم وزروعهم قد اصفرت واضمحلت وأصابها ما يضرها أو يتلفها .. فإنهم يظلون من بعد إرسال تلك الريح عليهم ، يكفرون بنعم الله ، ويجحدون آلاءه السابقة ، ويقابلون ما أرسلناه عليهم بالسخط والضيق ، لا بالاستسلام لقضائنا ، وملازمة طاعتنا.

قال الآلوسى ما ملخصه : واللام في قوله : ﴿وَلَئِنْ﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، والفاء في «فرأوه» فصيحة ، واللام في قوله «لظلوا» لام جواب القسم الساد مسد الجوابين ، والماضي بمعنى المستقبل .. وفيما ذكر . سبحانه . من ذمهم على عدم تثبتهم ما لا يخفى ، حيث كان من الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله . تعالى . في كل حال ، ويلجئوا إليه بالاستغفار ، إذا احتبس منهم المطر ، ولا ييأسوا من روح الله . تعالى .

ويبادروا إلى الشكر بالطاعة ، إذا أصابهم برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ، فعكسوا الأمر ، وأبوا ما يجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم ...» [1].

ثم سلى . سبحانه . نبيه عما لحقه منهم من أذى ، بعد أن ذكر له جانبا من تقلب أحوالهم ، فقال . تعالى . : ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾. أى : فاصبر . أيها الرسول . لحكم ربك ، واثبت على ما أنت عليه من حق ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ إذا ناديتهم ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ﴾ إذا ما دعوتهم أو وعظتهم.

وقوله ﴿إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق ، بعد بيان كونهم كالأموات وكالصم.

ثم وصفهم بالعمى فقال : ﴿وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾ بسبب فقدهم الانتفاع بأبصارهم ، كما فقدوا الانتفاع ببصائرهم.

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا﴾ أى : ما تستطيع أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى : منقادون للحق ومتبعون له.

فالآيتان الكريمتان تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من هؤلاء المشركين ، وعن إخفاق جهوده مع كثير منهم ، لانطماس بصائرهم ، حيث شبههم . سبحانه . بالموتى وبالصم وبالعمى ، في عدم انتفاعهم بالوعظ والإرشاد ..

وبعد هذا التطواف في أعماق الأنفس والآفاق. أخذت السورة الكريمة في أواخرها ، تذكر الناس بمراحل حياتهم ، وبأحوالهم يوم القيامة ، وبفضائل القرآن الكريم ، وبأمر النبي ﷺ بالصبر والثبات .. قال . تعالى . :

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٥٤.

كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾(٦٠)

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ .. استدلال آخر على قدرته ـ تعالى ـ ومعنى ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ من نطفة ضعيفة ، أو في حال ضعف ، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر .. وقرأ الجمهور بضم الضاد ، وقرأ عاصم وحمزة بفتحها ، والضعف ـ بالضم والفتح ـ خلاف القوة ، وقيل بالفتح في الرأى ، وبالضم في الجسد ...» [1].

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ ولم يقل خلقكم ضعافا .. للإشعار بأن الضعف هو مادتهم الأولى التي تركب منها كيانهم ، فهو شامل لتكوينهم الجسدى ، والعقلي ، والعاطفى ، والنفسي ... إلخ. أى : الله ـ تعالى ـ بقدرته ، هو الذي خلقكم من ضعف ترون جانبا من مظاهره في حالة طفولتكم وحداثة سنكم ...

﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أى : ثم جعل لكم من بعد مرحلة الضعف مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة بكل صورها الجسدية والعقلية والنفسية ..

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ أى : ثم جعل من بعد مرحلة القوة ، مرحلة ضعف

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٤٦.

آخر ، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه في الضعف ، وهي مرحلة الشيب والهرم والشيخوخة التي هي أرذل العمر ، وفيها يصير الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير في كثير من أحواله ..

﴿يَخْلُقُ﴾ . سبحانه . ﴿ما يَشاءُ﴾ خلقه ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ﴿الْقَدِيرُ﴾ على كل شيء.

فأنت ترى أن هذه الآية قد جمعت مراحل حياة الإنسان بصورها المختلفة.

ثم بين . سبحانه . ما يقوله المجرمون عند ما يبعثون من قبورهم للحساب فقال : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾.

والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من عمر الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ، والمراد بقيامها : حصولها ووجودها ، وقيام الخلائق في ذلك الوقت للحساب أى : وحين تقوم الساعة ؛ ويرى المجرمون أنفسهم وقد خرجوا من قبورهم للحساب بسرعة ودهشة ، يقسمون بأنهم ما لبثوا في قبورهم أو في دنياهم ، غير وقت قليل من الزمان.

قال ابن كثير : يخبر الله . تعالى . عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم . أيضا . فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة. ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم (١).

وقوله : ﴿كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ تذييل قصد به بيان ما جبلوا عليه من كذب.

ويؤفكون من الإفك بمعنى الكذب. يقال : أفك الرجل ، إذا صرف عن الخير والصدق أى : مثل هذا الكذب الذي تفوهوا به في الآخرة كانوا يفعلون في الدنيا ، فهم في الدارين لا ينفكون عن الكذب وعن اختلاق الباطل.

ثم حكى . سبحانه . ما قاله أهل العلم والإيمان في الرد عليهم ، فقال : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾.

أى : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والمؤمنين الصادقين في الرد على هؤلاء المجرمين : لقد لبثتم في علم الله وقضائه بعد مفارقتكم الدنيا إلى يوم البعث ، أى : إلى الوقت الذي حدده . سبحانه . لبعثكم ، والفاء في قوله . تعالى . : ﴿فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ هي

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٣١.

الفصيحة. اى : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه تشاهدونه بأعينكم. ولا تستطيعون إنكاره الآن كما كنتم تنكرونه في الدنيا.

فالجملة الكريمة ، المقصود بها توبيخهم وتأنيبهم على إنكارهم ليوم الحساب.

وقوله ﴿وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ زيادة في تقريعهم. أى : فهذا يوم البعث ماثل أمامكم. ولكنكم كنتم في الدنيا لا تعلمون أنه حق وصدق. بل كنتم بسبب كفركم وعنادكم تستخفون به وبمن يحدثكم عنه ، فاليوم تذوقون سوء عاقبة إنكاركم له ، واستهزائكم به.

ولذا قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك : ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أى : فيوم أن تقوم الساعة ويقف الناس للحساب. ﴿لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يفيدهم علمهم بأن الساعة حق. ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى : ولا هم يقبل منهم الرجوع إلى الله ـ تعالى ـ بالتوبة والعمل الصالح.

قال الآلوسى : والاستعتاب : طلب العتبى ، وهي الاسم من الإعتاب ، بمعنى إزالة العتب. أى : لا يطلب منهم إزالة عتب الله ـ تعالى ـ وغضبه عليهم ، لأنهم قد حق عليهم العذاب ..» (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ موقفهم من القرآن الكريم ، وأنهم لو اتبعوا توجيهاته لنجوا من العذاب المهين ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ...

أى : وبالله لقد ضربنا للناس في هذا القرآن العظيم ، كل مثل حكيم ، من شأنه أن يهدى القلوب إلى الحق ، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها ...

﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أى ولئن جئت ـ أيها الرسول ـ هؤلاء المشركين بآية بينة تدل على صدقك فيما تبلغه عن ربك.

﴿لَيَقُولَنَ﴾ على سبيل التطاول والتبجح ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أى : ما أنتم إلا متبعون للباطل أيها المؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

ثم يعقب ـ سبحانه ـ على هذا التطاول والغرور بقوله : ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾. والطبع : الختم على الشيء حتى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه.

أى : مثل هذا الطبع العجيب ، يطبع الله ـ تعالى ـ على قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون ،

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٦١.

ولا يعملون على إزالة جهلهم ، لتوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء ، وهذا أسوأ أنواع الجهل ، لأنه جهل مركب ، إذ صاحبه يجهل أنه جاهل. فهو كما قال الشاعر :

قـــال حمــــار الحكـــــيم يومــــا    لــــو أنصـــفونى لكنـــت أركـــب

لأنـــــــى جاهـــــل بســـــيط    وصـــــاحبي جاهـــــل مركــــب

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بأمر النبي ﷺ بالصبر على هؤلاء الجاهلين ، فقال : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾.

أى : إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين ، فاصبر على أذاهم ، وعلى جهالاتهم ، فإن وعد الله ـ تعالى ـ بنصرك عليهم حق لا شك في ذلك.

﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أى : ولا يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون بصحة ما تتلو عليهم من آيات ، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير.

وهكذا ختمت السورة الكريمة بالوعد بالنصر ، كما افتتحت بالوعد به ، للمؤمنين الصادقين ﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد : فهذه هي سورة الروم ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**كتبه الراجي عفو ربه**

**د. محمد سيد طنطاوى**

# تفسير

# سورة لقمان

## بسم الله الرّحمن الرّحيم

### مقدّمة

١ . سورة لقمان هي السورة الحادية والثلاثون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فهي السورة السادسة والخمسون من بين السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة الصافات [١].

وعدد آياتها : أربع وثلاثون آية. وقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره أنها مكية ، دون أن يستثنى شيئا منها.

وقال الآلوسى ما ملخصه : أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة ... وفي رواية عنه : أنها مكية إلا ثلاث آيات تبدأ بقوله . تعالى . : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ [٢].

٢ . وتبدأ السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، وعلى المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون.

ثم تنتقل إلى الحديث عن جانب من صفات المشركين ، الذين يستهزئون بآيات الله . تعالى . ، ويعرضون عنها ، ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم ساقت أدلة متعددة على وحدانية الله . تعالى . وقدرته ، قال . تعالى . : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

٣ . ثم قص علينا . سبحانه . تلك الوصايا الحكيمة ، التي أوصى بها لقمان ابنه ، والتي اشتملت على ما يهدى إلى العقيدة السليمة ، وإلى الأخلاق الكريمة ، وإلى مراقبة الخالق . عزّ وجلّ . وإلى أداء العبادات التي كلفنا . سبحانه . بها.

ومن هذه الوصايا قوله . سبحانه . : ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ مبحث المكي والمدني.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٦٤.

الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ ، إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

٤ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ ألوانا من نعمه على عباده ، منها ما يتعلق بخلق السموات ، ومنها ما يتعلق بخلق الأرض ، كما بين ـ عزوجل ـ أن علمه محيط بكل شيء ، وأنه لا نهاية له .. قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ، ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

٥ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بدعوة الناس جميعا إلى تقواه ـ عزوجل ـ وإلى بيان الأمور الخمسة التي لا يعلمها إلا هو ـ سبحانه ـ فقال : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ. إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

٦ ـ هذا ، والمتأمل في هذه السورة الكريمة ، يراها قد خاطبت النفس البشرية ، بما من شأنه أن يسعدها ويحييها حياة طيبة.

إنها قد بينت أوصاف المؤمنين الصادقين ، وأوصاف أعدائهم : وبينت عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، ووضحت تلك الوصايا الحكيمة التي أوصى بها لقمان ابنه وأحب الناس إليه ، وساقت أنواعا من النعم التي أنعم بها ـ سبحانه ـ على عباده ، وبينت أن هناك أمورا لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ وحده.

وقد ساقت السورة ما ساقت من هدايات ، بأسلوب بليغ مؤثر ، يرضى العواطف ، ويقنع العقول ..

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**قال الله . تعالى . :**

**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**

﴿الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥)

سورة لقمان من السور التي بدئت ببعض حروف التهجي ...

وقد فصلنا القول في معانيها ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران وغيرهما.

وقلنا في نهاية سردنا لأقوال العلماء في ذلك : ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها. فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة ، مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة ..

واسم الإشارة في قوله . سبحانه . : ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ يعود إلى آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات السورة التي معنا.

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم على الصحيح. لأنه هو المتحدث عنه.

قال الآلوسى : وأما حمله على الكتب التي خلت قبل القرآن .. فهو في غاية البعد [١] ، والحكيم . بزنة فعيل . مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع ، تقول : حكمت الفرس ، إذا وضعت الحكمة في فمها لمنعها من الجموح والشرود.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ٥٨.

والمقصود ، أن هذا القرآن ممتنع أن يتطرق إليه الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف.

قال الإمام الرازي ما ملخصه : وفي وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه ، منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة ، فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر. ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم .. «أى المبرأ من الكذب والتناقض» [1].

والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هي آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب ، المحفوظ من كل تحريف أو تبديل الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت كلها لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله ـ تعالى ـ قد وعد رسوله ﷺ بنزول القرآن عليه ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ ووعد الله ـ تعالى ـ لا يتخلف.

وقوله ﴿هُدىً وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على الحالية من ﴿آياتُ﴾.

أى : هذا الكتاب أنزلنا عليك يا محمد آياته ، لتكون هداية ورحمة للمحسنين في أقوالهم وفي أفعالهم ، وفي كل أحوالهم.

ثم وصف ـ سبحانه ـ هؤلاء المحسنين ، بصفات كريمة فقال : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ أى : يؤدونها في أوقاتها المحددة لها ، مستوفية لواجباتها ، وسننها ، وآدابها وخشوعها ، فإن الصلاة التامة هي تلك التي يصحبها الإخلاص ، والخشوع ، والأداء الصحيح المطابق لما ورد عن النبي ﷺ.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ أى : ويعطون الزكاة التي أوجبها الله ـ تعالى ـ في أموالهم لمستحقيها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التي هي الدار الدنيا.

وقوله ﴿يُوقِنُونَ﴾ من الإيقان ، وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث لا يطرأ عليه شك ، ولا تحوم حوله شبهة ..

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٥.

أى : أن من صفات هؤلاء المحسنين ، أنهم يؤدون الصلاة بخشوع وإخلاص ، ويقدمون زكاة أموالهم لمستحقيها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، يوقنون إيقانا قطعيا ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة.

وفي إيراد «هم» قبل لفظ الآخرة. وقبل لفظ يوقنون : تعريض بغيرهم ممن كان اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة ، أو غير بالغ مرتبة اليقين.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك الثمار الطيبة التي ترتبت على تلك الصفات الكريمة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

والمفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية. وأصله من الفلح ـ بسكون اللام ـ وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث ، واستعمل منه الفلاح في الفوز ، كأن الفائز شق طريقه وفلحه ، للوصول إلى مبتغاه ، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت.

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة ، على هداية عظيمة من ربهم توصلهم إلى المطلوب ، وأولئك هم الفائزون بكل مرغوب.

والتنكير في قوله ﴿عَلى هُدىً﴾ للتعظيم ، وأتى بلفظ «على» للاشارة إلى التمكن والرسوخ ، ووصفه بأنه ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لأنه ـ سبحانه ـ هو الذي وفقهم إليه ، ويسر لهم أسبابه.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال طائفة أخرى من الناس ، كانوا على النقيض من سابقيهم ، فقال :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾(٧)

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات اشهرها ، أنهما نزلتا في النضر بن الحارث. اشترى قينة ـ أى مغنية ـ ، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى

قينته ، فيقول لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد ﷺ من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه. [١].

و ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ : باطله ، ويطلق على كل كلام يلهى القلب ، ويشغله عن طاعة الله ـ تعالى ـ ، كالغناء ، والملاهي ، وما يشبه ذلك مما يصد عن ذكر الله ـ تعالى ـ :

وقد فسره كثير من العلماء بالغناء ، والأفضل تفسيره بكل حديث لا يثمر خيرا.

و ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ للتبعيض ، أى : ومن الناس من يترك القول الذي ينفعه ، ويشترى الأحاديث الباطلة ، والخرافات الفاسدة.

قال القرطبي ما ملخصه : هذه إحدى الآيات التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. ولا يختلف في تحريم الغناء الذي يحرك النفوس ، ويبعثها على الغزل والمجون .. فأما ما سلّم من ذلك ، فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق .. [٢].

وقوله : ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً﴾ .. تعليل لاشتراء لهو الحديث. والمراد بسبيل الله ـ تعالى ـ : دينه وطريقه الذي اختاره لعباده.

وقد قرأ الجمهور : ﴿لِيُضِلَ﴾ بضم الياء ـ أى : يشترى لهو الحديث ليضل غيره عن صراط الله المستقيم ، حالة كونه غير عالم بسوء عاقبة ما يفعله ، ولكي يتخذ آيات الله ـ تعالى ـ مادة لسخريته واستهزائه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لِيُضِلَ﴾ ـ بفتح الياء ـ فيكون المعنى : يشترى لهو الحديث ليزداد رسوخا في ضلاله.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : القراءة بالضم بينة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو ، أن يصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ، ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح؟.

قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ، ولا يصدف عنه ، ويزيد فيه ويمده ، فإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصد الناس عنه. والثاني : أن

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٧٢.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٥٤ وراجع تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٦٧ وما بعدها.

يوضع ليضل موضع ليضل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لا محالة ، فدل بالرديف على المردوف .. [1].

وقوله : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ بيان لسوء عاقبة من يؤثر الضلالة على الهداية.

أى : أولئك الذين يشترون لهو الحديث ، ليصرفوا الناس عن دين الله ـ تعالى ـ ، وليستهزئوا بآياته ، لهم عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل الاحتقار والهوان.

ثم فصل ـ سبحانه ـ حال هذا الفريق الشقي فقال : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ﴾ أى : على النضر وأمثاله ﴿آياتُنا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق نبينا صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ أى : أعرض عنها بغرور واستعلاء. ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها﴾ أى : كأن حاله في استكباره عن سماع الآيات ، كحال الذي لم يسمعها إطلاقا.

﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ أى : كأن في أذنيه صمما وثقلا ومرضا يحول بينه وبين السماع.

والجملتان الكريمتان حال من قوله ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ والمقصود بهما توبيخ هذا الشقي وأمثاله ، وذمهم ذما موجعا لإعراضهم عن الحق.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ تهكم به ، واستخفاف بتصرفاته.

أى : فبشر هذا الشقي الذي اشترى لهو الحديث ، وأعرض عن آياتنا بالعذاب الأليم ، الذي يناسب غروره واستكباره.

ثم أكدت السورة الجزاء الحسن الذي أعده الله ـ تعالى ـ للمؤمنين ، وذكرت جانبا من مظاهر قدرته ـ سبحانه ـ ، ورحمته بعباده ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٩١.

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(١١)

أى : إن الذين آمنوا بالله ـ تعالى ـ إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات ﴿لَهُمْ﴾ في مقابلة ذلك ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أى : لهم جنات عالية يتنعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

﴿خالِدِينَ فِيها﴾ خلودا أبديا ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ أى : هم خالدون في تلك الجنات خلودا أبدا ، فقد وعدهم ـ سبحانه ـ بذلك ، ووعده حق وصدق ، ولن يخلفه ـ سبحانه ـ تفضلا منه وكرما.

قال الجمل. وقوله ﴿وَعْدَ﴾ مصدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله : ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في معنى وعدهم الله ذلك. وقوله ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره. أى : لمضمون تلك الجملة الأولى وعاملهما مختلف ، فتقدير الأولى : وعد الله ذلك وعدا. وتقدير الثانية ، وحقه حقا.[(١)]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى : وهو ـ سبحانه ـ العزيز الذي لا يغلبه غالب. الحكيم في كل أفعاله وتصرفاته.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر قدرته وعزته وحكمته فقال : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ ...

والعمد : جمع عماد. وهو ما تقام عليه القبة أو البيت. وجملة «ترونها» في محل نصب حال من السموات.

أى هو : ـ سبحانه ـ وحده ، الذي رفع هذه السموات الهائلة في صنعها وفي ضخامتها ، بغير مستند يسندها. وبغير أعمدة تعتمد عليها. وأنتم ترون ذلك بأعينكم بدون لبس أو خفاء. ولا شك أن خلقها على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقا مدبرا قادرا حكيما ، هو المستحق للعبادة والطاعة.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ بيان لنعمة ثانية مما أنعم به ـ سبحانه ـ على عباده.

والرواسي : جمع راسية. والمراد بها الجبال الشوامخ الثابتة.

---

(١) حاشية الجمل ج ٣ ص ٤٠١.

أى : ومن رحمته بكم ، وفضله عليكم ، أن ألقى ـ سبحانه ـ في الأرض جبالا ثوابت كراهة أن تميد وتضطرب بكم ، وأنتم عليها.

﴿وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ﴾ أى : وأوجد ونشر في الأرض التي تعيشون فوقها ، من كل دابة من الدواب التي لا غنى لكم عنها والتي فيها منفعتكم ومصلحتكم.

والبث : معناه : النشر والتفريق. يقال : بث القائد خيله إذا نشرها وفرقها.

ثم بين ـ سبحانه ـ نعمة ثالثة فقال : ﴿وَأَنْزَلْنا﴾ أى : بقدرتنا ﴿مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ أى : ماء كثيرا هو المطر ، ﴿فَأَنْبَتْنا فِيها﴾ أى : فأنبتنا في الأرض بسبب نزول المطر عليها. ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أى : صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ أى حسن جميل كثير المنافع.

والإشارة في قوله : ﴿هذا خَلْقُ اللهِ﴾ .. تعود إلى ما ذكره ـ سبحانه ـ من مخلوقات قبل ذلك. والخلق بمعنى المخلوق.

هذا الذي ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض والجبال ... هو من مخلوقنا وحدنا ، دون أن يشاركنا فيما خلقناه مشارك.

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر ، أى : إذا علمتم ذلك فأرونى وأخبرونى ، ماذا خلق الذين اتخذتموهم آلهة من دونه ـ سبحانه ـ إنهم لم يخلقوا شيئا ما ، بل هم مخلوقون لله ـ تعالى ..

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تحدى المشركين ، وإثبات أنهم في عبادتهم لغير الله ، قد تجاوزوا كل حد في الجهالة والضلالة.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتهم وتوبيخهم ، إلى تسجيل الضلال الواضح عليهم.

أى : بل الظالمون في ضلال بين واضح ، لأنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، ويتركون عبادة الله ـ تعالى ـ الخلاق العليم.

ثم ساق ـ سبحانه ـ على لسان عبد صالح من عباده ، جملة من الوصايا الحكيمة ، لتكون عظة وعبرة للناس ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قالَ

لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩)

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : اختلف السلف في لقمان ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة؟ والأكثرون على أنه لم يكن نبيا.

وعن ابن عباس وغيره : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا ..

قال له مولاه : اذبح لنا شاة وجئني بأخبث ما فيها؟ فذبحها وجاءه بلسانها وقلبها. ثم قال له مرة ثانية : اذبح لنا شاة وجئني بأحسن ما فيها؟ فذبحها وجاءه ـ أيضا ـ بقلبها ولسانها ، فقال له مولاه ما هذا؟ فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، وليس من شيء أخبث منهما إذا خبثا.

وقال له رجل: ألست عبد فلان؟ فما الذي بلغ بك ما أرى من الحكمة؟ فقال لقمان: قدر الله وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني [1].

ومن أقواله لابنه: يا بنى اتخذ تقوى الله لك تجارة، يأتك الربح من غير بضاعة.

يا بنى، لا تكن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

يا بنى، اعتزل الشر كما يعتزلك، فإن الشر للشر خلق.

يا بنى، عليك بمجالس العلماء، وبسماع كلام الحكماء، فإن الله ـ تعالى ـ يحيي القلب الميت بنور الحكمة.

يا بنى، إنك منذ نزلت الدنيا استدبرتها، واستقبلت الآخرة، ودار أنت إليها تسير، أقرب من دار أنت عنها ترتحل .. [2].

وقال الآلوسى ما ملخصه: ولقمان: اسم أعجمى لا عربي وهو ابن باعوراء. قيل: كان في زمان داود ـ عليه السلام ـ. وقيل: كان زمانه بين عيسى وبين محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ..

ثم قال الآلوسى: وإنى أختار أنه كان رجلا صالحا حكيما، ولم يكن نبيا [3].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ.﴾ .. كلام مستأنف مسوق لإبطال الإشراك بالله ـ تعالى ـ عن طريق النقل، بعد بيان إبطاله عن طريق العقل، في قوله ـ سبحانه ـ قبل ذلك: ﴿هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ.﴾ ...

والحكمة: اكتساب العلم النافع والعمل به. أو هي: العقل والفهم. أو هي الإصابة في القول والعمل.

والمعنى: والله لقد أعطينا ـ بفضلنا وإحساننا ـ عبدنا لقمان العلم النافع والعمل به.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ بيان لما يقتضيه إعطاء الحكمة. أى: آتيناه الحكمة وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من نعم لكي يزيدك منها.

قال الشوكانى: قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن هي المفسرة: لأن في إيتاء الحكمة معنى القول. وقيل التقدير: قلنا له أن اشكر لي .. وقيل: بأن اشكر لي فشكر، فكان حكيما بشكره.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٦.

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٠٣.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٨٢.

والشكر لله : الثناء عليه في مقابلة النعمة . واستعمالها فيما خلقت له . ، وطاعته فيما أمر به (١).

ثم بين . سبحانه . حسن عاقبة الشكر وسوء عاقبة الجحود فقال : ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أى : ومن يشكر الله . تعالى . على نعمه ، فإن نفع شكره إنما يعود إليه ، ومن جحد نعم الله . تعالى . واستحب الكفر على الإيمان ، فالله . تعالى . غنى عنه وعن غيره ، حقيق بالحمد من سائر خلقه لإنعامه عليهم بالنعم التي لا تعد ولا تحصى : فحميد بمعنى محمود.

فالجملة الكريمة المقصود بها ، بيان غنى الله . تعالى . عن خلقه ، وعدم انتفاعه بطاعتهم ، لأن منفعتها راجعة إليهم ، وعدم تضرره بمعصيتهم. وإنما ضرر ذلك يعود عليهم. وعبر . سبحانه . في جانب الشكر بالفعل المضارع ، للإشارة إلى أن من شأن الشاكرين أنهم دائما على تذكر لنعم الله . تعالى . ، وإذا ما غفلوا عن ذلك لفترة من الوقت ، عادوا إلى طاعته . سبحانه . وشكره.

وعبر في جانب الكفر بالفعل الماضي ، للإشعار بأنه لا يصح ولا ينبغي من أى عاقل ، بل كل عاقل عليه أن يهجر ذلك هجرا تاما ، وأن يجعله في خبر كان.

وجواب الشرط محذوف ، وقد قام مقامه قوله . تعالى . : ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ والتقدير : ومن كفر فضرر كفره راجع إليه. لأن الله . تعالى . غنى حميد.

ثم حكى . سبحانه . ما قاله لقمان لابنه على سبيل النصيحة والإرشاد فقال . تعالى . : ﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ، يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله ﴿يَعِظُهُ﴾ من الوعظ ، وهو الزجر المقترن بالتخويف. وقيل : هو التذكير بوجوه الخير بأسلوب يرق له القلب.

قالوا : واسم ابنه «ثاران» أو «ماثان» أى : واذكر . أيها العاقل . لتعتبر وتنتفع ، وقت أن قال لقمان لابنه وهو يعظه ، ويرشده إلى وجوه الخير بألطف عبارة : يا بنى ﴿لا تُشْرِكْ بِاللهِ﴾ . تعالى . لا في عبادتك ، ولا في قولك ، ولا في عملك ، بل أخلص كل ذلك لخالقك . عزّ وجلّ ..

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٢٣٧.

وفي ندائه بلفظ ﴿يا بُنَيَ﴾ إشفاق عليه. ومحبة له، فالمراد بالتصغير إظهار الحنو عليه، والحرص على منفعته.

قيل: وكان ابنه كافرا فما زال يعظه حتى أسلم. وقيل: بل كان مسلما، والنهى عن الشرك المقصود به، المداومة على ما هو عليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين.

وجملة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهى. أى: يا بنى حذار أن تشرك بالله في قولك أو فعلك، إن الشرك بالله - تعالى - لظلم عظيم، لأنه وضع للأمور في غير موضعها الصحيح، وتسوية في العبادة بين الخالق والمخلوق.

وقوله - تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ﴾.. كلام مستأنف، جيء به على سبيل الاعتراض في أثناء وصية لقمان لابنه، لبيان سمو منزلة الوالدين، ولأن القرآن كثيرا ما يقرن بين الأمر بوحدانية الله - تعالى -، والأمر بالإحسان إلى الوالدين.

ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾.. [(١)].

وقوله - عزّ وجلّ -: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾.. [(٢)]. أى: أمرنا كل إنسان أن يكون بارا بأبويه، وأن يحسن إليهما، وأن يطيع أمرهما في المعروف.

ثم بين - سبحانه - ما بذلته الأم من جهد يوجب الإحسان إليها فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ﴾ أى: حملته أمه في بطنها وهي تزداد في كل يوم ضعفا على ضعف، بسبب زيادة وزنه، وكبر حجمه، وتعرضها لألوان من التعب خلال حمله ووضعه.

والوهن: الضعف. يقال: وهن فلان يهن وهنا. إذا ضعف. ولفظ «وهنا» حال من أمه بتقدير مضاف. أى: حملته أمه ذات وهن، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال. أى: تهن وهنا. وقوله: ﴿عَلى وَهْنٍ﴾ متعلق بمحذوف صفة للمصدر. أى: وهنا كائنا على وهن.

وقوله: ﴿وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ بيان لمدة إرضاعه. والفصال: الفطام عن الرضاع.

أى: وفطام المولود عن الرضاعة يتم بانقضاء عامين من ولادته، كما قال - تعالى -: ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ.﴾.. [(٣)].

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٣.

وهاتان الجملتان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ جاءتا بعد الوصية بالوالدين عموما ، تأكيدا لحق الأم ، وبيانا لما تبذله من جهد شاق في سبيل أولادها ، تستحق من أجله كل رعاية وتكريم وإحسان.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فقوله : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟

قلت : لما وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا وتذكيرا بحقها العظيم مفردا ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ لمن قال له : من أبر؟ قال : «أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك : «ثم أباك» (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ بيان لما تستلزمه الوصية بالوالدين أى : وصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له : اشكر لخالقك فضله عليك ، بأن تخلص له العبادة والطاعة ، واشكر لوالديك ما تحملاه من أجلك من تعب ، بأن تحسن إليهما ، واعلم أن مصيرك إلى خالقك ـ عزّ وجلّ ـ وسيحاسبك على أعمالك ، وسيجازيك عليها بما تستحقه من ثواب أو عقاب.

ثم بين ـ سبحانه ـ حدود الطاعة للوالدين فقال : ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ ..

والجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿وَوَصَّيْنَا.﴾ .. بإضمار القول. أى : ووصينا الإنسان بوالديه. وقلنا له : ﴿وَإِنْ جاهَداكَ﴾ أى : وإن حملاك ﴿عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ في العبادة أو الطاعة ، ﴿ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ في ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وجملة ﴿ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لبيان الواقع ، فلا مفهوم لها ، إذ ليس هناك من إله يعلم سوى الله ـ عزّ وجلّ ـ ..

ثم أمر ـ سبحانه ـ بمصاحبتهما بالمعروف حتى مع كفرهما فقال : ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾.

أى : إن حملاك على الشرك. فلا تطعهما ، ومع ذلك فصاحبهما في الأمور الدنيوية التي لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة ، يرتضيها الشرع ، وتقتضيها مكارم الأخلاق.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٩٤.

وقوله ﴿مَعْرُوفاً﴾ صفة لمصدر محذوف. أى : صحابا معروفا. أو منصوب بنزع الخافض. أى : بالمعروف.

ثم أرشد . سبحانه . إلى وجوب اتباع أهل الحق فقال : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾ ... أى : واتبع . أيها العاقل طريق الصالحين من عبادي ، الذين رجعوا إلى بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعا يوم القيامة . أيها الناس . ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ، وأجازى كل إنسان على حسب عمله : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

قال القرطبي ما ملخصه : وهاتان الآيتان نزلتا في شأن سعد بن أبى وقاص لما أسلم ، وأن أمه حلفت أن لا تأكل طعاما حتى تموت .. وفيهما دليل على صلة الأبوين الكافرين ، بما أمكن من المال إن كانا فقيرين .. وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق ، للنبي ﷺ وقد قدمت عليها خالتها وقيل : أمها من الرضاعة : يا رسول الله ، إن أمى قدمت على وهي راغبة أفأصلها؟ قال : «نعم» وراغبة قيل معناه : عن الإسلام ، أو راغبة في الصلة [1].

ثم ذكر . سبحانه . بقية الوصايا التي أوصى بها لقمان ابنه فقال : ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ، أَوْ فِي السَّماواتِ ، أَوْ فِي الْأَرْضِ ، يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾ ..

والضمير في قوله : ﴿إِنَّها﴾ يعود إلى الفعلة التي يفعلها من خير أو شر. و ﴿تَكُ﴾ مجزوم بسكون النون المحذوفة ، وهو فعل الشرط. والجواب : «يأت بها الله» والمثقال : أقل ما يوزن به الشيء. والخردل : في غاية الصغر والدقة.

والمعنى : يا بنى إن ما تفعله من حسنة أو سيئة ، سواء أكان في نهاية القلة والصغر ، كمثال حبة من خردل ، أم كان هذا الشيء القليل مخبوءا في صخرة من الصخور الملقاة في فجاج الأرض ، أم كان في السموات أم في الأرض ، فإن الله . تعالى . يعلمه ويحضره ويجازى عليه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ . تعالى . لطيف خبير أى : محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، عظيمها وصغيرها.

فالمقصود من الآية الكريمة ، غرس الهيبة والخشية والمراقبة لله . تعالى : لأنه . سبحانه . لا يخفى عليه شيء في هذا الكون ، مهما دق وقل وتخفى في أعماق الأرض أو السماء.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٦٥.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ (١).

ثم أمره بالمحافظة على الصلاة وبالأمر بالمعروف ، وبالنهى عن المنكر وبالصبر على الأذى ، فقال : ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أى : واظب على أدائها في أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين.

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى بكل ما حض الشرع على قوله أو فعله ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أى : عن كل ما نهى الشرع عن قوله أو فعله.

﴿وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ﴾ من الأذى ، فإن الحياة مليئة بالشدائد والمحن والراحة إنما هي في الجنة فقط.

واسم الإشارة في قوله : ﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يعود إلى الطاعات المذكورة قبله.

وعزم الأمور : أعاليها ومكارمها. أو المراد بها ما أوجبه الله ـ تعالى ـ على الإنسان.

قال صاحب الكشاف : ﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ مما عزمه الله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب وإلزام .. ومنه الحديث : «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» ومنه عزمات الملوك ، وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده ، عزمت عليك إلا فعلت كذا. فإذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ، ولا مندوحة في تركه.

وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها في سائر الأمم ، وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها (٢).

ثم نهاه عن التكبر والغرور والتعالي على الناس فقال : ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ ...

والصعر في الأصل : مرض يصيب البعير فيجعله معوج العنق ، والمراد به هنا ، التكبر واحتقار الناس ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبّار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

أى : ولا تمل صفحة وجهك عن الناس ، ولا تتعالى عليهم كما يفعل المتكبرون والمغرورون ، بل كن هينا لينا متواضعا ، كما هو شأن العقلاء ..

﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ أى : ولا تمش في الأرض مشية المختالين المعجبين

---

(١) سورة الأنبياء. الآية ٤٧.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٩٦.

بأنفسهم. و ﴿مَرَحاً﴾ مصدر وقع موقع الحال على سبيل المبالغة ، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف. أى : تمرح مرحا. والجملة في موضع الحال. أو مفعول لأجله. أى : من أجل المرح.

وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ تعليل للنهى. والمختال : المتكبر الذي يختال في مشيته ، ومنه قولهم : فلان يمشى الخيلاء. أى يمشى مشية المغرور المعجب بنفسه.

والفخور : المتباهى على الناس بماله أو جاهه أو منصبه .. يقال فخر فلان ـ كمنع ـ فهو فاخر وفخور ، إذا تفاخر بما عنده على الناس ، على سبيل التطاول عليهم ، والتنقيص من شأنهم.

أى : إن الله ـ تعالى ـ لا يحب من كان متكبرا على الناس ، متفاخرا بماله أو جاهه.

ثم أمر بالقصد والاعتدال في كل أموره فقال : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أى وكن معتدلا في مشيك ، بحيث لا تبطئ ولا تسرع. من القصد وهو التوسط في الأمور.

﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ واخفض من صوتك فلا ترفعه إلا إذا استدعى الأمر رفعه ، فإن غض الصوت عند المحادثة فيه أدب وثقة بالنفس ، واطمئنان إلى صدق الحديث واستقامته.

وكان أهل الجاهلية يتفاخرون بجهارة الصوت وارتفاعه ، فنهى المؤمنون عن ذلك ، ومدح ـ سبحانه ـ الذين يخفضون أصواتهم في مجلس رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ، أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ تعليل للأمر بخفض الصوت ، وللنهى عن رفعه بدون موجب.

أى : إن أقبح الأصوات وأبشعها لهو صوت الحمير ، فالجملة الكريمة حض على غض الصوت بأبلغ وجه وآكده ، حيث شبه ـ سبحانه ـ الرافعين لأصواتهم في غير حاجة إلى ذلك ، بأصوات الحمير التي هي مثار السخرية مع النفور منها.

وهكذا نجد أن لقمان قد أوصى ابنه بجملة من الوصايا السامية النافعة ، فقد أمره ـ أولا ـ بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ثم غرس في قلبه الخوف من الله ـ عزوجل ـ ، ثم حضه على إقامة الصلاة ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعلى الصبر على الأذى ، ثم نهاه عن الغرور والتكبر والافتخار ، وعن رفع الصوت بدون مقتض لذلك.

وبتنفيذ هذه الوصايا ، يسعد الأفراد ، وترقى المجتمعات.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض النعم التي أنعم بها على الناس ، ودعا المنحرفين عن الحق إلى ترك المجادلة بالباطل ، وإلى مخالفة الشيطان ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾(٢١)

والخطاب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ .. لأولئك المشركين الذين استحبوا العمى على الهدى ، واشتروا لهو الحديث ليضلوا غيرهم عن طريق الحق.

وسخر : من التسخير ، بمعنى التذليل والتكليف ، يقال : سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة ، والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به.

والاستفهام لتقرير الواقع وتأكيده. أى : لقد رأيتم ـ أيها الناس ـ وشاهدتم أن الله ـ تعالى ـ سخر لمنفعتكم ومصلحتكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم .. وما في الأرض من زرع وأشجار وحيوانات وجبال .. وما دام الأمر كذلك فاشكروا الله ـ تعالى ـ على هذا التسخير ، وأخلصوا له العبادة والطاعة.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ معطوف على ما قبله.

وقوله : ﴿وَأَسْبَغَ﴾ بمعنى أتم وأكمل عليكم نعمه : وهي ما ينتفع به الإنسان ويستلذه من الحلال.

والنعمة الظاهرة : هي النعمة المشاهدة المحسوسة كنعمة السمع والبصر وحسن الهيئة والمال ، والجاه ، وما يشبه ذلك مما يراه الإنسان ويشاهده.

والنعمة الباطنة : هي النعمة الخفية التي يجد الإنسان أثرها في نفسه دون أن يراها. كنعمة الإيمان بالله ـ تعالى ـ وإسلام الوجه له ـ عزّ وجلّ ـ ، والاتجاه إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن رذائلها وسفسافها.

وفي تفسير النعم الظاهرة والباطنة أقوال أخرى ، نرى أن ما ذكرناه أوجهها وأجمعها [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما عليه بعض الناس من جدال بالباطل فقال : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَلا هُدىً ، وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾.

وقوله : ﴿يُجادِلُ﴾ من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المخاصمة والمنازعة والمغالبة. مأخوذ من جدلت الحبل ، إذا أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه.

والمراد من المجادلة في الله : المجادلة في ذاته وصفاته وتشريعاته ..

وقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل في ﴿يُجادِلُ﴾ ، وهي حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد. أى : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون في ذات الله ، وفي صفاته ، وفي وحيه ، وفي تشريعاته .. بغير مستند من علم عقلي أو نقلي ، وبغير «هدى» يهديه ويرشده إلى الحق ، وبغير ﴿كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جردت هذا المجادل ، من أى مستند يستند إليه في جداله ، سواء أكان هذا المستند عقليا أم نقليا ، بل أثبتت له الجهالة من كل الجهات.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء المجادلين بالباطل ، لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إلى رذائلهم السابقة رذائل أخرى منها العناد والتقليد الأعمى ، فقال ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ ... أى : وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ من قرآن كريم ، ومن وحى حكيم.

﴿قالُوا﴾ على سبيل العناد والتقليد الأعمى ﴿بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ من عبادة الأصنام والأوثان ، والسير على طريقتهم التي كانوا يسيرون عليها.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ رد عليهم ، وبيان لبطلان الاعتماد في العقيدة على مجرد تقليد الآباء.

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للحال. أى : أيتبعون ما كان عليه آباؤهم ، والحال أن هذا الاتباع هو من وحى الشيطان الذي يقودهم إلى ما يؤدى إلى عذاب السعير.

قال الآلوسى : وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر. وأما اتباع الغير

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٩٣.

في الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق ، فاتباع في الحقيقة لما أنزل الله ـ تعالى ـ وليس من التقليد المذموم في شيء ، وقد قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

ثم فصل سبحانه بعد ذلك حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار الذين لا يحسنون التدبر في أنفسهم ، أو فيما حولهم ، فقال تعالى ـ :

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٢٦)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى : ومن يتجه إلى الله ـ تعالى ـ ويذعن لأمره ، ويخلص له العبادة ، وهو محسن في أقواله وأفعاله.

من يفعل ذلك ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ والعروة في أصل معناها : تطلق على ما يتعلق بالشيء من عراه ، أى من الجهة التي يجب تعليقه منها. وتجمع على عرا.

والعروة من الدلو مقبضه ، ومن الثوب : مدخل زره.

والوثقى : تأنيث الأوثق ، وهو الشيء المحكم الموثق. يقال : وثق ـ بالضم ـ وثاقه ، أى : قوى وثبت فهو وثيق ، أى : ثابت محكم.

والمعنى : ومن يستسلم لأمر الله ـ تعالى ـ ويأتى بالأقوال والأفعال على وجه حسن ، فقد

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٤١.

ثبت أمره ، واستقام على الطريقة المثلى ، وأمسك من الدين بأقوى سبب ، وأحكم رباط.

فقد شبه ـ سبحانه ـ المتوكل عليه في جميع أموره ، المحسن في أفعاله ، بمن ترقى في حبل شاهق ، وتدلى منه ، فاستمسك بأوثق عروة ، من حبل متين مأمون انقطاعه.

وخص ـ سبحانه ـ الوجه بالذكر ، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة ، فإذا خضع الوجه الذي هو أكرم الأعضاء ، فغيره أكثر خضوعا.

وقوله : ﴿وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أى : وإلى الله ـ تعالى ـ وحده تصير الأمور ، وترجع إليه ، وتخضع لحكمه وإرادته.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ.﴾ .. تسلية للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، عما أصابه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم.

أى : ومن استمر ـ أيها الرسول ـ على كفره بعد أن بلغته رسالتنا ودعوتنا ، فلا يحزنك بعد ذلك بقاؤه على كفره وضلاله ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب ، وإنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا.﴾ .. بيان لسوء مصيرهم.

أى : إلينا وحدنا مرجع هؤلاء الكافرين ، فنخبرهم بما عملوه في الدنيا من أعمال سيئة ، ونجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿عَلِيمٌ﴾ علما تاما ﴿بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : بمكنونات الصدور وخفاياها ..

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ في هذه الحياة الدنيا. أى نمتعهم تمتيعا قليلا في دنياهم ، بأن نعطيهم الأموال والأولاد على سبيل الاستدراج.

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ أى نعطيهم في حياتهم القصيرة ما يتمتعون به من مال وصحة ... ثم نلجئهم وندفعهم دفعا يوم القيامة الى عذاب مروع فظيع ، لضخامة ثقله ، وشدة وقعه.

والمراد بالاضطرار : الإلجاء والقسر والإلزام ، أى : أنهم لا يستطيعون التفلت أو الانفكاك عن هذا العذاب الذي أعد لهم.

ووصف ـ سبحانه ـ العذاب بالغلظ ، لزيادة تهويله وشدته. فهو ثقيل عليهم ثقل الأجرام الضخمة التي تهوى على رأس الإنسان ، فتشل حركته وتهلكه.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان عليه هؤلاء الكافرون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أيها الرسول الكريم . ﴿مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأوجدهما على هذا النظام البديع .. ﴿لَيَقُولُنَ﴾ في الجواب ﴿اللهُ﴾ أى : الله . تعالى . هو الذي خلقهما ، وهو الذي أوجدهما.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قل . أيها الرسول الكريم . الحمد لله . تعالى . وحده ، حيث اعترفتم بأن خالقهما هو الله ، وما دام الأمر كذلك ، فكيف أشركتم معه في العبادة غيره؟ إن قولكم هذا الذي تؤيده الفطرة ، ليتنافى مع ما أنتم عليه من كفر وضلال.

وقوله . سبحانه . ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ إضراب عن أقوالهم إلى بيان واقعهم ، أى : بل أكثرهم لا يعلمون الحقائق علما سليما ، وإنما هم يقولون بألسنتهم ، وما يتباين تباينا تاما مع أفعالهم ، وهذا شأن الجاهلين ، الذين انطمست بصائرهم ..

ثم بين . سبحانه . ما يدل على عظيم قدرته ، وشمول ملكه فقال : ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾. أى : لله . تعالى . وحده ، ما في السموات وما في الأرض ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ..

﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُ﴾ عن كل ما سواه ﴿الْحَمِيدُ﴾ أى : المحمود من أهل الأرض والسماء ، لأنه هو الخالق لكل شيء ، والرازق لكل شيء.

ثم ساق . تعالى . بعد ذلك ما يدل على شمول علمه ، ونفاذ قدرته ، فقال . سبحانه . :

﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٢٨)

قال ابن كثير : قال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال . تعالى . ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ ...

وعن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أرأيت قولك : ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾؟ إيانا تريد أم قومك؟ فقال صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «كلا عنيت» فقالوا : ألست

تتلـو فيمـا جـاءك أنـا قـد أوتينـا التـوراة فيهـا تبيـان لكـل شـيء؟ فقـال ﷺ : «إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم» وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ [(1)].

و «لـو» شـرطية ، وجوابها «مـا نفـدت كلمـات الله ..» و «مـن» في قولـه ﴿مِـنْ شَجَرَةٍ﴾ للبيان ، وفي الآية الكريمة كلام محذوف يدل عليه السياق.

والمعنى : ولو أن ما في الأرض من أشجار تحولت بغصونها وفروعها إلى أقلام ، ولو أن البحر ـ أيضا ـ تحول إلى مداد لتلك الأقلام ، وأمد هذا البحر بسبعة أبحر أخرى. وكتبت بتلك الأقلام ، وبذلك المداد كلمات الله التي يحيط بها علمه ـ تعالى ـ ...

لنفدت الأقلام ، ولنفد ماء البحر ، لتناهى كل ذلك ، وما نفدت كلمات الله ـ تعالى ـ ولا معلوماته ، لعدم تناهيها.

﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ، ولا يغلبه غالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أقواله وأفعاله.

فالآية الكريمة المقصود منها بيان أن علم الله ـ تعالى ـ لا نهاية له ، وأن مشيئته لا يقف أمامها شيء ، وكلماته لا أول لها ولا آخر.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ بالإفراد ، لأن المراد تفصيل الشجر واستقصاؤه شجرة فشجرة ، حتى لا تبقى واحدة من أنواع الأشجار إلا وتحولت إلى أقلام.

وجمع ـ سبحانه ـ الأقلام ، للتكثير ، أى : أقلام كثيرة يصعب عدها.

والمـراد بـالبحر : البحـر المحيط بـالأرض ، لأنـه المتبـادر مـن التعريـف ، إذ هـو الفـرد الكامل.

وإنما ذكرت السبعة بعد ذلك على وجه المبالغة دون إرادة الحصر ، وإلا فلو اجتمعت عشرات البحار ما نفدت كلمات الله.

قال صاحب الكشاف فإن قلت : مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام ، والبحر مداد؟ قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله ﴿يَمُدُّهُ﴾ لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها. جعل البحـر الأعظـم بمنزلة الـدواة ، وجعـل الأبحـر السـبعة مملـوءة مـدادا ، فهـي تصـب فيـه مدادها أبدا صبا لا ينقطع.

فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله؟.

قلت : معناه أن كلماته لا تفي بكتابتها البحار فكيف بكلمة؟ [(2)].

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٢.

(2) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٠١.

وقال الآلوسى : والمراد بكلماته . تعالى . كلمات علمه . سبحانه . وحكمته. وقيل : المراد بها : مقدوراته وعجائب خلقه ، والتي إذا أراد . سبحانه . شيئا منها قال له : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (1).

ثم أتبع . سبحانه . ذلك بيان نفاذ قدرته فقال : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ.﴾ ... أى : ما خلقكم . أيها الناس . جميعا ، ولا بعثكم يوم القيامة ، إلا كخلق نفس واحدة أو بعثها ، لأن قدرته . عَزَّجَلَّ . يتساوى معها القليل والكثير ، والصغير والكبير ، قال . تعالى . ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقال . سبحانه . : ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ . تعالى . : ﴿سَمِيعٌ﴾ لكل شيء ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوال خلقه لا يخفى عليه شيء منهم.

ثم ذكر . سبحانه . الناس بجانب من مظاهر قدرته ونعمه عليهم ، لكي يخلصوا له العبادة والطاعة ، فقال . تعالى . :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾(٣٢)

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٠٠.

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ.﴾ .. للتقرير.

والخطاب لكل من يصلح له ليعتبر ويتعظ ، ويخلص العبادة لله ـ تعالى ..

وقوله ﴿يُولِجُ﴾ من الإيلاج بمعنى الإدخال. يقال : ولج فلان منزله ، إذا دخله ...

ثم استعير لزيادة زمان النهار في الليل وعكسه ، بحسب المطالع.

أى : لقد رأيت وشاهدت ـ أيها العاقل ـ أن الله ـ تعالى ـ ، يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل ، ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر ، على حسب مشيئته وحكمته ..

وأنه ـ سبحانه ـ ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ .. أى : ذللهما وجعلهما لمنفعة الناس ومصلحتهم ، كما جعلهما يسيران هما والليل والنهار ، بنظام بديع لا يتخلف.

وقوله : ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كل من الشمس والقمر يجريان في مدارهما بنظام ثابت محكم ، إلى الوقت الذي حدده ـ سبحانه ـ لنهاية سيرهما ، وهو يوم القيامة. قال ابن كثير : قوله : ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قيل : إلى غاية محدودة.

وقيل : إلى يوم القيامة ، وكلا المعنيين صحيح. ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر الذي في الصحيحين ، أن رسول الله ﷺ قال : «يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها ، فيوشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت» (١).

وقال الجمل : قوله : ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قاله هنا بلفظ ﴿إِلى﴾ ، وفي سورتي فاطر والزمر ، بلفظ «لأجل» ، لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهى إليه الخلق ، وهما قوله : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ.﴾ .. الآية. وقوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً﴾ .. الآية ، فناسب هنا ذكر إلى الدالة على الانتهاء ، وما في فاطر والزمر خال عن ذلك. إذ ما في فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ، وما في الزمر ذكر مع ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى يجرى كل كما ذكر لبلوغ أجل مسمى (٢).

وجملة ﴿وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ معطوفة على قوله : ﴿أَنَّ اللهَ يُولِجُ﴾ .. أى : لقد علمت أن الله ـ تعالى ـ قد فعل ذلك ، وأنه ـ سبحانه ـ خبير ومطلع على كل عمل تعملونه ـ أيها الناس ـ دون أن يخفى عليه شيء منها.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٢.

(٢) حاشية الجمل ج ٣ ص ٤٠٩.

واسم الإشارة في قوله : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ .. يعود إلى ما تقدم ذكره من إيلاج الليل في النهار ، وتسخير الشمس والقمر. وهو مبتدأ. وقوله ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُ﴾ خبره. والباء للسببية. أى : ذلك الذي فعلناه سببه ، أن الله ـ تعالى ـ هو الإله الحق ، الذي لا إله سواه ، وأن ما يدعون من دونه من آلهة أخرى هو ﴿الْباطِلُ﴾ الذي لا يصح أن يسمى بهذا الاسم ، لأنه مخلوق زائل متغير ، لا يضر ولا ينفع.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الناس بنعمة أخرى من نعمه التي لا تحصى فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ﴾ ...

أى : ولقد علمت ـ أيضا ـ وشاهدت ـ أيها العاقل ـ حال السفن ، وهي تجرى في البحر ، بمشيئة الله وقدرته ، وبلطفه ورحمته وإحسانه. ليطلعكم على بعض آياته الدالة على باهر قدرته ، وسمو حكمته وسابغ نعمته.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الذي شاهدتموه وانتفعتم به من السفن وغيرها ﴿لَآياتٍ﴾ واضحات على قدرة الله ـ تعالى ـ ورحمته لعباده ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى : لكل إنسان كثير الصبر ﴿شَكُورٍ﴾. أى : كثير الشكر لله ـ تعالى ـ على نعمه ورحمته.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أحوال الناس عند ما تحيط بهم المصائب وهم في وسط البحر فقال : ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وقوله ﴿غَشِيَهُمْ﴾ من الغشاء بمعنى : الغطاء. فيقال : غشى الظلام المكان ، إذا حل به وأصل «الموج» الحركة والازدحام. ومنه قولهم : ماج البحر إذا اضطرب وارتفع ماؤه. والظلل : جمع ظلة ـ كغرفة وغرف ـ ، وهي ما أظل غيره من سحاب أو جبل أو غيرهما.

أى : وإذا ما ركب الناس في السفن ، وأحاطت بهم الأمواج من كل جانب ، وأوشكت أن تعلوهم وتغطيهم ... في تلك الحالة لجئوا إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، يدعونه بإخلاص وطاعة وتضرع ، أن ينجيهم مما هم فيه من بلاء ..

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ ـ سبحانه ـ بفضله وإحسانه ، وأوصلهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ انقسموا إلى قسمين ، أما القسم الأول ، فقد عبر عنه ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ أى : فمنهم من هو مقتصد ، أى : متوسط في عبادته وطاعته ، يعيش حياته بين الخوف والرجاء.

قال ابن كثير : قال ابن زيد : هو المتوسط في العمل ، ثم قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ، فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ﴾ فالمقتصد هاهنا هو المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مرادا هنا ـ أيضا ـ ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك

الأهوال ، والأمور العظام ، والآيات الباهرات في البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرا ، والحالة هذه [1].

وأما القسم الثاني فقد عبر عنه ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

والختار : من الختر ، وهو أبشع وأقبح الغدر والخديعة. يقال : فلان خاتر وختار وختير ، إذا كان شديد الغدر والنقض لعهوده ، ومنه قول الشاعر :

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

والكفور : هو الشديد الكفران والجحود لنعم الله ـ تعالى ..

أى : وما يجحد بآياتنا الدالة على قدرتنا ورحمتنا ، إلا من كان كثير النقض لعهودنا ، شديد النكران لنعمنا.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بدعوة الناس إلا الاستعداد ليوم الحساب وإلى مراقبة الله ـ تعالى ـ في كل أحوالهم ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء منها. فقال :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣٤)

والمعنى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بأن تطيعوه ولا تعصوه ، وبأن تشكروه ولا تكفروه ، واخشوا يوما ، أى : وخافوا أهوال يوم عظيم.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٣.

﴿لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أى : لا يستطيع والد أن ينفع ولده بشيء من النفع في هذا اليوم. أو أن يقضى عنه شيئا من الأشياء.

﴿وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً﴾ أى : ولا يستطيع المولود ـ أيضا ـ أن يدفع عن والده شيئا مما يحتاجه منه.

وخص ـ سبحانه ـ الوالد والمولود بالذكر ، لأن رابطة المحبة والمودة بينهما هي أقوى الروابط وأوثقها ، فإذا انتفى النفع بينهما في هذا اليوم ، كان انتفاؤه بالنسبة لغيرهما من باب أولى.

وقوله : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أى : إن ما وعد الله ـ تعالى ـ به عباده من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق وثابت ثبوتا لا يقبل الشك أو التخلف.

وما دام الأمر كذلك ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أى : فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها وشهواتها ومتعها ، ولا تشغلنكم عن طاعة الله ـ تعالى ـ وعن حسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد. فإن الكيّس الفطن هو الذي يتزود لهذا اليوم بالإيمان الحق ، والعمل الصالح النافع.

﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ أى : ولا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله ، وعن امتثال أمره. فالمراد بالغرور : الشيطان. أو كل ما يصرفك عن طاعة الله ـ تعالى.

قال الآلوسى : ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ أى : الشيطان ، كما روى عن ابن عباس وغيره. بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم ... وعن أبى عبيدة : كل شيء غرك حتى تعصى الله ـ تعالى ـ فهو غرور سواء أكان شيطانا أم غيره وعلى ذلك ذهب الراغب فقال : الغرور كل ما يغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان .. وأصل الغرور : من غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته ، أى : غفلته ، ونال منه ما يريد. والمراد به الخداع ..

والظاهر أن «بالله» صلة «يغرنكم» أى : لا يخدعنكم بذكر شيء من شئونه ـ تعالى ـ ، يجركم بها على معاصيه ـ سبحانه ـ [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من الأمور التي استأثر ـ عزوجل ـ بعلمها فقال : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى : عنده وحده علم وقتها ، وعلم قيامها ، كما قال ـ تعالى ـ :

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٠٨.

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها ، قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ﴾ ..[(١)].

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أى : وينزل بقدرته المطر ، ويعلم وحده وقت نزوله. ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ﴾ أى : ويعلم ما في أرحام الأمهات من ذكر أو أنثى.

﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ﴾ من النفوس كائنة من كانت ﴿ما ذا تَكْسِبُ غَداً﴾ من خير أو شر ، ومن رزق قليل أو كثير ، لأنها لا تملك عمرها إلى الغد.

﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ﴾ من النفوس ـ أيضا ـ كائنة من كانت ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أى : بأى مكان ينتهى أجلها.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يجرى في نفوس عباده. وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار ، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ هذه الآية» ..

وعن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال للنبي ﷺ : «إن امرأتي حبلى فأخبرنى ما تلد؟ وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت؟ فأنزل الله الآية» [(٢)].

وهذه الأمور الخمسة من الأمور التي استأثر الله ـ تعالى ـ بها على سبيل العلم اليقيني الشامل المطابق للواقع ..

ولا مانع من أن يطلع الله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه ، بعض أصفيائه على شيء منها.

وليست المغيبات محصورة في هذه الخمسة ، بل كل غيب لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ داخل فيما استأثر الله ـ تعالى ـ بعلمه ، وإنما خصت هذه الخمسة بالذكر لأنها من أهم المغيبات ، أو لأن السؤال كان عنها.

وما يخبر به المنجم والطبيب وعلماء الأرصاد الجوية من الأمور التي لم تتكشف بعد ، فمبناه على الظن لا على اليقين ، وعلى احتمال الخطأ والصواب.

أما علم الله ـ تعالى ـ بهذه الأمور وغيرها ، فهو علم يقيني قطعى شامل. لا يحتمل الظن أو الشك أو الخطأ.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٧.

وصدق الله إذ يقول : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ ، وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة «لقمان» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة ـ مدينة نصر

# تفسير

## سورة السّجدة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

## مقدّمة

١ ـ سورة «السجدة» هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة «المؤمنون» ، أى : أنها من أواخر السور المكية.

قال الآلوسى ما ملخصه : وتسمى ـ أيضا ـ بسورة «المضاجع». وهي مكية ، كما روى عن ابن عباس.

وروى عنه أنها مكية سوى ثلاث آيات ، تبدأ بقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً.﴾ .. وهي تسع وعشرون آية في البصري. وثلاثون آية في المصاحف الباقية ...» [١].

ومن فضائل هذه السورة ما رواه الشيخان عن أبي هريرة قال : كان النبي ـ ﷺ ـ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الم. تَنْزِيلُ.﴾ .. السجدة. و ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ.﴾ ...

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : «كان النبي ـ ﷺ ـ لا ينام حتى يقرأ هذه السورة ، وسورة تبارك» [٢].

٢ ـ وتبدأ هذه السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان أنه من عند الله ـ تعالى ـ ، وبالرد على الذين زعموا أن الرسول ـ ﷺ ـ قد افتراه من عند نفسه ...

ثم تسوق ألوانا من نعم الله ـ تعالى ـ على عباده ، ومن مظاهر قدرته ، وبديع خلقه ، وشمول إرادته ، وإحسانه لكل شيء خلقه ﴿ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾.

٣ ـ ثم تذكر السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من شبهات المشركين حول البعث والحساب ، وترد عليها بما يبطلها ، وتصور أحوالهم عند ما يقفون أمام خالقهم للحساب تصويرا مؤثرا مرعبا قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا ، فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١١٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٦٣.

٤ . وبعد أن تذكر السورة الكريمة ما أعده الله . تعالى . للمؤمنين من ثواب لا تعلمه نفس من الأنفس ، وما أعده للكافرين من عقاب .. بعد كل ذلك تبين أن عدالته . تعالى . قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار وإنما يجازى كل إنسان على حسب عمله.

قال . تعالى . : ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً ، لا يَسْتَوُونَ﴾.

٥ . ثم تشير السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله . تعالى . لنبيه موسى . عليه السلام . من نعم ، وما منحه للصالحين من قومه من منن ، لكي يتأسى بهم المؤمنون ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ ، وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ. وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ﴾.

٦ . ثم حضت السورة الكريمة المشركين على التدبر والتفكر في آيات الله . تعالى . ، ونهتهم عن الجحود والعناد ، وحكت جانبا من سفاهاتهم ، وأمرت النبي صلى الله عليه وسلم بأن يرد عليهم ، وأن يمضى في طريقه دون أن يعير سفاهاتهم اهتماما.

قال . تعالى . : ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾.

٧ . وبعد فهذا عرض إجمالى لسورة «السجدة» ومنه نرى أنها زاخرة بالأدلة على وحدانية الله . تعالى . وقدرته ، وعلى أن القرآن حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق ..

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**كتبه الراجي عفو ربه**

**د. محمد سيد طنطاوى**

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ (٩)

سورة السجدة من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء في ذلك بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسورة : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ...

وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن.

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك الكافرين المعارضين في أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظوما من حروف ، وهي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم.

فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله ...

ومع كل هذا التساهل في التحدي. فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت بذلك أن القرآن من عند الله ـ تعالى ـ وحده.

وقوله ـ تعالى ـ : (تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) بيان لمصدر القرآن الكريم وأنه لا شك في كونه من عند الله ـ عزّ وجلّ ـ.

وقوله : (تَنْزِيلُ الْكِتابِ) مبتدأ. وخبره (مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) وجملة (لا رَيْبَ فِيهِ) معترضة بينهما ، أو حال من الكتاب .. (1).

أى : تنزيل هذا الكتاب عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ كائن من رب العالمين ، وهذا أمر لا شك فيه ، ولا يخالطه ريب أو تردد عند كل عاقل.

وعجل ـ سبحانه ـ بنفي الريب ، حيث جعله بين المبتدأ والخبر ، لبيان أن هذه القضية ليست محلا للشك أو الريب ، وأن كل منصف يعلم أن هذا القرآن من رب العالمين.

و «أم» في قوله ـ تعالى ـ : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ) هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة. والاستفهام للتعجيب من قولهم وإنكاره.

والافتراء : الاختلاق. يقال : فلان افترى الكذب ، أى : اختلقه. وأصله من الفري بمعنى قطع الجلد ، وأكثر ما يكون للإفساد.

والمعنى : بل أيقول هؤلاء المشركون ، إن محمدا صلّى الله عليه وسلّم ، قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه ...؟

---

(1) راجع حاشية الجمل ج 3 ص 412.

وقوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ رد على أقوالهم الباطلة.

أى : لا تستمع ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى أقاويلهم الفاسدة ، فإن هذا القرآن هو الحق الصادر إليك من ربك ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ..

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة في إرساله ﷺ وفي إنزال القرآن عليه فقال : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والإنذار : هو التخويف من ارتكاب شيء تسوء عاقبته. و «ما» نافية. و «نذير» فاعل «أتاهم» و «من» مزيدة للتأكيد.

أى : هذا القرآن ـ يا محمد ـ هو معجزتك الكبرى ، وقد أنزلناه إليك لتنذر قوما لم يأتهم نذير من قبلك بما جئتهم به من هدايات وإرشادات وآداب.

وقد فعلنا ذلك رجاء أن يهتدوا إلى الصراط المستقيم ، ويستقبلوا دعوتك بالطاعة والاستجابة لما تدعوهم إليه.

ولا يقال : إن إسماعيل ـ عليه السلام ـ قد أرسل إلى آباء هؤلاء العرب الذين أرسل الرسول ﷺ إليهم ، لأن رسالة إسماعيل قد اندرست بطول الزمن ، ولم ينقلها الخلف عن السلف ، فكانت رسالة الرسول ﷺ إلى قومه ، جديدة في منهجها وأحكامها وتشريعاتها.

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على ذاته ، بما يستحقه من إجلال وتعظيم وتقديس فقال : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.﴾ ...

والأيام جمع يوم ، واليوم في اللغة : مطلق الوقت ، أى : في ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله ـ تعالى ـ ..

وهو ـ سبحانه ـ قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما في لمحة أو لحظة ، ولكنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خلقهن في تلك الأوقات ، لكي يعلم عباده التأنى والتثبت في الأمور.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال الحسن : من أيام الدنيا. وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة ، التي خلق الله فيها السموات والأرض ، مقداره ألف سنة من سنى الدنيا .. (١).

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وليست هذه الأيام من أيام هذه الأرض التي نعرفها ، إذ

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٨٦.

أيام هذه الأرض ، مقياس زمني ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلا ونهارا على هذه الأرض .. وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة. أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في القرآن ، فعلمها عند الله. ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها ، فهي من أيام الله التي يقول عنها : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إشارة إلى استعلائه وهيمنته على شئون خلقه.

وقال بعض العلماء : وعرش الله ـ تعالى ـ مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم .. وقد ذكر في إحدى وعشرين آية. وذكر الاستواء على العرش في سبع آيات.

أما الاستواء على العرش ، فذهب سلف الأمة ، إلى أنه صفة الله ـ تعالى ـ بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه ـ سبحانه ـ بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه ـ تعالى ..

قال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة.

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات ، من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الإمام الرازي : إن هذا المذهب هو الذي نقول به ونختاره ونعتمد عليه ..» (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى : ليس لكم ـ أيها الناس ـ إذا تجاوزتم حدوده ـ عزّ وجلّ ـ ﴿مِنْ وَلِيٍ﴾ أى : من ناصر ينصركم إن أراد عقابكم ، ﴿وَلا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم عنده لكي يعفو عنكم ، أفلا تعقلون هذه المعاني الواضحة ، وتسمعون هذه المواعظ البليغة ، التي من شأنها أن تحملكم على التذكر والاعتبار والطاعة التامة لله رب العالمين.

فالآية الكريمة جمعت في توجيهاتها الحكيمة ، بين مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ، وبين الترهيب من معصيته ومخالفة أمره ، وبين الحض على التذكر والاعتبار.

---

(١) في ظلال القرآن ج ٢١ ص ٥١٠.

(٢) راجع تفسير صفوة البيان ص ٢٦٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى ما سبق أن وصف به ذاته ، صفات أخرى تليق بجلاله ، فقال : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿يُدَبِّرُ﴾ من التدبير بمعنى الإحكام والإتقان ، والمراد به هنا : إيجاد الأشياء على هذا النحو البديع الحكيم الذي نشاهده ، وأصل التدبير : النظر في أعقاب الأمور محمودة العاقبة.

وقوله : ﴿يَعْرُجُ﴾ من العروج بمعنى الصعود والارتفاع والصيرورة إليه ـ تعالى ..

والضمير في «إليه» يعود إلى الأمر الذي دبره وأحكمه ـ سبحانه ..

أى : أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يحكم شئون الدنيا السماوية والأرضية إلى أن تقوم الساعة ، وهو الذي يجعلها على تلك الصورة البديعة المتقنة ، ثم تصعد إليه ـ تعالى ـ تلك الأمور والشئون المدبرة ، في يوم ، عظيم هو يوم القيامة ﴿كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام الدنيا.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلقان بقوله : ﴿يُدَبِّرُ﴾ ومن ابتدائية ، وإلى انتهائية. أى : يريده ـ تعالى ـ على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة ، منزلا له من السماء إلى الأرض. وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه ، فإن أسبابه سماوية من الملائكة وغيرهم.

وقوله ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أى : ذلك الأمر بعد تدبيره. وهذا العروج مجاز عن ثبوته في علمه .. أو عن كتابته في صحف الملائكة بأمره ـ تعالى ـ [1].

وقال بعض العلماء : وقد ذكر ـ سبحانه ـ هنا أنه ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. وذكر في سورة الحج ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. وذكر في سورة المعارج ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ والجمع بين هذه الآيات من وجهين :

الأول : ما جاء عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. ويوم الألف في سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه ـ تعالى ـ ، ويوم الخمسين ألفا ـ في سورة المعارج ـ هو يوم القيامة.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٢٠.

الثاني : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ويدل لهذا الوجه قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ، عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [1].

أى : أن يوم القيامة يتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل في حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل في حالة أخرى خمسين ألف سنة.

واسم الإشارة في قوله ﴿ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يعود إلى الله ـ تعالى ـ ، وهو مبتدأ ، وما بعده أخبار له ـ عزّ وجلّ ـ.

أى : ذلك الذي اتصف بتلك الصفات الجليلة ، وفعل تلك الأفعال المتقنة الحكيمة ، هو الله ـ تعالى ـ ، ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ أى : عالم كل ما غاب عن الحس ، وكل ما هو مشاهد له ، لا يخفى عليه شيء مما ظهر أو بطن ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه غالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أى : الذي أحكم وأتقن كل شيء خلقه وأوجده في هذا الكون ، لأنه ـ سبحانه ـ أوجده على النحو الذي تقتضيه حكمته ، وتستدعيه مصلحة عباده.

قال الشوكانى : وقرأ الجمهور ﴿خَلَقَهُ﴾ ـ بفتح اللام ـ على أنه فعل ماض صفة لشيء ، فهو في محل جر. أو صفة للمضاف فيكون في محل نصب.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ابن عامر : ﴿خَلْقَهُ﴾ ـ بسكون اللام ـ وفي نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلا من ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بدل اشتمال ، والضمير عائد على كل شيء ، وهذا هو المشهور ... [2].

والمراد بالإنسان في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾ آدم ـ عليه‌السلام ـ ، أى وبدأ خلق أبيكم آدم من طين ، فصار على أحسن صورة ، وأبدع شكل ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أى : ذريته ، وسميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه.

﴿مِنْ سُلالَةٍ﴾ أى : من خلاصة ، وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية.

﴿مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ أى : ممتهن لا يهتم بشأنه ، ولا يعتنى به ، والمقصود به : المنى الذي يخرج من الرجل.

---

(١) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٥٠٣ للشيخ الأمين الشنقيطى.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٦ ص ٢٤٩.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أى : هذا المخلوق الذي أوجده من طين ، أو من ماء مهين. والمراد : ثم عدل خلقه ، وسوى شكله ، وناسب بين أعضائه ، وأتمه في أحسن صورة ...

﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿مِنْ رُوحِهِ﴾ أى : من قدرته ورحمته ، التي صار بها هذا الإنسان إنسانا كاملا في أحسن تقويم.

وإضافة الروح إليه ـ تعالى ـ للتشريف والتكريم لهذا المخلوق ، كما في قولهم بيت الله.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ بعد ذلك ﴿السَّمْعَ﴾ الذي تسمعون به ﴿وَالْأَبْصارَ﴾ التي تبصرون بها ، ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ التي تعقلون بها ، وتحسون الأشياء بواسطتها.

وقوله : ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ بيان لموقف بنى آدم من هذه النعم المتكاثرة والمتنوعة. ولفظ «قليلا» منصوب على أنه صفة لمحذوف وقع معمولا لتشكرون.

أى : شكرا قليلا تشكرون ، أو زمانا قليلا تشكرون.

وهكذا بنو آدم ـ إلا من عصم الله ـ ، أوجدهم الله ـ تعالى ـ بقدرته ، وسخر لمنفعتهم ومصلحتهم ما سخر من مخلوقات ، وصانهم في كل مراحل خلقهم بأنواع من الصيانة والحفظ ... ومع ذلك فقليل منهم هم الذين يشكرونه ـ عزّ وجلّ ـ على نعمه. وصدق ـ سبحانه ـ حيث يقول : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾.

ثم حكى ـ سبحانه ـ شبهات المشركين ورد عليها ، وصور أحوالهم الأليمة عند ما تقبض الملائكة أرواحهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ

مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١٤)

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا قول منكري البعث أى : هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا. وأصله من قول العرب : ضل الماء في اللبن إذا ذهب. والعرب تقول للشيء غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضل ..» [1].

أى : وقال الكافرون على سبيل الإنكار ليوم القيامة وما فيه من حساب أإذا صارت أجسادنا كالتراب واختلطت به ، أنعاد إلى الحياة مرة أخرى ، ونخلق خلقا جديدا ...؟

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾ إضراب وانتقال من حكاية كفرهم بالبعث والحساب إلى حكاية ما هو أشنع من ذلك وهو كفرهم بلقاء الله ـ تعالى ـ الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ... أى : بل هم لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجهل عليهم ، بلقاء ربهم يوم القيامة ، كافرون جاحدون ، لأنهم قد استبعدوا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، مع أن الله ـ تعالى ـ قد أوجدهم ولم يكونوا شيئا مذكورا.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن مردهم إليه لا محالة بعد أن يقبض ملك الموت أرواحهم فقال : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

وقوله ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ من التوفي. وأصله أخذ الشيء وافيا تاما. يقال : توفاه الله ، أى : استوفى روحه وقبضها ، وتوفيت مالي بمعنى استوفيته والمراد بملك الموت : عزرائيل.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ في الرد على هؤلاء الجاحدين : سيتولى قبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم ملك الموت الذي كلفه الله ـ تعالى ـ بذلك ثم إلى ربكم ترجعون ، فيجازيكم بما تستحقونه من عقاب ، بسبب كفركم وجحودكم.

وأسند ـ سبحانه ـ هنا التوفي إلى ملك الموت ، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح. وأسنده إلى الملائكة في قوله ـ تعالى ـ ﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ لأنهم أعوان ملك الموت الذين كلفهم الله بذلك.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٩١.

وأسنده ـ سبحانه ـ إلى ذاته في قوله : ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ لأن كل شيء كائنا ما كان ، لا يكون إلا بقضائه وقدره.

ثم صور ـ سبحانه ـ أحوال هؤلاء الكافرين ، عند ما يقفون للحساب ، تصويرا مرعبا مخيفا فقال : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

وجواب «لو» محذوف ، والتقدير : لرأيت شيئا تقشعر من هوله الأبدان.

وقوله : ﴿ناكِسُوا﴾ من النكس ، وهو قلب الشيء على رأسه كالتنكيس .. وفعله من باب نصر ـ والخطاب يصح أن يكون للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم أو لكل من يصلح له.

أى : ولو ترى ـ أيها الرسول الكريم ـ حال أولئك المجرمين الذين أنكروا البعث والجزاء ، وهم يقفون أمام خالقهم بذلة وخزي ، لحسابهم على أعمالهم .. لو ترى ذلك لرأيت شيئا ترتعد له الفرائص ، وتهتز منه القلوب.

وقوله : ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ حكاية لما يقولونه في هذا الموقف العصيب. أى : يقولون بذلة وندم : يا ربنا نحن الآن نبصر مصيرنا ، ونسمع قولك ونندم على ما كنا فيه من كفر وضلال ، ﴿فَارْجِعْنا﴾ إلى الدنيا ، لكي ﴿نَعْمَلْ﴾ عملا ﴿صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق ، وأن البعث حق. وأن الجزاء حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق.

ولكن هذا الإيقان والاعتراف منهم ، قد جاء في غير أوانه ، ولذا لا يقبله ـ سبحانه ـ منهم ، ولذا عقب ـ سبحانه ـ على ما قالوه بقوله : ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها.﴾ ...

أى : ولو شئنا أن نؤتى كل نفس رشدها وهداها وتوفيقها إلى الإيمان ، لفعلنا ، لأن إرادتنا نافذة ، وقدرتنا لا يعجزها شيء.

﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أى : ولكن ثبت وتحقق قولي.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ أى من الجن وسموا بذلك لاستتارهم عن الأنظار.

ومن ﴿النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا.

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن قدرة الله ـ تعالى ـ لا يعجزها شيء ، إلا أن حكمته ـ سبحانه ـ قد اقتضت أن الذين سبق في علمه أنهم يؤثرون الضلالة على الهداية ، لسوء استعدادهم ، يكون مصيرهم إلى النار ، وأما الذين آثروا الهداية على الضلالة لنقاء نفوسهم ، وكمال استعدادهم ، فيكون مصيرهم إلى جنة عرضها السموات والأرض.

كما أن حكمته ـ سبحانه ـ قد اقتضت أن يميز الإنسان على غيره ، بأن يجعل له طبيعة

خاصة يملك معها اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال. كما قال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ ، إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يقال لهؤلاء المجرمين عند ما يلقى بهم في جهنم فقال ـ تعالى ـ : ﴿فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ ، وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والذوق حقيقة إدراك المطعومات. والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه. والتعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم بهم.

والفاء في قوله : ﴿فَذُوقُوا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله والباء للسببية. والمراد بالنسيان لازمه ، وهو الترك والإهمال.

أى : ويقال لهؤلاء المجرمين عند ما يلقى بهم في النار : ذوقوا لهيبها وسعيرها بسبب نسيانكم وإهمالكم وجحودكم ليوم القيامة وما فيه من حساب. وإننا من جانبنا قد أهملناكم وتركناكم. بسبب إصراركم على كفركم ، وذوقوا العذاب الذي أنتم مخلدون فيه بسبب أعمالكم القبيحة في الدنيا «جزاء وفاقا».

وكرر ـ سبحانه ـ لفظ ﴿فَذُوقُوا﴾ على سبيل التأكيد ، وزيادة التقريع والتأنيب.

ثم تترك السورة الكريمة هؤلاء المجرمين يذوقون العذاب ، وتنتقل إلى الحديث عن مشهد آخر ، عن مشهد يشرح النفوس ، ويبهج القلوب ، إنه مشهد المؤمنين الصادقين ، وما أعد الله ـ تعالى ـ من ثواب قال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١٧)

أى : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، أصحاب النفوس النقية الصافية ، الذين إذ ذكروا بها ، أى : بهذه الآيات.

﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ لله . تعالى . من غير تردد ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أى : ونزهوه عن كل ما لا يليق به . عزّ وجلّ . ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن طاعته . سبحانه . ، وعن الانقياد لأمره ونهيه.

ثم صور . سبحانه . أحوالهم في عبادتهم وتقربهم إلى الله ، تصويرا بديعا فقال : ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾.

والتجافي : التحرك إلى جهة أعلى. وأصله من جفا فلان السرج عن فرسه ، إذا رفعه. ويقال تجافى فلان عن مكانه ، إذا انتقل عنه.

والجنوب : جمع جنب. وأصله الجارحة ، والمراد به الشخص.

والمضاجع : جمع مضجع ، وهو مكان الاتكاء للنوم.

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الصادقين ، تتنحى وترتفع أجسامهم ، عن أماكن نومهم ، وراحتهم ، حالة كونهم يدعون ربهم بإخلاص وإنابة ﴿خَوْفاً﴾ من سخطه عليهم ، ﴿وَطَمَعاً﴾ في رضاه عنهم.

﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ﴾ من فضلنا وخيرنا ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في وجوه البر والخير.

وقوله . سبحانه . : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ.﴾ .. بيان للعطاء الجزيل ، والثواب العظيم. أى : فلا تعلم نفس من النفوس سواء أكانت لملك مقرب ، أم لنبي مرسل ، ما أخفاه الله . تعالى . لهؤلاء المؤمنين المتهجدين بالليل والناس نيام ، من ثواب تقر به أعينهم ، وتسعد به قلوبهم ، وتبتهج له نفوسهم ..

وهذا العطاء الجزيل إنما هو بسبب أعمالهم الصالحة في الدنيا.

وهكذا نرى في هذه الآيات الكريمة صورة مشرقة لعباد الله الصالحين ، وللثواب الذي لا تحيط به عبارة ، والذي أكرمهم الله . تعالى . به.

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، عددا من الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل ، منها ما رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل . رضى الله عنه . قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه. ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله ، أخبرنى بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني من النار. فقال : «لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير

على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت. ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين ، ثم قرأ ﷺ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ...» وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع».

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ إن الله ـ تعالى ـ قال : «أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن عدالته قد اقتضت عدم التسوية بين الأخيار والأشرار ، وأن كل إنسان إنما يجازى يوم القيامة على حسب عمله فقال ـ تعالى ـ..

﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾(٢٢)

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٥.

والاستفهام في قوله : ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً﴾ .. للإنكار ، والفسوق : الخروج عن طاعة الله.

أى : أفمن كان في هذه الدنيا مؤمنا بالله حق الإيمان ، كمن كان فيها فاسقا وخارجا عن طاعة الله ـ تعالى ـ وعن دينه الذي ارتضاه لعباده؟

كلا ، إنهم لا يستوون لا في سلوكهم وأعمالهم ، ولا في جزائهم الدنيوي أو الأخروى.

وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت في شأن الوليد بن عقبة ، وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، حيث قال الوليد لعلى : أنا أبسط منك لسانا ، وأحد سنانا ، وأملأ في الكتيبة جسدا ، فقال له على : اسكت ، فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية [1].

ثم فصل ـ سبحانه ـ حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الفاسقين ، فقال : ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله حق الإيمان ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحاتِ﴾.

﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى﴾ أى : فلهم الجنات التي يأوون إليها ، ويسكنون فيها ﴿نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والنزل : أصله ما يهيّأ للضيف النازل من الطعام والشراب والصلة ، ثم عمم في كل عطاء. أى : فلهم جنات المأوى ينزلون فيها نزولا مصحوبا بالتكريم والتشريف جزاء أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أى : خرجوا عن طاعتنا ، وعن دعوة رسولنا ﷺ ﴿فَمَأْواهُمُ النَّارُ﴾ أى : فمنزلتهم ومسكنهم ومستقرهم النار وبئس القرار.

﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها﴾ هربا من لهيبها وسعيرها وعذابها.

﴿أُعِيدُوا فِيها﴾ مرغمين مكرهين ، وردوا إليها مهانين مستذلين.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ على سبيل الزجر والتأنيب وزيادة الحسرة في قلوبهم.

﴿ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا ، وتستهزءون بمن ينذركم به ، ويخوفكم منه.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى﴾ أى الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا ، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة.

﴿دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ﴾ أى : الأشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب الآخرة.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٠٤.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال من يدعى إلى الهدى فيعرض عنه ، فقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها﴾.

أى : لا أحد أشد ظلما وكفرا ممن ذكره المذكر بالآيات الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى أن دين الإسلام هو الحق ، ثم أعرض عنها جحودا وعنادا.

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ أى : إنّا من أهل الإجرام والجحود لآياتنا منتقمون انتقاما يذلهم ويهينهم.

قال صاحب الكشاف : «ثم» في قوله ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها﴾ للاستبعاد.

والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله ، في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل. كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها ، استبعادا لتركه الانتهاز. ومنه «ثم» في بيت الحماسة :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة　　　يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها.

فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ، ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دل على إصابة الأظلم بالنصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الإفادة [1].

ثم أشارت السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لنبيه موسى ـ عليه‌السلام ـ من نعم. وما منحه للصالحين من قومه من منن ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥١٥.

بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٢٥)

والمراد بالكتاب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾ التوراة التي أنزلها ـ سبحانه ـ لتكون هداية لبنى إسرائيل.

قالوا : وإنما ذكر موسى لقربه من النبي ﷺ ووجود من كان على دينه إلزاما لهم. إنما لم يختر عيسى ـ عليه السلام ـ للذكر وللاستدلال ، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى ـ عليه السلام ـ [1].

والضمير المجرور في قوله : ﴿فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ﴾ يعود إلى موسى على أرجح الأقوال ـ أو إلى الكتاب.

أى : آتينا موسى الكتاب فلا تكن ـ أيها الرسول الكريم ـ في مرية أو شك من لقاء موسى للكتاب الذي أوحيناه إليه ، بقبول ورضا وتحمل لتكاليف الدعوة به ، فكن مثله في لك ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك دون أن تخشى أحدا سواه.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾ أى : جنس الكتاب ﴿فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أى : شك ﴿مِنْ لِقائِهِ﴾ أى : من لقائك ذلك الجنس.

وحمل بعضهم ﴿الْكِتابَ﴾ على العهد ، أى الكتاب المعهود وهو التوراة.

ونهيه ﷺ عن أن يكون في شك ، المقصود به أمته ، والتعريض بمن اتصف بذلك.

وقيل الكتاب ، المراد به التوراة ، وضمير ، لقائه ، عائد إليه من غير تقدير مضاف. ولقاء مصدر مضاف إلى مفعوله ، وفاعله موسى ، أى : فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب ، ومضاف إلى فاعله ، ومفعوله موسى. أى : من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه .. [2].

وهذا الرأى الأخير الذي عبر عنه الآلوسى ـ رحمه الله ـ بقوله «وقيل» وهو في رأينا رجح الآراء ، وأقربها إلى الصواب ، لبعده عن التكلف.

قال الجمل في حاشيته ، بعد أن ساق ستة أقوال في عودة الضمير في قوله ﴿مِنْ لِقائِهِ﴾ : وأظهرها أن الضمير إما لموسى وإما للكتاب. أى : لا ترتب في أن موسى لقى الكتاب أنزل عليه» [3].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤١٩.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٣٧.

(٣) حاشية الجمل ج ٣ ص ٤١٩.

قال صاحب الكشاف : والضمير في «لقائه» له ـ أى لموسى ـ ، ومعناه : إنا آتينا موسى ـ عليه السلام ـ مثل ما آتيناك من الكتب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ، ولقيت نظيره كقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ ، فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أى : وجعلنا الكتاب الذي أنزلناه على نبينا موسى ـ عليه السلام ـ هداية لبنى إسرائيل إلى طريق الحق والسداد.

﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا﴾ والأئمة : جمع إمام ، وهو من يقتدى به في الأمور المختلفة. والمراد بهم هنا : من يقتدى بهم في وجوه الخير والبر.

أى : وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة في الخير والصلاح ، يهدون غيرهم إلى الطريق الحق ، بأمرنا وإرادتنا وفضلنا ، وقد وفقناهم لذلك حين صبروا على أداء ما كلفناهم به من عبادات ، وحين تحملوا الشدائد والمحن في سبيل إعلاء كلمتنا.

وأنت ترى أن جعلهم أئمة في الخير لم يكن اعتباطا ، وإنما كان بسبب صبرهم على الأذى ، وعلى مشاق الدعوة إلى الحق ، وعلى كل أمر يستلزم الصبر وحبس النفس.

وفي ذلك إرشاد وتعليم للمسلمين ، بأن يسلكوا طريق الأئمة الصالحين ، ممن كانوا قبلهم ، وأن يبلغوا دعوة الله إلى غيرهم بصبر ويقين.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ﴾ زيادة في مدحهم ، وفي تقرير أنهم أهل للإمامة في الخير. أى : وكانوا بسبب إدراكهم السليم لمعانى آياتنا : يوقنون إيقانا جازما بأنهم على الحق الذي لا يحوم حوله باطل وبأنهم متبعون لشريعة الله ـ تعالى ـ التي لا يضل من اتبعها وسار على نهجها.

ثم أشار ـ سبحانه ـ إلى أن بنى إسرائيل جميعا لم يكونوا كذلك ، وإنما كان منهم الأخيار والأشرار ، وأنه ـ تعالى ـ سيحكم بين الجميع يوم القيامة بحكمه العادل ، فقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أى : إن ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ هو وحده الذي يتولى القضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمور متنوعة. على رأسها ما يتعلق بالأمور الدينية.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥١٦.

ثم يسوق ـ سبحانه ـ في أواخر السورة ما من شأنه أن يهدى الضالين إلى الصراط المستقيم، وما يرشدهم إلى مظاهر نعمه عليهم، وما يزيد النبي ﷺ ثباتا على ثباته، ويقينا على يقينه، فيقول ـ عزّ وجلّ ـ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾(٣٠)

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا.﴾ .. لإنكار عدم اهتدائهم إلى ما ينفعهم مع وضوح أسباب هذا الاهتداء. والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام. والخطاب للمشركين وعلى رأسهم كفار مكة. و «كم» خبرية بمعنى كثير. في محل نصب لأهلكنا.

والمعنى: أغفل هؤلاء المشركون عما أصاب الظالمين من قبلهم، ولم يتبين لهم ـ لانطماس بصائرهم ـ أننا قد أهلكنا كثيرا من أهل الأزمان السابقة من قبلهم، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، وإيثارهم الكفر على الإيمان.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾، لتسجيل أقصى أنواع الجهالة والعناد عليهم. أى: أبلغ بهم الجهل والعناد أنهم لم يعتبروا بالقرون المهلكة من قبلهم، مع أنهم يمشون في مساكن هؤلاء السابقين، ويمرون على ديارهم مصبحين وممسين، ويرون بأعينهم آثارهم الدارسة، وبيوتهم الخاوية على عروشها.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يزيد في تبكيتهم وتقريعهم فقال : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾.

أى : إن في ذلك الذي يرونه من مصارع الغابرين ، وآثار الماضين ، لآيات بينات ، وعظات بليغات ، فهلا تدبروا في ذلك ، واستمعوا إلى صوت الحق بتعقل وتفهم؟

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ حض لهم على الاستماع إلى الآيات الدالة على سوء عاقبة الظالمين ، بتدبر وتعقل واتعاظ ، وتحول من الباطل إلى الحق ، قبل أن يحل بهم ما حل بأهل الأزمنة الغابرة.

ثم نبههم ـ سبحانه ـ إلى نعمة من نعمه الكثيرة فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ، فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ، تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ والأرض الجرز : هي الأرض اليابسة التي جرز نباتها وقطع ، إما لعدم نزول الماء عليها ، وإما لرعيه منها.

قال القرطبي ما ملخصه : والأرض الجرز هي التي جرز نباتها أى : قطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز.

وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله ، وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده ، وسيف جراز ، أى : قاطع ...» [1].

أى : أعموا ولم يشاهدوا بأعينهم ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾ بقدرتنا ورحمتنا ﴿الْماءَ﴾ الذي تحمله السحب ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أى : اليابسة الخالية من النبات ، فينزل عليها.

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أى : فنخرج بهذا الماء النازل على الأرض القاحلة ﴿زَرْعاً﴾ كثيرا نافعا ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أى : من هذا الزرع ﴿أَنْعامُهُمْ﴾ أى : تأكل منه ما يصلح لأكلها كالأوراق والأغصان وما يشبه ذلك.

وقوله ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ معطوف على أنعامهم. أى : تأكل أنعامهم من الزرع ما يناسبها ، ويأكل منه الناس ما يناسبهم كالبقول والحبوب.

وقدم ـ سبحانه ـ الأنعام على بنى آدم للترقي من الأدنى إلى الأشرف.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ حض لهم على التأمل في هذه النعم ، والحرص على شكر المنعم عليها ، وإخلاص العبادة له.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١١٠.

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه المشركون من غرور واستخفاف بالوعيد فقال :

﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.

والمراد بالفتح : الحكم والقضاء والفصل في الخصومة بين المتخاصمين ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾. أى : «احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين».

أى : ويقول المشركون للنبي ﷺ ولأصحابه على سبيل الاستهزاء ، واستعجال العقاب : متى هذا الذي تحدثوننا عنه من أن الله - تعالى - سيفصل بيننا وبينكم ، ويجعل لكم النصر ولنا الهزيمة؟

لقد طال انتظارنا لهذا اليوم الذي يتم فيه الحكم بيننا وبينكم ، فإن كنتم صادقين في قولكم ، فادعوا ربكم أن يعجل بهذا اليوم.

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يخرسهم فيقول : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾. أى : قل - أيها الرسول - في الرد على هؤلاء الجاهلين المغرورين : إن يوم الفصل بيننا وبينكم قريب ، وهو آت لا محالة في الوقت الذي يحدده الله - تعالى - ويختاره ، سواء أكان هذا اليوم في الدنيا ، عند ما تموتون على الكفر ، أم في الآخرة عند ما يحل بكم العذاب ، ولا ينفعكم إيمانكم ، ولا أنتم تمهلون أو تنظرون ، بل سينزل بكم العذاب سريعا وبدون مهلة.

وما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾. أى : فأعرض عن هؤلاء المشركين ، وعن أقوالهم الفاسدة دون أن تلتفت إليها ، وامض في طريقك أنت وأتباعك ، وانتظر النصرة عليهم بفضلنا وإرادتنا ، إنهم - أيضا - منتظرون ما سيئول إليه أمرك ، وسيكون أمرك بخلاف ما يمكرون وما ينتظرون.

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة السجدة ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

# تفسير

# سورة الأحزاب

١ . سورة الأحزاب هي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف وهي من السور المدنية ، وكان نزولها بعد سورة آل عمران ، أى : أنها من أوائل السور المدنية ، إذ لم يسبقها في النزول بعد الهجرة سوى سور : البقرة والأنفال وآل عمران.

ويبدو : أن نزولها كان في الفترة التي أعقبت غزوة بدر ، إلى ما قبل صلح الحديبية.

وعدد آياتها ثلاث وسبعون آية.

٢ . وقد افتتحت سورة الأحزاب بنداء من الله . تعالى . لنبيه صلى الله عليه وسلم ، نهته فيه عن طاعة المنافقين والكافرين ، وأمرته بالمداومة على طاعة الله . تعالى . وحده ، وباتباع أمره ، وبالتوكل عليه . سبحانه ..

قال . تعالى . : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً. وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً* وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾.

٣ . ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان حكم الله . تعالى . في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع في ذلك الوقت ، فأبطلت التبني ، كما أبطلت ما كان سائدا في المجتمع من عادة الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، فتصير محرمة عليه حرمة مؤبدة.

قال . تعالى . : ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ ، وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ، ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ ، وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾.

٤ . ثم بين . سبحانه . بعد ذلك بعض الأحكام التشريعية الأخرى ، كوجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة تفوق طاعتهم لأنفسهم ، ولوجوب تعظيم المسلمين لزوجاته صلى الله عليه وسلم كتعظيم أمهاتهم ، وكوجوب التوارث بين الأقارب بالطريقة التي بينها .

سبحانه ـ في آيات أخرى ، وإبطال التوارث عن طريق المؤاخاة التي تمت بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار.

قال ـ تعالى ـ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ ، إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً ، كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾.

٥ ـ ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بجانب من نعمه عليهم ، حيث دفع عنهم جيوش الأحزاب ، وأرسل على تلك الجيوش جنودا من عنده لم يروها ، وكشف عن رذائل المنافقين التي ارتكبوها في تلك الغزوة ، ومدح المؤمنين الصادقين على وفائهم بعهودهم ، وكافأهم على ذلك بأن أورثهم أرض أعدائهم وديارهم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ. وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً. وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ. وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾.

وبعد هذا الحديث المفصل عن غزوة الأحزاب ، والذي استغرق ما يقرب من عشرين آية ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أزواج النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم فأمرت النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يخيرهن بين التسريح بإحسان ، وبين الصبر على شظف العيش ، ليظفرن برضا الله ـ تعالى ـ كما وجهت نداء إليهن أمرتهن فيه ، بالتزام الآداب الدينية التي تليق بهن. لأنهن في مكان القدوة لسائر النساء.

كما أمرتهن بالبقاء في بيوتهن ، فلا يخرجن لغير حاجة مشروعة. ومثلهن في ذلك مثل سائر نساء المسلمين. حتى يتفرغن لرعاية شئون بيوتهن التي هي من خصائصهن وليست من خصائص الرجال.

ثم ختم ـ سبحانه ـ تلك التوجيهات الحكيمة ببيان الثواب الجزيل الذي أعده للمؤمنين والمؤمنات ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ. وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ. وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ. وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ. وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ. أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

٧ ـ ثم أشارت السورة بعد ذلك إلى قصة زواج النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بالسيدة زينب بنت جحش. وإلى الحكمة من ذلك. وإلى تطليق زيد بن حارثة لها. وإلى أن ما فعله

رسول ﷺ بالنسبة لهذه الحادثة. كان بأمر الله ـ تعالى ـ وإذنه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ. وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً* الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً. ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ، وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾

ثم وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ ومن تسبيحه وتنزيهه. كما وجهت نداء إلى النبي ﷺ بينت له فيه وظيفته ، قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ، يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾.

٩ ـ ثم تحدثت السورة بعد ذلك بشيء من التفصيل عن بعض الأحكام التي تتعلق بأزواج النبي ﷺ وبعلاقته ﷺ بهن من حيث القسم وغيره ، ومن حيث الزواج بغيرهن.

كما تحدثت عن الآداب التي يجب على المؤمنين أن يلتزموها عند دخولهم بيوت النبي ﷺ بدعوة منه. لأجل تناول طعام ، أو لأجل أمر من الأمور الأخرى التي تتعلق بدينهم أو دنياهم.

ثم ختمت هذه الآيات بقوله ـ تعالى ـ ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

١٠ ـ وبعد هذا البيان المفصل لكثير من الأحكام والآداب ، أخذت السورة الكريمة في أواخرها ، في تهديد المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وفي بيان أن سنن الله في خلقه لا تتخلف ، وأن علم وقت قيام الساعة إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، وأن الإصرار على الكفر يؤدى إلى سوء العاقبة ، وأن السير على طريق الحق. يؤدى إلى مغفرة الذنوب. وأن الإنسان قد ارتضى حمل الأمانة. التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال.

قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً. لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ ، وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

١١ ـ ومن هذا العرض المجمل لآيات سورة الأحزاب ، نرى أنها قد اهتمت بموضوعات من أبرزها ما يلي :

(أ) كثرة التوجيهات والإرشادات ، من الله ـ تعالى لنبيه ﷺ إلى أفضل الأحكام ، وأقوم الآداب ، وأهدى السبل.

وهذه التوجيهات والإرشادات. نراها في كثير من آيات سورة الأحزاب لا سيما التي نادت الرسول ﷺ بوصف النبوة.

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها﴾.

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾.

(ب) أمر المؤمنين بطاعة الله ـ تعالى ـ ، وبطاعة رسوله ﷺ ، ونهيهم عن كل ما من شأنه أن يتعارض مع تشريعات الإسلام ومع آدابه.

وهذه الأوامر والنواهي ، نراها في كثير من آيات هذه السورة الكريمة.

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها.﴾ ...

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى ، فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾.

(ج) هذه السورة الكريمة تعتبر على رأس السور القرآنية التي اهتمت ببيان فضل نساء النبي ﷺ وحقوقهن ، وواجباتهن وخصائصهن.

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ.﴾ ...

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ، فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ.﴾ ...

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى ، وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ ، وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ.﴾ ...

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ.﴾ ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿... وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً.﴾ ..

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ ...

(د) هذه السورة تعتبر من أجمع السور القرآنية التي تعرضت لكثير من الأحكام الشرعية ، والآداب الاجتماعية ، التي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان.

ومن ذلك حديثها عن الظهار ، وعن التبني. وعن التوارث بين الأقارب دون غيرهم ، وعن وجوب تقديم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم على طاعة الإنسان لنفسه ، وعن وجوب التأسى به ، وعن وجوب الابتعاد عن كل ما يؤذيه أو يجرح شعوره ، وعن وجوب الخضوع لحكم الله ـ تعالى ـ ولحكم رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾.

(ه) السورة الكريمة فصلت الحديث عن غزوة الأحزاب ، التي وقعت في السنة الخامسة من الهجرة بين المسلمين وأعدائهم.

فبدأت حديثها عن تلك الغزوة بتذكير المؤمنين بفضل الله ـ تعالى ـ عليهم في هذه الغزوة ، ثم صورت أحوالهم عند إحاطة جيوش الأحزاب بالمدينة المنورة.

قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً. إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾.

ثم حكت أقوال المنافقين القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، وردت عليهم بما يفضحهم ، وبما يكشف عن سوء أخلاقهم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾.

ثم مدحت المؤمنين الصادقين لوفائهم بعهودهم ، ولشجاعتهم في مواجهة أعدائهم.

قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا : هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

وكما بدأت السورة حديثها عن غزوة الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ـ ختمته ـ أيضا ـ بهذا التذكير ، لكي يزدادوا شكرا له ـ عزّ وجلّ ـ ..

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ، وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً. وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾.

(و) والخلاصة أن المتأمل في سورة الأحزاب ، يراها زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالآداب الاجتماعية ، وبالتوجيهات الربانية ، تارة من الله ـ تعالى ـ لرسوله صلى الله عليه وسلم وتارة لأزواجه صلى الله عليه وسلم ، وتارة للمؤمنين.

كما يراها تهتم اهتماما واضحا بتنظيم المجتمع الإسلامى تنظيما حكيما ، من شأنه أن يأخذ بيد المتبعين له إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾(٣)

افتتحت سورة الأحزاب بهذا النداء لسيد الخلق ﷺ وبهذا الوصف الكريم ، وهو الوصف بالنبوة ، على سبيل التشريف والتعظيم.

قال صاحب الكشاف : جعل ـ سبحانه ـ نداءه بالنبي والرسول في قوله : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾. ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وترك نداءه باسمه ، كما قال : يا آدم ، يا موسى ، يا عيسى ، يا داود : كرامة له وتشريفا ، وتنويها بفضله.

فإن قلت : إن لم يوقع اسمه في النداء. فقد أوقعه في الإخبار ، في قوله : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾؟

قلت : ذلك لتعليم الناس بأنه رسول ، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به [1].

والمراد بأمره بتقوى الله : المداومة على ذلك ، والازدياد من هذه التقوى.

أى : واظب ـ أيها النبي الكريم ـ على تقوى الله ، وعلى مراقبته ، وعلى الخوف منه ، وأكثر من ذلك ، فإن تقوى الله ، على رأس الفضائل التي يحبها ـ سبحانه ـ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥١٨.

قال ابن كثير : هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه . تعالى . إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى.

وقد قال خلف بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله [1].

وبعد الأمر بالتقوى ، جاء النهى عن طاعة غير المؤمنين ، فقال . تعالى . : ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾. أى : واظب . أيها النبي الكريم . على تقوى الله ، واجتنب طاعة الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم ، وعبدوا معه آلهة أخرى ، واجتنب كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر.

وفي إيراد هذا النهى بعد الأمر بتقوى الله ، إشارة وإيحاء إلى ما كان يبذله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود عنيفة ، لزحزحة النبي ﷺ عما هو عليه من حق ، ولصرفه عن دعوتهم إلى الإسلام.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن جماعة من أهل مكة ، طلبوا من النبي ﷺ أن يرجع عن قوله ، وأن يعطوه شطر أموالهم ، وأن المنافقين واليهود بالمدينة هددوه بالقتل إن لم يرجع عن دعوتهم إلى الإسلام ، فنزلت [2].

وقوله . تعالى . ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ : تعليل الأمر والنهى ، أى : اتبع ما أمرناك به ، وما نهيناك عنه ، لأن الله . تعالى . عليم بكل شيء ، وحكيم في كل أقواله وأفعاله.

ثم أمره . سبحانه . باتباع ما يوحيه إليه فقال : ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ..

أى : واظب على تقوى الله ، وابتعد عن طاعة أعدائك ، واتبع في كل ما تأتى وتذر ، كل ما نوحيه إليك من عندنا اتباعا تاما.

فالجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها. من قبيل عطف العام على الخاص.

وفي النص على أن الوحى إليه ﷺ وأن هذا الوحى من ربه الذي تولاه بالتربية والرعاية ، إشعار بوجوب الاتباع التام الذي لا يشوبه انحراف أو تردد.

ثم أكد . سبحانه . هذا الأمر تأكيدا قويا فقال : ﴿إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

أى : إنه . تعالى . خبير ومحيط بحركات النفوس وبخفايا القلوب ، وكل من يخالف

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٧٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٤٠.

ما أمرناه به ، أو نهيناه عنه ، فلا يخفى علينا أمره ، وسنجازيه يوم القيامة بما يستحقه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ أى : وفوض أمرك إليه ـ عزّ وجلّ ـ وحده.

﴿وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ أى : وكفى بربك حافظا لك ، وكفيلا بتدبير أمرك.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد تضمنت ثلاثة أوامر : تقوى الله ، واتباع وحيه ، والتوكل عليه ـ تعالى ـ وحده. كما تضمنت نهيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين. وباتباع هذه الأوامر والنواهي ، يسعد الأفراد ، وتسعد الأمم.

ثم أبطل ـ سبحانه ـ بعض العادات التي كان متفشية في المجتمع ، وكانت لا تتناسب مع شريعة الإسلام وآدابه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾(٥)

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ نزلت في رجل من قريش اسمه جميل بن معمر الفهري ، كان حفاظا لما يسمع ، وكان يقول : لي قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد. فلما هزم المشركون يوم بدر ، ومعهم هذا الرجل ، رآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه في يده والأخرى في رجله ـ من شدة الهلع ـ ، فقال له أبو سفيان : ما حال الناس؟ قال : انهزموا. فقال له : فما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي. فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله في يده.

وقيل سبب نزولها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا ﷺ له قلبان ، لأنه ربما كان في شيء فنزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (١).

ويرى بعضهم : أن هذه الجملة الكريمة ، مثل ضربه الله ـ تعالى ـ للمظاهر من امرأته ، والمتبنى ولد غيره ، تمهيدا لما بعده.

أى : كما أن الله ـ تعالى ـ لم يخلق للإنسان قلبين في جوفه ، كذلك لم يجعل المرأة الواحدة زوجا للرجل وأما له في وقت واحد ، وكذلك لم يجعل المرء دعيا لرجل وابنا له في زمن واحد.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : أى : ما جمع الله قلبين في جوف ، ولا زوجية وأمومة في امرأة ، ولا بنوة ودعوة في رجل .. لأن الأم مخدومة مخفوض لها الجناح ، والزوجة ليست كذلك.

ولأن البنوة أصالة في النسب وعراقة فيه ، والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية لا غير.

فإن قلت : أى فائدة في ذكر الجوف؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمدلول عليه ، لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إبطال لما كان سائدا من أن الرجل كان إذا قال لزوجته أنت على كظهر أمى حرمت عليه.

يقال. ظاهر فلان من امرأته وتظهر وظهر منها ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريد أنها محرمة عليه كحرمة أمه.

وقد جاء الكلام عن الظهار ، وعن حكمه ، وعن كفارته ، في سورة المجادلة ، في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ، وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ إبطال لعادة أخرى كانت موجودة ، وهي عادة التبني.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١١٦.

(٢) تفسير الكشاف ـ بتصرف وتلخيص ـ ج ٣ ص ٥٢١.

والأدعياء : جمع دعى. وهو الولد الذي يدعى ابنا لغير أبيه وكان الرجل يتبنى ولد غيره ، ويجرى عليه أحكام البنوة النسبية ، ومنها حرمة زواج الأب بزوجة ابنه بالتبني بعد طلاقها ، ومنها التوارث فيما بينهما.

قال ابن كثير : وقوله : ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ، مولى النبي ﷺ ، فقد كان ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن محمد. فأراد الله ـ تعالى ـ أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النسبة بقوله : ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ﴾ ، كما قال في أثناء السورة : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (١).

واسم الإشارة في قوله : ﴿ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من التلفظ بالظهار ، ومن إجراء التبني على ولد الغير ، وهو مبتدأ ، وما بعده خبر.

أى : ذلكم الذي تزعمونه من تشبيه الزوجة بالأم في التحريم ، ومن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين ، هو مجرد قول باللسان لا يؤيده الواقع ، ولا يسانده الحق.

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ﴾ يقول ـ تعالى ذكره ـ هذا القول ، وهو قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ، ودعاؤه من ليس بابنه أنه ابنه ، إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، ولا يثبت بهذه الدعوى نسب الذي ادعيت بنوته ، ولا تصير الزوجة أما بقول الرجل لها : أنت على كظهر أمى (٢).

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أى : والله ـ تعالى ـ يقول الحق الثابت الذي لا يحوم حوله باطل ، وهو ـ سبحانه ـ دون غيره يهدى ويرشد إلى السبيل القويم الذي يوصل إلى الخير والصلاح. وما دام الأمر كذلك فاتركوا عاداتكم وتقاليدكم التي ألفتموها. والتي أبطلها الله ـ تعالى ـ بحكمته ، واتبعوا ما يأمركم به ـ سبحانه ..

ثم أرشدهم إلى الطريقة السليمة في معاملة الابن المتبنى فقال : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم ، فإن هذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله ـ تعالى ..

قال الآلوسى : أخرج الشيخان عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن زيد بن حارثة مولى

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٧٧.

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢١ ص ٧٥.

رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد. حتى نزل القرآن : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ﴾ فقال ﷺ : «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل» [1].

وكان زيد قد أسر في بعض الحروب ، ثم بيع في مكة ، واشتراه حكيم بن حزام ، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة ، ثم أهدته خديجة ـ رضى الله عنها ـ إلى النبي ﷺ وصار الناس يقولون : زيد بن محمد حتى نزلت الآية.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ﴾ إرشاد إلى معاملة هؤلاء الأدعياء في حالة عدم معرفة آبائهم.

أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين ، فإن ذلك أعدل عند الله ـ تعالى ـ ، وأشرف للآباء والأبناء ، فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين لكي تنسبوهم إليهم ، فهؤلاء الأدعياء هم إخوانكم في الدين والعقيدة ، وهم مواليكم ، فقولوا لهم ، يا أخى أو يا مولاي ، واتركوا نسبتهم إلى غير آبائهم الشرعيين.

وفي هذه الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه المجتمع الجاهلى من تخلخل في العلاقات الجنسية ، ومن اضطراب في الأنساب ، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة ، المبنية على الطهر والعفاف ، ووضع الأمور في مواضعها السليمة.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر اليسر ورفع الحرج في تشريعاته فقال : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

أى. انسبوا ـ أيها المسلمون ـ الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، فإن لم تعرفوا آباءهم فخاطبوهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يا مولاي. ومع كل ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحا أو إثما ، فيما وقعتم فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء الأدعياء إلى غير آبائهم ، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم.

و ﴿كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ـ وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده.

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين : حرص شريعة الإسلام على إعطاء كل ذي حق حقه ، ومن مظاهر ذلك إبطال الظهار الذي كان يجعل المرأة محرمة على الرجل ، ثم تبقى بعد ذلك معلقة ، لا هي مطلقة فتتزوج غير زوجها ، ولا هي زوجة فتحل له فشرع الإسلام كفارة الظهار إنصافا للمرأة ، وحرصا على كرامتها.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٤٧.

ومن مظاهر ذلك . أيضا . : إبطال عادة التبني ، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية والواقعية.

ولقد حذر الإسلام من دعوى الإبن إلى غير أبيه تحذيرا شديدا. ونفر من ذلك.

قال القرطبي : جاء في الحديث الصحيح عن سعد بن أبي وقاص وأبى بكرة ، كلاهما قال : سمعته أذناى ووعاه قلبي ، محمدا ﷺ يقول : «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» وفي حديث أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول : «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر» [1].

ثم بين . سبحانه . ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ﷺ ونحو أزواجه ، وما يجب للأقارب فيما بينهم ، فقال . تعالى . :

﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾(٦)

أى : النبي ﷺ أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم وأولى في المحبة والطاعة ، فإذا ما دعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه ، وجب أن يؤثروا ما دعاهم إليه ، على ما تدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه ﷺ لا يدعوهم إلا إلى ما ينفعهم ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : إنما مثلي ومثل أمتي ، كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه . أى في الشيء المستوقد . وأنا آخذ بحجزكم . أى : وأنا آخذ بما يمنعكم من السقوط كملابسكم ومعاقد الإزار . وأنتم تقحمون فيه» أى : وأنتم تحاولون الوقوع فيما يحرقكم ..

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٢١.

قال القرطبي : قال العلماء : الحجزة : السراويل ، والمعقد للإزار ، فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه ، وهذا مثل لاجتهاد نبينا ﷺ في نجاتنا ، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التي بين أيدينا ، فهو أولى بنا من أنفسنا [١].

وقال الإمام ابن كثير. قد علم الله . تعالى . شفقة رسوله ﷺ على أمته ، ونصحه لهم : فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدما على اختيارهم لأنفسهم.

وفي الصحيح «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين».

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرءوا إن شئتم : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه».

وروى الإمام أحمد عن جابر عن النبي ﷺ أنه كان يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك دينا فإلى ، ومن ترك مالا فلورثته [٢].

وقال الآلوسى : وإذا كان ﷺ بهذه المثابة في حق المؤمنين ، يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه . عليه الصلاة والسلام . عليهم أنفذ من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها.

وسبب نزول الآية . على ما قيل . ما روى من أنه ﷺ أراد غزوة تبوك ، فأمر الناس بالخروج : فقال أناس منهم : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت. ووجه دلالتها على السبب أنه ﷺ إذا كان أولى من أنفسهم ، فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى [٣].

ثم بين . سبحانه . منزلة أزواجه ﷺ بالنسبة للمؤمنين فقال : ﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ أى : وأزواجه ﷺ بمنزلة أمهاتكم . أيها المؤمنون . في الاحترام والإكرام ، وفي حرمة الزواج بهن.

قالوا : وأما ما عدا ذلك كالنظر إليهن ، والخلوة بهن ، وإرثهن. فهن كالأجنبيات.

ثم بين . سبحانه . أن التوارث إنما يكون بين الأقارب فقال . تعالى . ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً ، كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨١.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٦١.

والمراد بأولى الأرحام : الأقارب الذين تربط بينهم رابطة الرحم كالآباء والأبناء، والإخوة، والأخوات.

وقوله : ﴿فِي كِتابِ اللهِ﴾ متعلق بقوله ﴿أَوْلى﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الضمير في ﴿أَوْلى﴾.

والمراد بالمؤمنين والمهاجرين. من لا تربط بينهم وبين غيرهم رابطة قرابة.

قال ابن كثير : وقد أورد ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ﴾ وذلك أنا معشر قريش، لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم ... حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا.(١)

وشبيه بهذه الآية في وجوب أن يكون التوارث بحسب قرابة الدم، قوله ـ تعالى ـ في آخر آية من سورة الأنفال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

والاستثناء في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ رجح بعضهم أنه استثناء منقطع. وقوله ﴿أَنْ تَفْعَلُوا﴾ مبتدأ، وخبره محذوف.

والمراد بالكتاب في قوله ﴿كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾ القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ.

والمعنى : وأولو الأرحام وهم الأقارب، بعضهم أولى ببعض في التوارث فيما بينهم، وفي تبادل المنافع بعضهم مع بعض، وهذه الأولوية والأحقية ثابتة في كتاب الله ـ تعالى ـ حيث بين لكم في آيات المواريث التي بسورة النساء، كيفية تقسيم التركة بين الأقارب، وهم بهذا البيان أولى في ميراث الميت من المؤمنين والمهاجرين الذين لا تربطهم بالميت صلة القرابة.

هذا هو حكم الشرع فيما يتعلق بالتوارث، لكن إذا أردتم ـ أيها المؤمنون ـ أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين معروفا، كأن توصوا له ببعض المال فلا بأس، ولا حرج عليكم في ذلك.

وهذا الحكم الذي بيناه لكم فيما يتعلق بالتوارث بين الأقارب، كان مسطورا ومكتوبا في

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٨٣.

اللوح المحفوظ ، وفي آيات القرآن التي سبق نزولها ، فاعملوا بما شرعناه لكم ، واتركوا ما نهيناكم عنه.

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام ، والتقدير : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كل شيء من الإرث وغيره ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، من صدقة أو وصية ، فإن ذلك جائز.

وإما منقطع. والمعنى : لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به.

والإشارة بقوله : ﴿كانَ ذلِكَ﴾ تعود إلى ما تقدم ذكره. أى : كان نسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة ، ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات ﴿فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾ أى : في اللوح المحفوظ ، أو في القرآن مكتوبا [1].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد وضحت ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ، وما يجب عليهم نحو أزواجه ، وما يجب عليهم نحو أقاربهم فيما يتعلق بالتوارث.

ثم ذكر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بالعهد الذي أخذه عليه وعلى الأنبياء من قبله ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾(٨)

والميثاق : العهد الموثق المؤكد ، مأخوذ من لفظ وثق ، المتضمن معنى الشد والربط على الشيء بقوة وإحكام.

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن أخذنا من جميع النبيين العهد الوثيق ، على أن يبلغوا ما أوحيناه إليهم من هدايات للناس ، وعلى أن يأمروهم بإخلاص العبادة لنا ، وعلى أن يصدق بعضهم بعضا في أصول الشرائع ومكارم الأخلاق .. كما أخذنا هذا العهد الوثيق منك ، ومن أنبيائنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٦ ص ٢٦٢.

وخص هؤلاء الأنبياء بالذكر ، للتنويه بفضلهم ، فهم أولو العزم من الرسل ، وهم الذين تحملوا في سبيل إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ أكثر مما تحمل غيرهم.

وقدم ﷺ عليهم في قوله ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ لمزيد فضله ﷺ على جميع الأنبياء.

قال الآلوسى : ولا يضر تقديم نوح ـ عليه السلام ـ في سورة الشورى ، أعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ إذ لكل مقام مقال. والمقام في سورة الشورى وصف دين الإسلام بالأصالة. والمناسب فيه تقديم نوح ، فكأنه قيل : شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم ، وبعث عليه محمد ﷺ في العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ معطوف على ما قبله وهو ﴿أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ﴾ ، لإفادة تفخيم شأن هذا الميثاق المأخوذ على الأنبياء ، وبيان أنه عهد في أقصى درجات الأهمية والشدة.

أى : وأخذنا من هؤلاء الأنبياء عهدا عظيم الشأن ، بالغ الخطورة ، رفيع المقدار.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما ذا أراد بالميثاق الغليظ؟

قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه. إذ المعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا.

والغلظ استعارة في وصف الأجرام. والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابه.

وقيل : المراد بالميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا [2].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ متعلق بقوله : ﴿أَخَذْنا﴾ ، أو بمحذوف. والمراد بالصادقين : الأنبياء الذين أخذ الله عليهم الميثاق.

أى : فعل ـ سبحانه ـ ذلك ليسأل يوم القيامة أنبياءه عن كلامهم الصادق الذي قالوه لأقوامهم ، وعن موقف هؤلاء الأقوام منهم.

والحكمة من هذا السؤال تشريف هؤلاء الرسل وتكريمهم ، وتوبيخ المكذبين لهم فيما جاءوهم به من كلام صادق ومن إرشاد حكيم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾ معطوف على ما دل عليه قوله ، ليسأل الصادقين.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٥٤.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٢٥.

أى : أثاب . عزّجلّ . الأنبياء الكرام بسبب صدقهم في تبليغ رسالته وأعد للكافرين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم عذابا أليما ، بسبب هذا الإعراض.

وهكذا جمعت الآية الكريمة بين ما أعده . سبحانه . من ثواب عظيم للصادقين. ومن عذاب أليم للكافرين.

وبعد هذا البيان الحكيم لبعض الأحكام الشرعية. انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن غزوة الأحزاب ، وعن فضل الله . تعالى . على المؤمنين فيها ، فقال . سبحانه . :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾(١٥)

وغزوة الأحزاب ، من الغزوات الشهيرة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، وكانت . على الراجح . في شهر شوال من السنة الخامسة بعد الهجرة.

وملخصها . كما ذكر الإمام ابن كثير . أن نفرا من اليهود . على رأسهم حيي بن أخطب . خرجوا إلى مكة ، واجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب المسلمين ، فأجابوهم إلى ذلك.

ثم خرجوا إلى قبيلة غطفان فدعوهم لحرب المسلمين ، فاستجابوا لهم . ايضا ..

وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها ، والجميع في جيش قريب من عشرة آلاف رجل.

وعند ما علم الرسول ﷺ بمقدمهم ، أمر بحفر خندق حول المدينة.

ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينة ، فوجدوا الخندق قد حفر ، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها. كما أن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد.

وخلال هذه الفترة العصيبة ، نقض يهود بني قريظة عهودهم مع المسلمين ، وانضموا إلى جيوش الأحزاب ، فزاد الخطب على المسلمين.

ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريبا من شهر. ثم جاء نصر الله . تعالى . ، بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده ، فتصدعت جبهات الأحزاب ، وانكفأت خيامهم ، وملأ الرعب قلوبهم ، ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ﴾ (١).

وقد ابتدأ الله . تعالى . الحديث عن هذه الغزوة ، بنداء وجهه إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بفضله عليهم ، وبرحمته بهم فقال : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾.

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، ﴿اذْكُرُوا﴾ على سبيل الشكر والاعتبار ﴿نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ ورحمته بكم.

﴿إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ كثيرة ، هي جنود جيوش الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ شديدة زلزلتهم ، وجعلتهم يرحلون عنكم بخوف وفزع.

كما أرسلنا عليهم ﴿جُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾ وهم الملائكة ، الذين ألقوا الرعب في قلوب أعدائكم.

قالوا : روى أن الله . تعالى . بعث عليهم ريحا باردة في ليلة باردة ، فألقت التراب في

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٨٥. والسيرة النبوية لابن اسحق ج ٢ ص ٢٢٩.

وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت أوتاد خيامهم ، وأطفأت نيرانهم وقذفت في قلوبهم الرعب .. فقال كل سيد قوم لقومه : يا بنى فلان : النجاء النجاء [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ تذييل قصد به بيان مظهر آخر من مظاهر فضله ـ تعالى ـ عليهم.

أى : جاءتكم تلك الجنود الكثيرة. فأرسلنا عليهم ريحا شديدة ، وأرسلنا عليهم من عندنا جنودا لم تروها ، وكنا فوق كل ذلك مطلعين على أعمالكم من حفر الخندق وغيره وسامعين لدعائكم ، وقد أجبناه لكم ، حيث رددنا أعداءكم عنكم دون أن ينالوا خيرا.

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما حدث للمؤمنين في هذه الغزوة ، بعد هذا الإجمال ، فقال : ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أى : من أعلى الوادي من جهة المشرق. والجملة بدل من قوله ﴿إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾. والمراد بالذين جاءوا من تلك الجهة : قبائل غطفان وهوازن .. وانضم إليهم بنو قريظة بعد أن نقضوا عهودهم.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أى : ومن أسفل الوادي من جهة المغرب ، وهم قريش ومعهم أحابيشهم وحلفاؤهم.

وقوله : ﴿وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ﴾ معطوف على ما قبله ، داخل معه في حيز التذكير.

أى : واذكروا وقت أن زاغت أبصاركم ، ومالت عن كل شيء حولها ، وصارت لا تنظر إلا إلى أولئك الأعداء. يقال : زاغ البصر يزيغ زيغا وزيغانا إذا مال وانحرف. ويقال ـ أيضا : زاغ البصر ، إذا مل وتعب بسبب استدامة شخوصه من شدة الهول.

وقوله ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾ بيان آخر لما أصاب المسلمين من بلاء بسبب إحاطة جيوش الأحزاب بهم.

والحناجر : جمع حنجرة ، وهي جوف الحلقوم ، والمراد أن قلوبكم فزعت فزعا شديدا ، حتى لكأنها قد انتقلت من أماكنها إلى أعلى ، حتى قاربت أن تخرج من أفواهكم.

فالآية تصور ما أصاب المسلمين من فزع وكرب في غزوة الأحزاب ، تصويرا بديعا مؤثرا ، يرسم حركات القلوب ، وملامح الوجوه ، وخلجات النفوس.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ بيان لما دار في عقولهم من أفكار ، حين رأوا الأحزاب وقد أحاطوا بالمدينة.

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٥٦.

والظنون جمع الظن. وهو مصدر يطلق على القليل والكثير منه. وجاء بصيغة الجمع لتعدد أنواعه ، واختلافه باختلاف قوة الإيمان وضعفه.

أى : وتظنون . أيها المؤمنون . بالله . تعالى . الظنون المختلفة ، فمنكم من ازداد يقينا على يقينه ، وازداد ثقة بوعد الله . تعالى . وبنصره ، ومنكم من كان أقل من ذلك في ثباته ويقينه ، ومنكم من كان يظهر أمامكم الإيمان والإسلام ، ويخفى الكفر والعصيان ، وهم المنافقون وهؤلاء ظنوا الظنون السيئة ، بأن اعتقدوا بأن الدائرة ستدور عليكم :

قال ابن كثير : قوله ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ قال الحسن : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه . سبحانه . سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون.

عن أبي سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ، هل من شيء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ فقال ﷺ : نعم. قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا.

قال : فضرب الله . تعالى . وجوه أعدائه بالريح فهزمهم [1].

ولفظ ﴿هُنالِكَ﴾ في قوله . تعالى . : ﴿هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ : ظرف مكان للبعيد ، وهو منصوب بقوله ﴿ابْتُلِيَ﴾ والابتلاء : الاختبار والامتحان بالشدائد والمصائب.

أى : في ذلك المكان الذي أحاط به الأحزاب من كل جانب ، امتحن الله . تعالى . المؤمنين واختبرهم ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه.

﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾ أى : واضطربوا اضطرابا شديدا ، من شدة الفزع ، لأن الأعداء حاصروهم ، ولأن بنى قريظة نقضوا عهودهم.

ولقد بلغ انشغال المسلمين بعدوهم انشغالا عظيما ، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا بعض الصلوات في أوقاتها ، وقال بعض الصحابة : يا رسول الله ، ما صلينا ، فقال لهم ﷺ : «ولا أنا ، والله ما صليت ثم قال : شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله أجوافهم وقلوبهم نارا».

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا ، فالتقتا . دون أن تعرف إحداهما الأخرى . فتقاتلا. وحدث بينهم ما حدث من جراح وقتل ، ولم يشعروا أنهم من المسلمين ، حتى تنادوا بشعار الإسلام : «حم. لا ينصرون» ، فكف بعضهم عن بعض.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣٨٩.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال لهم : «جراحكم في سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد».

ومما زاد في بلاء المسلمين وحزنهم. ما ظهر من أقوال قبيحة من المنافقين. حكاها ـ سبحانه ـ في قوله : ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ أى : واذكروا ـ أيضا ـ أيها المؤمنون ـ وقت أن كشف المنافقون وأشباههم عن نفوسهم الخبيثة وطباعهم الذميمة ، وقلوبهم المريضة ، فقالوا لكم وأنتم في أشد ساعات الحرج والضيق : ﴿ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالنصر والظفر ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ أى : إلا وعدا باطلا ، لا يطابق الواقع الذي نعيش فيه.

وقال أحدهم : إن محمدا كان يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط.

﴿وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ ...

أى : واذكروا ـ كذلك ـ أيها المؤمنون ـ وقت أن قالت لكم طائفة من هؤلاء المنافقين : ﴿يا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أى : يا أهل المدينة ، لا مقام لكم في هذا المكان الذي تقيمون فيه بجوار الخندق لحماية بيوتكم ومدينتكم ، فارجعوا إلى مساكنكم ، واستسلموا لأعدائكم.

قال الشوكانى : وذلك أن المسلمين خرجوا في غزوة الخندق ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، وجعلوا وجوههم إلى العدو ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم. فقال هؤلاء المنافقون : ليس ها هنا موضع إقامة وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول الذميم ، بل كانوا يهربون من الوقوف إلى جانب المؤمنين ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ، يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً﴾.

أى : أنهم كانوا يحرضون غيرهم على ترك مكانه في الجهاد ، ولا يكتفون بذلك ، بل كان كل فريق منهم يذهب إلى النبي ـ صلى الله عليهم ـ فيستأذنه في الرجوع إلى بيوتهم ، قائلين له : يا رسول الله : ﴿إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ﴾ أى : خالية ممن يحرسها. يقال : دار ذات عورة إذا سهل دخولها لقلة حصانتها.

وهنا يكشف القرآن عن حقيقتهم ويكذبهم في دعواهم فيقول ﴿وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أى :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٦ ص ٢٦٦.

والحال أن بيوتهم ليست كما يزعمون ، وإنما الحق أنهم يريدون الفرار من ميدان القتال ، لضعف إيمانهم ، وجبن نفوسهم.

روى أن بنى حارثة بعثوا أحدهم إلى رسول الله ﷺ ليقول له : إن بيوتنا عورة ، وليست دار من دور الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا كي نرجع إلى دورنا ، فمنع ذرارينا ونساءنا. فأذن لهم ﷺ.

فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا فعلوا ذلك .. فردهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء المنافقين جمعوا لأنفسهم كل نقيض ، فهم يسرعون إلى ما يؤذى المؤمنين ، ويبطئون عما ينفعهم ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها ، وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً﴾.

والضمير في قوله ـ تعالى ـ ﴿دُخِلَتْ﴾ للبيوت أو للمدينة. وفاعل الدخول من يدخل هذه البيوت أو المدينة من أهل الكفر والفساد. وأسند ـ سبحانه ـ الدخول إلى بيوتهم ، للإشعار بأن الأعداء يدخلونها وهم قابعون فيها.

والأقطار : جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة.

والمراد بالفتنة هنا ، الردة عن الإسلام أو قتال المسلمين.

وقوله ﴿لَآتَوْها﴾ قرأه الجمهور بالمد بمعنى لأعطوها. وقرأه نافع وابن كثير لأتوها بالقصر ، بمعنى لجاءوها وفعلوها والتلبث : الإبطاء والتأخر.

والمعنى إن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أن بيوتهم عورة ، هم كاذبون في زعمهم ، وهم أصحاب نيات خبيثة ، ونفوس عارية عن كل خير.

والدليل على ذلك ، أن بيوتهم هذه التي يزعمون أنها عورة ، لو اقتحمها عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها ، ثم طلب منهم أن ينضم إليهم في مقاتلة المسلمين ، لسارعوا إلى تلبية طلبه ، ولكانوا مطيعين له كل الطاعة ، وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمدة قليلة ، يعدون العدة خلالها لقتالكم ـ أيها المسلمون ـ ، وللانسلاخ عن كل رابطة تربطكم بهم. لأن عقيدتهم واهنة ، ونفوسهم مريضة خائرة.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى : المدينة. وقيل : بيوتهم. من قولك : دخلت على فلان داره ﴿مِنْ أَقْطارِها﴾ أى. من جوانبها. يريد : ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة ـ التي يفرون منها ـ مدينتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم

وأولادهم ناهبين سابين ، ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ، ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أى : الردة والرجعة إلى الكفر ، ومقاتلة المسلمين ، لأتوها ، أى : لجاءوها ولفعلوها. وقرئ. لآتوها ، أى لأعطوها ﴿وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرا ، فإن الله يهلكهم [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، أن من الصفات اللازمة للمنافقين ، نقضهم لعهودهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾.

أى : ولقد كان هؤلاء المنافقون قد حلفوا من قبل غزوة الأحزاب ، أنهم سيكونون معكم في الدفاع عن الحق وعن المدينة المنورة التي يساكنونكم فيها ، ولكنهم لم يفوا بعهودهم.

﴿وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾ أى : مسئولا عنه صاحبه الذي عاهد الله ـ تعالى ـ على الوفاء ، وسيجازى ـ سبحانه ـ كل ناقض لعهده ، بما يستحقه من عقاب.

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فوبختهم على سوء فهمهم ، وعلى جبنهم وخورهم ، وعلى سلاطة ألسنتهم .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٢٨.

بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٢٠)

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المنافقين : ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ ، لأن كل إنسان لا بد له من نهاية تنتهي عندها حياته ، سواء أكانت تلك النهاية عن طريق القتل بالسيف ، أم عن طريق الموت على الفراش.

وما دام الأمر كذلك ، فعلى هؤلاء المنافقين أن يعلموا : أن الجبن لا يؤخر الحياة ، وأن الشجاعة لا تقدمها عن موعدها. وصدق الله إذ يقول : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وقوله : ﴿إِنْ فَرَرْتُمْ﴾ .. جوابه محذوف لدلالة ما سبق عليه. أى : إن فررتم لن ينفعكم فراركم.

وقوله : ﴿وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ تذييل قصد به زجرهم عن الجبن الذي استولى عليهم.

أى : إن فراركم من الموت أو القتل ، إن نفعكم ـ على سبيل الفرض ـ لفترة من الوقت ، فلن ينفعكم طويلا ، لأنكم لن تتمتعوا بالحياة بعد هذا الفرار إلا وقتا قليلا ، ثم ينزل بكم قضاء الله ـ تعالى ـ الذي لا مرد لكم منه ، فما تفرون منه هو نازل بكم قطعا.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يقرعهم بحجة أخرى لا يستطيعون الرد عليها ، فقال : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ ، إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء الجاهلين : من هذا الذي يملك أن يدفع ما يريده الله ـ

تعالى ـ بكم من خير أو شر ، ومن نعمة أو نقمة ، ومن موت أو حياة.

إن أحدا لا يستطيع أن يمنع قضاء الله عنكم. فالاستفهام للإنكار والنفي.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ، ولا عصمة إلا من السوء؟

قلت : معناه ، أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قول : «متقلدا سيفا ورمحا» . أى : «متقلدا سيفا وحاملا رمحا» (١).

وقوله ـ تعالى ـ : (وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً) معطوف على ما قبله. أى : لا يجدون من يعصمهم مما يريده الله ـ تعالى ـ بهم ، ولا يجدون من دونه ـ سبحانه ـ وليا ينفعهم ، أو نصيرا ينصرهم ، إذ هو وحده ـ سبحانه ـ الناصر والمغيث والمجير.

قال ـ تعالى ـ : (ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

ثم بين ـ سبحانه ـ أن علمه محيط بهؤلاء المنافقين ، وأنهم لن يفلتوا من عقابه ، فقال : (قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ، وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً).

قال الآلوسى ما ملخصه : قال ابن السائب : الآية في عبد الله بن أبى وأمثاله ممن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة. كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر ، أن ائتونا فإنا ننتظركم.

وكان بعضهم يقول لبعض : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم (٢).

و «قد» للتحقيق ، لأن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء. و «المعوقين» من العوق وهو المنع والصرف ، يقال : عاق فلان فلانا ، إذا صرفه عن الجهة التي يريدها.

و «من» في قوله (مِنْكُمْ) للبيان. والمراد بالأخوة : التطابق والتشابه في الصفات الذميمة ، والاتجاهات القبيحة. التي على رأسها كراهيتهم للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ولأصحابه.

و «هلم» اسم فعل أمر بمعنى أقبل.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٢٩.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٦٣.

والمعنى : إن الله . تعالى . لا يخفى عليه حال أولئك المنافقين. الذين يخذلون ويثبطون ويصرفون إخوانهم في النفاق والشقاق ، عن الاشتراك مع المؤمنين ، في حرب جيوش الأحزاب ، ويقولون لهم : ﴿هَلُمَّ إِلَيْنا﴾ أى : أقبلوا نحونا ، وتعالوا إلى جوارنا ، ولا تنضموا إلى صفوف المسلمين.

وقوله . سبحانه . : ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ذم لهم على جبنهم وخورهم.

أى : أن من صفاتهم الأصيلة أنهم جبناء ، ولا يقبلون على الحرب والقتال ، إلا إقبالا قليلا. فهم تارة يخرجون مع المؤمنين ، لإيهامهم أنهم معهم ، أو يخرجون معهم على سبيل الرياء والطمع في غنيمة.

ثم أخذت السورة الكريمة في تصوير ما جبلوا عليه من سوء تصويرا معجزا ، فقال . تعالى . ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ ، جمع شحيح من الشح وهو البخل في أقبح صوره. ولفظ ﴿أَشِحَّةً﴾ منصوب على الحال من الضمير في قوله : ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

أى : أن من صفات هؤلاء المنافقين الجبن والخور ، حالة كونهم بخلاء بكل خير يصل إليكم . أيها المؤمنون . فهم لا يعاونونكم في حفر الخندق ، ولا في الدفاع عن الحق والعرض والشرف ولا في أى شيء فيه منفعة لكم.

﴿فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ﴾ ، أى فإذا اقترب الوقت الذي يتوقع فيه اللقاء بينكم وبين أعدائكم. ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الرسول الكريم . ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ بجبن وهلع ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في مآقيهم يمينا وشمالا.

وحالهم كحال الذي ﴿يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى : كحال الذي أحاط به الموت من كل جانب ، فصار في أقصى دركات الوهن والخوف والفزع.

هذه هي حالهم عند ما يتوقعون الشدائد والمخاوف ، أما حالهم عند الأمان وذهاب الخوف ، فهي كما قال . تعالى . ﴿فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ﴾.

وقوله ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ من السّلق. وأصله بسط العضو ومده للأذى ، سواء أكان هذا العضو يدا أو لسانا. والمراد به الإيذاء بالكلام السيئ القبيح.

أى : أنهم عند الشدائد جبناء بخلاء ، فإذا ما ذهب الخوف وحل الأمان ، سلطوا عليكم ألسنتهم البذيئة بالأذى والسوء ، ورموكم بألسنة ماضية حادة ، تؤثر تأثير الحديد في الشيء ، وارتفعت أصواتهم بعد أن كانوا إذا ما ذكر القتال أمامهم ، صار حالهم كحال المغشى عليه من الموت.

ثم هم بعد كل ذلك ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أى بخلاء بكل خير ، فهم يحرصون على جمع الغنائم ، وعلى الأموال بكل وسيلة ، ولكنهم لا ينفقون شيئا منها في وجه من وجوه الخير والبر.

قال ابن كثير قوله ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أى : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر :

أفي السلم أعيارا جفاء وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العوارك

أى : هم في حال المسالمة كأنهم الحمير الأعيار. والأعيار جمع عير وهو الحمار. وفي الحرب كأنهم النساء الحيض (١).

ثم بين . سبحانه . سوء مصيرهم فقال : ﴿أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾.

أى : أولئك المنافقون الموصوفون بما سبق من الصفات السيئة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بما يجب الإيمان به إيمانا صادقا ، بل قالوا بألسنتهم قولا تكذبه قلوبهم وأفعالهم ﴿فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ﴾ بأن أبطلها وجعلها هباء منثورا ، وكان ذلك الإحباط على الله . سبحانه . هينا يسيرا.

وخص . سبحانه . يسر إحباط عملهم بالذكر مع أن كل شيء يسير عليه . تعالى . لبيان أن أعمالهم جديرة بالإحباط والإفساد ، لصدورها عن قلوب مريضة ، ونفوس خبيثة.

قال صاحب الكشاف : وهل يثبت للمنافقين عمل حتى يرد عليه الإحباط؟

قلت : لا ، لكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يوطئه القلب ، وان ما يعمل المنافق من الأعمال يجدي عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل ، وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء من غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا (٢).

ثم ختم . سبحانه . هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند الشدائد والمحن فقال : ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾.

أى : أن هؤلاء المنافقين بلغ بهم الجبن والخور ، أنهم حتى بعد رحيل الأحزاب عن المدينة ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٩٢.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٣٠.

ما زالوا يحسبون ويظنون أنهم لم يذهبوا عنها ، فهم يأبون أن يصدقوا أن الله ـ تعالى ـ قد رد الذين كفروا بغيظهم دون أن ينالوا خيرا.

وفي هذه الجملة ما فيها من التهكم بالمنافقين ، حيث وصفتهم بأنهم حتى بعد ذهاب أسباب الخوف ، ما زالوا في جبنهم يعيشون.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم فيما لو عاد الأحزاب على سبيل الفرض والتقدير فقال : ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ﴾.

أى : إلى المدينة مرة ثانية.

﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ﴾ أى : وإن تعد جيوش الأحزاب إلى مهاجمة المدينة مرة ثانية ، يتمنى هؤلاء المنافقون ، أن يكونوا غائبين عنها ، نازلين خارجها مع أهل البوادي من الأعراب ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للقتال.

فقوله : ﴿بادُونَ﴾ جمع باد وهو ساكن البادية. يقال : بدا القوم بدا ، إذا نزحوا من المدن إلى البوادي.

والأعراب : جمع أعرابى وهو من يسكن البادية.

ثم بين ـ سبحانه ـ تلهفهم على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين فقال : ﴿يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾.

أى : هؤلاء المنافقون يسألون القادمين من المدينة ، والذاهبين إليها عن أخباركم ـ أيها المؤمنون ـ حتى لكأنهم غير ساكنين فيها.

ولو كانوا فيكم عند ما يعود الكافرون إلى المدينة ـ على سبيل الفرض ـ ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا حتى لا ينكشف أمرهم انكشافا تاما. فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة.

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد أفاضت في شرح الأحوال القبيحة التي كان عليها المنافقون عند ما هاجمت جيوش الأحزاب المدينة ، ووصفتهم بأبشع الصفات وأبغضها إلى كل نفس كريمة ، حتى يحذرهم المؤمنون.

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين الأخيار والأشرار ، ساقت السورة بعد ذلك صورة مشرقة مضيئة للمؤمنين الصادقين ، الذين عند ما رأوا جيوش الأحزاب قالوا : ﴿هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه دون أن يبدلوا تبديلا.

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لنا موقف المؤمنين في غزوة الأحزاب ، كما يحكى جانبا من فضل الله عليهم ، ومن لطفه بهم فيقول ـ سبحانه ـ :

﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤) وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾(٢٧)

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى : كان لكم قدوة في النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله ، في خروجه إلى الخندق.

والأسوة : القدوة. وقرأ عاصم ﴿أُسْوَةٌ﴾ بضم الهمزة. والباقون بكسرها. والجمع أسى وإسى . بضم الهمزة وكسرها [1].

يقال : فلان ائتسى بفلان ، إذا اقتدى به ، وسار على نهجه وطريقته.

وقال الإمام ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب ، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه . تعالى . .. [2].

والذي يقرأ السيرة النبوية الشريفة. يرى أن النبي ﷺ كان في هذه الغزوة بصفة خاصة ، وفي غيرها بصفة عامة القدوة الحسنة الطيبة في كل أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ .

لقد شارك أصحابه في حفر الخندق ، وفي الضرب بالفأس. وفي حمل التراب بل وشاركهم في أراجيزهم وأناشيدهم ، وهم يقومون بهذا العمل الشاق المتعب.

وشاركهم في تحمل آلام الجوع ، وآلام السهر .. بل كان ﷺ هو القائد الحازم الرحيم ، الذي يلجأ إليه أصحابه عند ما يعجزون عن إزالة عقبة صادفتهم خلال حفرهم للخندق.

قال ابن إسحاق ما ملخصه : وعمل المسلمون فيه . أى في الخندق . حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له «جعيل» سماه رسول الله ﷺ عمرا ، فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا بعمرو ، قال رسول الله ﷺ «عمرا» وإذا مروا بظهر قال : «ظهرا».

ثم قال ابن إسحاق : وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها تحقيق نبوته ﷺ فكان فيما بلغني أن جابر بن عبد الله كان يحدث ، أنهم اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية . أى صخرة عظيمة . ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من

من

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٩٢.

حضرها : فو الذي بعثه بالحق نبيا لانهالت ـ أى : لتفتت ـ حتى عادت كالكثيب ـ أى كالرمل المتجمع ـ لا ترد فأسا ولا مسحاة [1].

وهذه الآية الكريمة وإن كان نزولها في غزوة الأحزاب ، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

والجار والمجرور في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿حَسَنَةٌ﴾ ، أو بهذا اللفظ نفسه وهو ﴿حَسَنَةٌ﴾.

والمراد بمن كان يرجو الله واليوم الآخر : المؤمنون الصادقون الذين وفوا بعهودهم.

أى : لقد كان لكم ـ أيها الناس ـ قدوة حسنة في نبيكم ﷺ ، وهذه القدوة الحسنة كائنة وثابتة للمؤمنين حق الإيمان. الذين يرجون ثواب الله ـ تعالى ـ ، ويؤملون رحمته يوم القيامة ، إذ هم المنتفعون بالتأسى برسولهم ﷺ وقوله : ﴿وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ معطوف على ﴿كانَ﴾ ، أى : هذه الأسوة الحسنة بالرسول ﷺ ثابتة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ولمن ذكر الله ـ تعالى ـ ذكرا كثيرا ، لأن الملازمة لذكر الله ـ تعالى ـ توصل إلى طاعته والخوف منه ـ سبحانه ..

وجمع ـ سبحانه ـ بين الرجاء والإكثار من ذكره ، لأن التأسى التام بالرسول ﷺ لا يتحقق إلا بهما.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ـ على سبيل التشريف والتكريم ـ ما قاله المؤمنون الصادقون عند ما شاهدوا جيوش الأحزاب ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾.

واسم الإشارة ﴿هذا﴾ يعود إلى ما رأوه من الجيوش التي جاء بها المشركون ، أو إلى ما حدث لهم من ضيق وكرب بسبب ذلك.

أى : وحين رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أقبلت نحو المدينة ، لم يهنوا ولم يجزعوا ، بل ثبتوا على إيمانهم وقالوا ﴿هذا﴾ الذي نراه من خطر داهم ، هو ما وعدنا به الله ورسوله ، وأن هذا الخطر سيعقبه النصر ، وهذا الضيق سيعقبه الفرج ، وهذا العسر سيأتى بعده اليسر.

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٢٩ وما بعدها.

قال الآلوسي ما ملخصه : وأرادوا بقولهم ذلك ، ما تضمنه قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ، أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾.

وكان نزول هذه الآية قبل غزوة الخندق بحول. كما جاء عن ابن عباس.

وفي رواية عن ابن عباس ـ أيضا ـ أن الرسول ﷺ قال لأصحابه : إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا ، أى : في آخر تسع ليال أو عشر ، أى : من وقت الاخبار ، أو من غرة الشهر فلما رأوهم قد أقبلوا في الموعد الذي حدده ﷺ قالوا ذلك [١].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ داخل في حيز ما قالوه.

أى : قالوا عند ما شاهدوا جيوش الأحزاب : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وقالوا ـ أيضا ـ على سبيل التأكيد وقوة اليقين والتعظيم لذات الله ، ولشخصية رسوله : وصدق الله ورسوله ، أى : وثبت صدق الله ـ تعالى ـ في أخباره ، وصدق رسوله ﷺ في أقواله.

والضمير في قوله : ﴿وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾ يعود إلى ما رأوه من جيوش الأحزاب ، ومن شدائد نزلت بهم بسبب ذلك.

أى ـ وما زادهم ما شاهدوه من جيوش الأحزاب ، ومن بلاء أحاط بهم بسبب ذلك ، إلا إيمانا بقدرة الله ـ تعالى ـ وتسليما لقضائه وقدره ، وأملا في نصره وتأييده.

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى هذا المديح لهم ، مديحا آخر فقال : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾

والنحب : النذر ، وهو أن يلتزم الإنسان الوفاء بأمر تعهد به.

وقضاؤه : الفراغ منه ، والوفاء به على أكمل وجه.

وكان رجال من الصحابة قد نذروا ، أنهم إذا صاحبوا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم في حرب ، أن يثبتوا معه ، وأن لا يفروا عنه.

والمعنى : من المؤمنين رجال كثيرون ، وفوا أكمل وفاء بما عاهدوا الله ـ تعالى ـ عليه ، من التأييد لرسوله ﷺ ومن الثبات معه في كل موطن.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ﴾ أى : فمنهم من وفى بوعده حتى أدركه أجله فمات شهيدا.

(١) تفسير الآلوسي ج ٢١ ص ١٦٩.

كحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب ابن عمير وغيرهما . رضى الله عنهم أجمعين ..

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ أى : ومنهم من هو مستمر على الوفاء ، وينتظر الشهادة في سبيل الله . تعالى . في الوقت الذي يريده . سبحانه . ويختاره ، كبقية الصحابة الذين نزلت هذه الآية وهم ما زالوا على قيد الحياة.

قال الامام ابن كثير : قال الامام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال أنس : غاب عمى أنس بن النضر . سمّيت به . لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليريّن الله ما أصنع. قال : فهاب أن يقول غيرها. فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد.

فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو ، أين واها [1] لريح الجنة أجده دون أحد.

قال : فقاتلهم حتى قتل : قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته . عمتي الرّبيّع ابنة النضر . فما عرفت أخى إلا ببنانه.

قال : فنزلت هذه الآية : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ﴾ فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه . رضى الله عنهم ، ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة [2].

وقوله . تعالى . : ﴿وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ معطوف على ﴿صَدَقُوا﴾ أى : هؤلاء الرجال صدقوا صدقا تاما في عهودهم مع الله . تعالى . حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم ، وما غيروا ولا بدلوا شيئا مما عاهدوا الله . تعالى . عليه.

ثم بين . سبحانه . الحكمة من هذا الابتلاء والاختبار فقال : ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.

أى : فعل . سبحانه . ما فعل في غزوة الأحزاب من أحداث ، ليجزي الصادقين في إيمانهم الجزاء الحسن الذي يستحقونه بسبب صدقهم ووفائهم.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ﴾ أى : إن شاء تعذيبهم بسبب موتهم على نفاقهم.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ من نفاقهم بفضله وكرمه فلا يعذبهم.

---

(١) واها : كلمة تحنن وتلهف قالها أنس لسعد . رضى الله عنهما.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٩٥.

قال الجمل : وقوله : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ﴾ جوابه محذوف ، وكذلك مفعول ﴿شاءَ﴾ محذوف . أيضا . أى : إن شاء تعذيبهم عذبهم.

والمراد بتعذيبهم إماتتهم على النفاق ، بدليل العطف في قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [1].

﴿إِنَّ اللهَ﴾ . تعالى . ﴿كانَ﴾ وما زال ﴿غَفُوراً رَحِيماً﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده.

ثم بين . سبحانه . المصير السيئ الذي انتهى إليه الكافرون فقال : ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً﴾.

أى : ورد الله . تعالى . بفضله وقدرته الذين كفروا عنكم . أيها المؤمنون . حالة كونهم متلبسين بغيظهم وحقدهم. دون أن ينالوا أى خير من إتيانهم إليكم ، بل رجعوا خائبين خاسرين.

فقوله ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حال من الموصول ، والباء للملابسة ، وجملة ﴿لَمْ يَنالُوا خَيْراً﴾ حال ثانية من الموصول أيضا.

وقوله : ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ﴾ بيان للمنة العظمى التي امتن بها . سبحانه . عليهم.

أى : وأغنى الله . تعالى . بفضله وإحسانه المؤمنين عن متاعب القتال وأهواله بأن أرسل على جنود الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده.

﴿وَكانَ اللهُ﴾ . تعالى . ﴿قَوِيًّا﴾ على إحداث كل أمر يريده ﴿عَزِيزاً﴾ أى : غالبا على كل شيء.

قال ابن كثير : وفي قوله ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش. وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم.

قال محمد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم» فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين ، وكان ﷺ هو الذي يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة.

وروى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال : سمعت النبي ﷺ يقول يوم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٣١.

الأحزاب : «الآن نغزوهم ولا يغزونا» [1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الحديث عن غزوة الأحزاب ، ببيان ما حل ببني قريظة من عذاب مهين ، بسبب نقضهم لعهودهم فقال : ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ﴾.

والصياصي : جمع صيصية وهي كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها. ومنه قيل لقرن الثور صيصية لأنه يدفع به عن نفسه.

أى : وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون ـ أنزل الله ـ تعالى ـ بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم ، وهم يهود بنى قريظة ، أنزلهم من حصونهم ، ومكنكم من رقابهم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الشديد منكم ، بحيث صاروا مستسلمين لكم ، ونازلين على حكمكم.

﴿فَرِيقاً﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال. وتأسرون فريقا آخر وهم الذرية والنساء.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ أى : وأورثكم الله ـ تعالى ـ أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثكم ﴿دِيارَهُمْ﴾ أى حصونهم ﴿وَأَمْوالَهُمْ﴾ التي تركوها من خلفهم ، كنقودهم ومواشيهم.

كما أورثكم ﴿أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها﴾ بعد يقصد القتال وهي أرض خيبر ، أو أرض فارس والروم.

وفي هذه الجملة الكريمة ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين ، بأن الله ـ تعالى ـ سينصرهم على أعدائهم.

﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء.

أخرج الشيخان عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : «لما رجع النبي ﷺ من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل فقال : يا محمد قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه فاخرج إليهم فقال النبي ﷺ : فإلى أين؟ قال : هاهنا. وأشار إلى بنى قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم».

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال النبي ـ ﷺ ـ يوم الأحزاب ، لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة ، فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٩٦.

بعضهم : لا نصلّى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلّى ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحدا (١).

وبعد أن حاصر المسلمون بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة ، نزلوا بعدها على حكم سعد بن معاذ . رضى الله عنه . فحكم بقتل رجالهم ، وتقسيم أموالهم ، وسبى نسائهم وذراريهم.

وقال الرسول ﷺ له : «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات» (٢).

وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثا جامعا حكيما عن غزوة الأحزاب ، فقد ذكرت المؤمنين . أولا . بنعم الله . تعالى . عليهم ، ثم صورت أحوالهم عند ما أحاطت بهم جيوش الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم.

ثم حكت ما قاله المنافقون في تلك الساعات العصيبة ، وما أشاروا به على أشباههم في النفاق ، وما اعتذروا به من أعذار باطلة ، وما جبلوا عليه من أخلاق قبيحة ، على رأسها الجبن والخور وضعف العزيمة وفساد النية.

ثم انتقلت إلى الحديث عن المواقف المشرقة الكريمة التي وقفها المؤمنون الصادقون عند ما رأوا الأحزاب ، وكيف أنهم ازدادوا إيمانا على إيمانهم ، ووفوا بعهودهم مع الله . تعالى . دون أن يبدلوا تبديلا.

وكما بدئت الآيات بتذكير المؤمنين بنعم الله . تعالى . عليهم ، ختمت . أيضا . بهذا التذكير حيث رد الله أعداءهم عنهم دون أن ينالوا خيرا ، ومكنهم من معاقبة الغادرين من اليهود.

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى . بعد هذا الحديث عن غزوة الخندق . إلى بيان التوجيهات الحكيمة التي وجهها الله . تعالى . إلى نبيه ﷺ وإلى أزواجه ، فقال . سبحانه . :

---

(١) صحيح البخاري : باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ج ٥ ص ١٤٢.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٩٧ والآلوسى ج ٢١ ص ١٧٦.

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾(٢٩)

ففي هاتين الآيتين يأمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يخير أزواجه بين أن يعشن معه معيشة الكفاف والزهد في زينة الحياة الدنيا وبين أن يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا.

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قيل : سألنه شيئا من عرض الدنيا. وقيل : سألنه زيادة في النفقة.

روى البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبي بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه.

قال : فقال عمر ، والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت زيد ـ زوجة عمر ـ سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها : فضحك رسول الله ﷺ وقال : «هن حولي كما ترى يسألننى النفقة».

فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها وكلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده.

فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده.

ثم نزلت هاتان الآيتان. فبدأ ﷺ بعائشة فقال لها : «يا عائشة ، إنى أريد أن أعرض عليك أمرا ، أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرى أبويك».

قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها هاتين الآيتين. فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى!! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة.

وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت عائشة [1].

وقال الإمام ابن كثير . بعد أن ساق جملة من الأحاديث في هذا المعنى وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة ، وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة.

وأربع من غير قريش . وهن : صفية بنت حيي النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة . رضى الله عنهن.

وقال الإمام الآلوسى : فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، مدحهن الله . تعالى . على ذلك ، إذ قال . سبحانه . : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ .. فقصره الله . تعالى . عليهن ، وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة» [2].

والمعنى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ اللائي في عصمتك ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها﴾.

أى : إن كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من مأكل ومشرب وملبس ، فوق ما أنتن فيه عندي من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ، وقائمة على الزهد في زينتها.

إن كنتن تردن ذلك : ﴿فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾.

قال الجمل : وقوله : ﴿فَتَعالَيْنَ﴾ فعل أمر مبنى على السكون ، ونون النسوة فاعل. وأصل هذا الأمر أن يكون الآمر أعلى مكانا من المأمور ، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه ، ثم كثر استعماله حتى صار معناه أقبل. وهو هنا كناية عن الاختيار والإرادة. والعلاقة هي أن المخبر يدنو إلى من يخبره [3].

وقوله : ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ مجزوم في جواب الأمر. والمتعة : ما يعطيه الرجل للمرأة التي طلقها ، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعا ، وقد جعلها . سبحانه . حقا على المحسنين الذين يبغون رضا الله . تعالى . وحسن ثوابه.

وقوله ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ معطوف على ما قبله ، والتسريح : إرسال الشيء ، ومنه تسريح الشعر ليخلص بعضه من بعض. ويقال : سرح فلان الماشية ، إذا أرسلها لترعى.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٦٣.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٨١.

(٣) حاشية الجمل ج ٣ ص ٤٣٣.

والمراد به هنا : طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته.

أى : قل . أيها الرسول الكريم . لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولا تستطعن الصبر على المعيشة معى ، فلكن أن تخترن مفارقتي ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التي ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ، ولا ظلم معه ، لأنى سأعطيكن ما هو فوق حقكن.

﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ﴾ لا تردن ذلك ، وإنما ﴿تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾.

أى : وإنما تردن ثواب الله . تعالى . والبقاء مع رسوله ﷺ ، وإيثار شظف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا.

إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أن ﴿اللهَ﴾ . تعالى . ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ﴾ ، بسبب إيمانهن وإحسانهن ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ لا يعلم مقداره إلا الله . تعالى ..

وبهذا التأديب الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله . تعالى . رسوله ﷺ أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى ما فيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية الاختيار.

ثم وجه . سبحانه . الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن أكمل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل ، لأنهن القدوة لغيرهن من النساء ، ولأنهن في بيوتهن ينزل الوحى على رسول الله ﷺ فقال . تعالى . :

﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ

الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾(٣٤)

فقوله ـ سبحانه ـ ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾ .. نداء من الله تعالى ـ لهن ، على سبيل الوعظ والإرشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن لأنهن القدوة لغيرهن ، والفاحشة : ما قبح من الأقوال والأفعال.

والمعنى : يا نساء النبي ﷺ من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف الله ـ تعالى ـ لها العقاب ضعفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما.

قال صاحب الكشاف : وإنما ضوعف عذابهن ، لأن ما قبح من سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل والمرتبة .. وليس لأحد من النساء ، مثل فضل نساء النبي ﷺ ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة .. ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم : أشد منه للعاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح [1].

وقد روى عن زين العابدين بن على بن الحسين ـ رضى الله عنهم ـ أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب ، وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما أجرى الله ـ تعالى ـ على نساء نبيه ﷺ من أن لمسيئنا ضعفين من العذاب ، ولمحسننا ضعفين من الأجر.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ﴾ .. جملة شرطية. والجملة الشرطية لا تقتضي وقوع الشرط ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ .. وكما في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة ببيان أن منزلتهن ـ رضى الله عنهن ـ لا تمنع من وقوع العذاب بهن في حالة ارتكابهن لما نهى الله ـ تعالى ـ عنه ، فقال : ﴿وَكانَ ذلِكَ عَلَى

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٣٦.

﴿اللهِ يَسِيراً﴾ أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيرا وهينا على الله ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يصعب عليه شيء.

هذا هو الجزاء في حالة ارتكابهن ـ على سبيل الفرض ـ لما نهى الله ـ تعالى ـ عنه ، أما في حالة طاعتهن ، فقد بين ـ سبحانه ـ جزاءهن بقوله : ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً﴾.

والقنوت : ملازمة الطاعة لله ـ تعالى ـ ، والخضوع والخشوع لذاته.

أى : ومن يقنت منكن ـ يا نساء النبي ـ لله ـ تعالى ـ ، ويلازم طاعته ، ويحرص على مرضاة رسوله ﷺ ، وتعمل عملا صالحا.

من يفعل ذلك منكن ، نؤتها أجرها الذي تستحقه مضاعفا ، فضلا منا وكرما ، ﴿وَأَعْتَدْنا لَها﴾ أى : وهيأنا لها زيادة على ذلك ﴿رِزْقاً كَرِيماً﴾ لا يعلم مقداره إلا الله ـ تعالى ..

وهكذا نرى أن الله ـ تعالى ـ قد ميز أمهات المؤمنين ، فجعل حسنتهن كحسنتين لغيرهن ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين لغيرهن ـ أيضا ـ وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله ﷺ ما لا يشاهده غيرهن ، من سلوك كريم ، وتوجيه حكيم.

ثم وجه ـ سبحانه ـ إليهن نداء ثانيا فقال : ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾.

أى : يا نساء النبي ، لقد أعطاكن الله ـ تعالى ـ من الفضل ومن سمو المنزلة ما لم يعط غيركن ، فأنتن في مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لكن إن اتقيتن الله ـ تعالى ـ وصنتن أنفسكن عن كل ما نهاكن ـ سبحانه ـ عنه.

قال صاحب الكشاف : أحد في الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد ، ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه. ومعنى قوله ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ﴾ : لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء. أى : إذا استقصيت أمة النساء جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة [1].

وجواب الشرط في قوله ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه. أى : إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء.

قال الآلوسى : قوله ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ شرط لنفى المثلية وفضلهن على النساء ، وجوابه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٣٦.

محذوف دل عليه المذكور .. والمفعول محذوف. أى : إن اتقيتن مخالفة حكم الله ـ تعالى ـ ورضا رسوله ﷺ والمراد إن دمتن على اتقاء ذلك. والمراد به التهييج بجعل طلب الدنيا والميل إلى ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهن ، بمنزلة الخروج من التقوى [1].

فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ما وصلن إليه من منزلة كريمة ، هو بفضل تقواهن وخشيتهن لله ـ تعالى ـ وليس بفضل شيء آخر.

ثم نهاهن ـ سبحانه ـ عن النطق بالكلام الذي يطمع فيهن من في قلبه نفاق وفجور فقال : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.

أى : فلا ترققن الكلام ، ولا تنطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهوة الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع في النطق بالسوء معكن فإن من محاسن خصال المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك ، لغير زوجها من الرجال.

وهكذا يحذر الله ـ تعالى ـ أمهات المؤمنين ـ وهن الطاهرات المطهرات ـ عن الخضوع بالقول ، حتى يكون في ذلك عبرة وعظة لغيرهن في كل زمان ومكان فإن مخاطبة المرأة ـ لغير زوجها من الرجال ـ بطريقة لينة مثيرة للشهوات والغرائز ، تؤدى إلى فساد كبير ، وتطمع من لا خلاق لهم فيها.

ثم أرشدهن ـ سبحانه ـ إلى القول الذي يرضيه فقال : ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾.

أى : اتركن الكلام بطريقة تطمع الذي في قلبه مرض فيكن ، وقلن قولا حسنا محمودا ، وانطقن به بطريقة طبيعية ، بعيدة عن كل ريبة أو انحراف عن الحق والخلق الكريم.

ثم أمرهن ـ سبحانه ـ بعد ذلك بالاستقرار في بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ﴾.

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ﴿وَقَرْنَ﴾ قرأه الجمهور ـ بكسر القاف ـ من القرار تقول : قررت بالمكان ـ بفتح الراء ـ أقر ـ بكسر القاف ـ إذا نزلت فيه ـ والأصل : اقررن ـ بكسر الراء ـ فحذفت الراء الأولى تخفيفا .. ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف .. فصارت الكلمة ﴿قِرْنَ﴾ ـ بكسر القاف ..

وقرأ عاصم ونافع وقرن ـ بفتح القاف ـ من قررت في المكان ـ بكسر الراء ـ إذا أقمت فيه .. والأصل اقررن ـ بفتح الراء ـ فحذفت الراء الأولى لثقل التضعيف ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٥.

وألقيت حركتها على القاف .. فتقول : ﴿قَرْنَ﴾ ـ بالفتح للقاف ـ [1].

والمعنى : الزمن يا نساء النبي ﷺ بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة ، ومثلهن في ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن في مثل هذه الأمور ، هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب اولى ، وإنما خاطب ـ سبحانه ـ أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ، واقتداء غيرهن بهن.

قال بعض العلماء : والحكمة في هذا الأمر : أن ينصرفن إلى رعاية شئون بيوتهن ، وتوفير وسائل الحياة المنزلية التي هي من خصائصهن ، ولا يحسنها الرجال ، وإلى تربية الأولاد في عهد الطفولة وهي من شأنهن. وقد جرت السنة الإلهية بأن أمر الزوجين قسمة بينهما ، فللرجال أعمال من خصائصهم لا يحسنها النساء ، وللنساء أعمال من خصائصهن لا يحسنها الرجال ، فإذا تعدى أحد الفريقين عمله ، اختل النظام في البيت والمعيشة [2].

وقال صاحب الظلال ما ملخصه : والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله ـ تعالى ـ ولكي يهيئ الإسلام للبيت جوه السليم ، ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كي يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ، ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها.

فالأم المكدودة بالعمل وبمقتضياته وبمواعيده .. لا يمكن أن تهيء للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تهيء للطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها.

إن خروج المرأة للعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، في عصور الانتكاس والشرور والضلال [3].

وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا وإنما المقصود بها أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن ، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة في المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة الوالدين والأقارب ، وكقضاء مصالحهن التي لا تقضى إلا بهن .. بشرط أن يكون خروجهن مصحوبا بالتستر والاحتشام وعدم التبذل.

ولذا قال ـ سبحانه ـ بعد هذا الأمر ، ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٧٨.

(٢) صفوة البيان في تفسير القرآن ج ٢ ص ١٨٣. لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

(٣) في ظلال القرآن ج ٢٢ ص ٨٣.

وقوله : ﴿تَبَرَّجْنَ﴾ مأخوذ من البرج . بفتح الباء والراء . وهو سعة العين وحسنها ، ومنه قولهم : سفينة برجاء ، أى : متسعة ولا غطاء عليها.

والمراد به هنا : إظهار ما ينبغي ستره من جسد المرأة ، مع التكلف والتصنع في ذلك.

والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة ، إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة : أول وأولى.

أو المراد بها : الجاهلية الجهلاء التي كانت ترتكب فيها الفواحش بدون تحرج.

وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها : قول مجاهد : كانت المرأة تخرج فتمشى بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية.

ومنها قول قتادة : كانت المرأة في الجاهلية تمشى مشية فيها تكسر.

ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيواري قلائدها وعنقها.

ويبدو لنا أن التبرج المنهي عنه في الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك ، كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب الإسلام وتشريعاته.

والمعنى : الزمن يا نساء النبي بيوتكن ، فلا تخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن في لباس الحشمة والوقار ، ولا تبدى إحداكن شيئا أمرها الله . تعالى . بستره وإخفائه ، واحذرن التشبيه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن ما يثير شهوة الرجال ، ويلفت أنظارهم إليهن.

ثم أتبع . سبحانه . هذا النهى بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن . عَزَّ وَجَلَّ . فقال : ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ﴾ أى : داومن على إقامتها في أوقاتها بخشوع وإخلاص. ﴿وَآتِينَ الزَّكاةَ﴾ التي فرضها الله . تعالى . عليكن. وخص . سبحانه . هاتين الفريضتين بالذكر من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية.

﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى ؛ في كل ما تأتين وتتركن ، لا سيما فيما أمرتن به ، ونهيتن عنه.

وقوله : ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ تعليل لما أمرن به من طاعات ، ولما نهين عنه من سيئات.

والرجس في الأصل : يطلق على كل شيء مستقذر. وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس.

وقوله ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ منصوب على النداء ، أو على المدح. ويدخل في أهل البيت هنا

دخولا أوليا : نساؤه ﷺ بقرينة سياق الآيات.

أى : إنما يريد الله ـ تعالى ـ بتلك الأوامر التي أمركن بها ، وبتلك النواهي التي نهاكن عنها ، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص ، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ..﴾. هذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ها هنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ..

وقد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد بسنده ـ عن أنس بن مالك قال : «إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : الصلاة يا أهل البيت : ثم يتلو هذه الآية ..» (١).

وقال بعض العلماء : والتحقيق ـ إن شاء الله ـ أنهن داخلات في الآية ، بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت ..

ونظير ذلك من دخول الزوجات في اسم أهل البيت ، قوله ـ تعالى ـ في زوجة إبراهيم : ﴿قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

وأما الدليل على دخول غيرهن في الآية ، فهو أحاديث جاءت عن النبي ﷺ أنه قال في على وفاطمة والحسن والحسين ـ رضى الله عنهم ـ : «إنهم أهل البيت» ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا.

وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ولعلى وفاطمة والحسن والحسين.

فإن قيل : الضمير في قوله : ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ وفي قوله : ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ضمير الذكور ، فلو كان المراد أزواج النبي ﷺ لقيل ليذهب عنكن ويطهركن؟.

فالجواب : ما ذكرناه من أن الآية تشملهن وتشمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجموع ونحوها ..

ومن أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل ،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٠٦ فقد ساق بضعة أحاديث في هذا المعنى.

وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله . تعالى . في موسى ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ وقوله ﴿سَآتِيكُمْ﴾ والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد ..

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت في الآية هم من تحرم عليهم الصدقة [1].

ثم ختم . سبحانه . هذه التوجيهات الحكيمة بقوله . عزّ وجلّ . : ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ ...

أي : واذكرن في أنفسكن ذكرا متصلا ، وذكّرن غيركن على سبيل الإرشاد ، بما يتلى في بيوتكن من آيات الله البينات الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبي ﷺ ، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم والآداب والمواعظ ..

ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم ، وبالحكمة : أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته ..

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أنهن . وقد خصهن الله . تعالى . بجعل بيوتهن موطنا لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة . أحق بهذا التذكير ، وبالعمل الصالح من غيرهن.

﴿إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ أي : لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ، وقد أنزل عليكم ما فيه صلاح أموركم في الدنيا والآخرة.

وبعد هذه التوجيهات الحكيمة لأمهات المؤمنين ، ساق . سبحانه . توجيها جامعا لأمهات الفضائل ، وبشر المتصفين بهذه الفضائل بالمغفرة والأجر العظيم فقال . تعالى . :

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(٣٥)

---

(١) أضواء البيان ج ٦ ص ٥٧٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطي . رحمه الله ..

ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما ، عن أم سلمة . رضى الله عنها . قالت : قلت للنبي ﷺ : مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت : فلم يرعني منه ﷺ ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وهو يتلو هذه الآية : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ.﴾ ...

وأخرج الترمذي وغيره عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ، فنزلت هذه الآية.

وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على أزواج النبي ﷺ فقلن : قد ذكركن الله . تعالى . في القرآن ، وما يذكرنا بشيء أما فينا ما يذكر ، فأنزل الله . تعالى . هذه الآية [1].

والمعنى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ والإسلام : الانقياد لأمر الله . تعالى . وإسلام الوجه له . سبحانه . وتفويض الأمر إليه وحده.

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ والإيمان : هو التصديق القلبي ، والإذعان الباطني ، لما جاء به النبي ﷺ .

﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ والقنوت : هو المواظبة على فعل الطاعات عن رضا واختيار.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ والصدق : هو النطق بما يطابق الواقع ، والبعد عن الكذب والقول الباطل ..

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ والصبر : هو توطين النفس على احتمال المكاره والمشاق في سبيل الحق ، وحبس النفس عن الشهوات.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ والخشوع : صفة تجعل القلب والجوارح في حالة انقياد تام لله . تعالى . ومراقبة له ، واستشعار لجلاله وهيبته.

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ والتصدق : تقديم الخير إلى الغير بإخلاص ، دفعا لحاجته ، وعملا على عونه ومساعدته.

﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ والصوم : هو تقرب إلى الله . تعالى . ، واستعلاء على مطالب الحياة ولذائذها ، من أجل التقرب إليه . سبحانه . بما يرضيه.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ وحفظ الفرج : كناية عن التعفف والتطهر والتصون عن أن يضع الإنسان شهوته في غير الموضع الذي أحله الله . تعالى ..

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٢ ص ٢١.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ﴾ وذكر الله ـ تعالى ـ يتمثل في النطق بما يرضيه كقراءة القرآن الكريم ، والإكثار من تسبيحه ـ عزّ وجلّ ـ وتحميده وتكبيره ..

وفي شعور النفس في كل لحظة بمراقبته ـ سبحانه ..

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات من الرجال والنساء ﴿أَعَدَّ اللهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ واسعة لذنوبهم ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ لا يعلم مقداره إلا هو ـ عزّ وجلّ ..

وهكذا نجد القرآن الكريم يسوق الصفات الكريمة ، التي من شأن الرجل والمرأة إذا ما اتصفا بها ، أن يسعدا في دنياهما وفي أخراهما ، وأن يسعد بهما المجتمع الذي يعيشان فيه ...

إنها صفات نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبنفسه ، وبغيره ، تنظيما حكيما ، يهدى الى الرشد ، ويوصل إلى الظفر والنجاح.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقوق الواجبة على المسلم نحو خالقه ـ عزّ وجلّ ـ ونحو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعن تأكيد إبطال عادة التبني التي كانت منتشرة قبل نزول هذه السورة ، وعن بيان الحكمة لهذا الإبطال ، وعن علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بغيره من أتباعه .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً (٣٩) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(٤٠)

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ روايات منها : أنها نزلت في زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ خطبها رسول الله ﷺ لزيد ابن حارثة فاستنكفت ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية.

وفي رواية أنها قالت : يا رسول الله ، لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ «بل فانكحيه» فقالت : يا رسول الله ، أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان ، أنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية. فقالت : يا رسول الله ، قد رضيته لي زوجا؟ قال : نعم. قالت : إذا لا أعصى رسول الله ﷺ قد زوجته نفسي.

وذكر بعضهم أنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء .. يعنى بعد صلح الحديبية ، فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فزوجها من مولاه زيد بن حارثة ، بعد فراقه لزينب فسخطت هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد [١].

قال ابن كثير : هذه الآية عامة في جميع الأمور. وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأى ولا قول ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

وفي الحديث الشريف : «والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

والمعنى : لا يصح ولا يحل لأى مؤمن ولا لأية مؤمنة ﴿إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى : إذا أراد الله ورسوله أمرا ، من الأمور.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٨٦. وتفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤١٧.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ للإشعار ، بأن ما يفعله الرسول ﷺ إنما يفعله بأمر الله ـ تعالى ـ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وقوله : ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أى : لا يصح لمؤمن أو مؤمنة إذا أراد الله ورسوله أمرا ، أن يختاروا ما يخالف ذلك ، بل يجب عليهم أن يذعنوا لأمره ﷺ وأن يجعلوا رأيهم تابعا لرأيه في كل شيء.

وكلمة الخيرة : مصدر من تخيّر ، كالطّيرة مصدر من تطيّر. وقوله : ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ متعلق بها ، أو بمحذوف وقع حالا منها.

وجاء الضمير في قوله ﴿لَهُمُ﴾ وفي قوله ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ بصيغة الجمع : رعاية للمعنى إذ أن لفظي مؤمن ومؤمنة وقعا في سياق النفي ، فيعمان كل مؤمن وكل مؤمنة.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ بيان لسوء عاقبة من يخالف أمر الله ورسوله.

أى : ومن يعص الله ورسوله في أمر من الأمور ، فقد ضل عن الحق والصواب ضلالا واضحا بينا.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ قصة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة في الجاهلية فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ .. أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن قلت للذي أنعم الله ـ تعالى ـ عليه بنعمة الإيمان ، وهو زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ..

وأنعمت عليه ، بنعمة العتق ، والحرية ، وحسن التربية ، والمحبة ، والإكرام ..

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾ أى : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله في أمرها ، واصبر على ما بدر منها في حقك ..

وكان زيد ـ رضى الله عنه ـ قد اشتكى للنبي ﷺ من تطاولها عليه ، وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتخشينها له القول ، وقال : يا رسول الله ، إنى أريد أن أطلقها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ معطوف على ﴿تَقُولُ﴾. أى : تقول له ذلك وتخفى في نفسك الشيء الذي أظهره الله ـ تعالى ـ لك ، وهو إلهامك بأن زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستتزوجها بأمر الله ـ عزّ وجلّ ..

قال الآلوسى : والمراد بالموصول ﴿مَا﴾ على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن على

ابن الحسين ما أوحى الله ـ تعالى ـ به إليه من أن زينب سيطلقها زيد. ويتزوجها هو ﷺ .

وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهرى ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي ، وغيرهم [١].

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ جملة : الله مبديه صلة الموصول الذي هو ﴿مَا﴾. وما أبداه ـ سبحانه ـ هو زواجه ﷺ بزينب ، وذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها﴾ وهذا هو التحقيق في معنى الآية ، الذي دل عليه القرآن ، وهو اللائق بجنابه ﷺ .

وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه في نفسه صلى‌الله‌عليه‌وسلم وأبداه الله ـ تعالى ـ ، هو وقوع زينب في قلبه ﷺ ومحبته لها ، وهي زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عند ما رآها : سبحان مقلب القلوب .. إلى آخر ما قالوا ... كله لا صحة له .. [٢].

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم ـ وغيرهما ـ هاهنا آثارا عن بعض السلف ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها. فلا نوردها .. [٣].

هذا ، ولفضيلة شيخنا الجليل الدكتور أحمد السيد الكومى رأى في معنى هذه الجملة الكريمة ، وهو أن ما أخفاه الرسول في نفسه : هو علمه بإصرار زيد على طلاقه لزينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه. وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها.

وما أبداه الله ـ تعالى ـ : هو علم الناس بحال زيد معها ، ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره ، وتفخر عليه بنسبها ..

فيكون المعنى : تقول للذي أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى في نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرة زوجه زينب لوجود التنافر بينهما .. مع أن الله ـ تعالى ـ قد أظهر ذلك ، عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة ..

ومما يؤيد هذا الرأى أنه لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة ما يدل دلالة صريحة على أن الله

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٤.

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٥٨٠ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٠.

قد أوحى إلى نبيه ﷺ أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه ﷺ سيتزوجها ، وكل ما ورد في ذلك هي تلك الرواية التي سبق أن ذكرناها عن على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ..

قال صاحب الظلال : وهذا الذي أخفاه النبي ﷺ في نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله. ولم يكن أمرا صريحا من الله. وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله. ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها من إعلانه. ولكنه ﷺ كان أمام إلهام يجده في نفسه ، ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس به حتى أذن الله بكونه. فطلق زيد زوجه في النهاية. وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد .. (١).

وهذه الأقوال جميعها تهدم هدما تاما كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث ، والتي تشبث بها أعداء الإسلام في كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه.

أى : تقول له ما قلت ، وتخفى في نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما ألهمك الله ـ تعالى ـ به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله ـ تعالى ـ أحق بالخشية من كل ما سواه.

فالجملة الكريمة عتاب رقيق من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ وإرشاد له إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما.

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة من زواجه ﷺ بزينب فقال : ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها ، لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾.

والوطر : الحاجة. وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشيء ، يقال : قضى فلان وطره من هذا الشيء : إذا أخذ أقصى حاجته منه.

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته العظمى في مفارقتها.

أى : فلما قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكها ، أى : جعلناها زوجة لك ، ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أو ضيق أو مشقة ﴿فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ﴾ أى : في الزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين تبنوهم ﴿إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾

---

(١) في ظلال القرآن ج ٢٢ ص ٥٩٥.

أى : إذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم ، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على الذين سبق لهم تبنى هؤلاء الأدعياء أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ أى : وكان ما يريده الله ـ تعالى ـ حاصلا لا محالة.

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها﴾ .. أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذي ولى تزويجها منه هو الله ـ عزّ وجلّ ـ .. بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولىّ ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر ..

روى الإمام أحمد عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب ـ رضى الله عنها ـ قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : «اذهب فاذكرها على» فانطلق حتى آتاها وهي تخمر عجينها. قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها. وجعلت أقول ـ وقد وليتها ظهري ، ونكصت على عقبى ـ يا زينب. أبشرى. أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي ـ أى : أستشيره في أمرى ـ ، فقامت إلى مسجدها. ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ...

وروى البخاري عن أنس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات .. [(١)].

وقال الإمام الشوكانى : وقوله : ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ ..﴾.

أى : في التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا ، كما كانت تفعله العرب ، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون .. وكانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه ، كما تحرم نساء أبنائهم على الحقيقة. والأدعياء : جمع دعى ، وهو الذي يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة. فأخبرهم الله ـ تعالى ـ أن نساء الأدعياء حلال لهم ـ بعد انقضاء العدة ـ بخلاف الأبناء من الصلب ، فإن نساءهم تحرم على الآباء بنفس العقد عليها .. [(٢)].

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ الحكمة من زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش ، التي كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة ـ الذي كان الرسول قد تبناه وأعتقه ـ بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة في تقرير هذه الحكمة وتأكيدها ، وإزالة كل ما علق بالأذهان بشأنها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ.﴾ ..

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٠.

(٢) تفسير فتح القدير ج ٦ ص ٢٨٥.

أى : ما كان على النبي ﷺ من حرج أو لوم أو مؤاخذة ، في فعل ما أحله الله له ، وقدره عليه ، وأمره به من زواجه بزينب بعد أن طلقها ابنه بالتبني زيد بن حارثة فقوله : ﴿فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ أى : فيما قسمه له ، وقدره عليه ، مأخوذ من قولهم : فرض فلان لفلان كذا ، أى : قدر له هذا الشيء ، وجعله حلالا له.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ زيادة في تأكيد هذه الحكمة ، وفي تقرير صحة ما فرضه الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ.

أى : ما فعله الرسول ﷺ من زواجه بزينب بعد طلاقها من زيد ، قد جعله الله ـ تعالى ـ سنة من سننه في الأمم الماضية ، وكان أمر الله ـ تعالى ـ قدرا مقدورا. أى : واقعا لا محالة.

والقدر : إيجاد الله ـ تعالى ـ للأشياء على قدر مخصوص حسبما تقتضي حكمته.

ويقابله القضاء : وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه. وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر. والأظهر أن قدر الله ـ تعالى ـ هنا بمعنى قضائه.

ولفظ ﴿مَقْدُوراً﴾ وصف جيء به للتأكيد ، كما في قولهم : ظل ظليل ، وليل أليل ، ثم مدح ـ سبحانه ـ هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون دعوته دون أن يخشوا أحدا سواه فقال : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ﴾ للذين يكلفهم ـ سبحانه ـ بتبليغها لهم. والموصول في محل جر صفة للذين خلوا. أو منصوب على المدح.

﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أى : ويخافونه وحده ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ ـ عزوجل ـ في كل ما يأتون وما يذرون ، وما يقولون وما يفعلون.

﴿وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً﴾ أى : وكفى بالله ـ تعالى ـ محاسبا لعباده على نيات قلوبهم وأفعال جوارحهم ، وأقوال ألسنتهم.

ثم حدد ـ سبحانه ـ وظيفة رسوله ﷺ وأثنى عليه بما هو أهله ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ أى : لم يكن محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم أبا لأحد من رجالكم أبوة حقيقية ، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث ، والنفقة والزواج ... وزيد كذلك ليس ابنا له ﷺ فزواجه ﷺ بزينب التي طلقها زيد لا حرج فيه ، ولا شبهة في صحته ، وقوله : ﴿وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ استدراك لبيان وظيفته وفضله.

أى : لم يكن ﷺ أبا لأحدكم على سبيل الحقيقة ، ولكنه كان رسولا من عند الله ـ تعالى ـ ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان ـ أيضا ـ خاتم النبيين ، بمعنى

أنهم ختموا به ، فلا نبي بعده ، فهو كالخاتم والطابع لهم. ختم الله ـ تعالى ـ به الرسل والأنبياء ، فلا رسول ولا نبي بعده إلى قيام الساعة.

قال القرطبي : قرأ الجمهور ﴿وَخاتِمَ﴾ ـ بكسر التاء ـ بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء آخرهم.

وقرأ عاصم ﴿وَخاتَمَ﴾ ـ بفتح التاء ـ بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم.

وقيل : الخاتم والخاتم ـ بالفتح والكسر ـ لغتان ، مثل طابع وطابع ..

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» [(١)].

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث في هذا المعنى منها ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون».

ثم قال ـ رحمه‌الله ـ بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله ـ تعالى ـ بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر ـ تعالى ـ في كتابه ، وأخبر رسوله في السنة المتواترة عنه ، أنه لا نبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم .. [(٢)].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

أى : وكان ـ عزوجل ـ وما زال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم في حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد ﷺ لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ، ليزيدكم ـ سبحانه ـ من فضله وإحسانه.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٩٦.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٤.

ثم جاءت الآيات الكريمة بعد ذلك لتؤكد هذا المعنى وتقرره ، فأمرت المؤمنين بالإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ ومن تسبيحه وتحميده وتكبيره ، فقال ـ سبحانه ـ :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾(٤٤)

والمقصود بذكر الله ـ تعالى ـ في قوله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ ما يشمل التهليل والتحميد والتكبير وغير ذلك من الأقوال والأفعال التي ترضيه ـ عزّ وجلّ ..

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، أكثروا من التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بما يرضيه ، في كل أوقاتكم وأحوالكم ، فإن ذكر الله ـ تعالى ـ هو طب النفوس ودواؤها ، وهو عافية الأبدان وشفاؤها ، به تطمئن القلوب ، وتنشرح الصدور ..

والتعبير بقوله : ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ يشعر بأن من شأن المؤمن الصادق في إيمانه ، أن يواظب على هذه الطاعة مواظبة تامة.

ومن الأحاديث التي وردت في الحض على الإكثار من ذكر الله ، ما رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء .. رضى الله عنه .. قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ـ أى : الفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ، قالوا : وما هو يا رسول الله؟ قال : ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ».

وعن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير؟ قال : «من طال عمره وحسن عمله».

وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرني بأمر أتشبث به. قال : «لا يزال لسانك رطبا بذكر الله».

وقال ابن عباس : لم يفرض الله . تعالى . فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها في حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله . تعالى . لم يجعل له حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله ، وأمرهم به في الأحوال كلها. فقال . تعالى . : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ﴾ .. وقال . سبحانه . : ﴿فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ﴾ .. أى : بالليل وبالنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .. [(١)].

وقوله : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ معطوف على ﴿اذْكُرُوا.﴾ .. والتسبيح : التنزيه. مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع في الماء أو في الهواء. فالمسبح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من السوء. والبكرة : أول النهار. والأصيل : آخره.

أى : أكثروا . أيها المؤمنون . من ذكر الله . تعالى . في كل أحوالكم ، ونزهوه . سبحانه . عن كل ما لا يليق به ، في أول النهار وفي آخره.

وتخصيص الأمر بالتسبيح في هذين الوقتين ، لبيان فضلهما ، ولمزيد الثواب فيهما ، وهذا لا يمنع أن التسبيح في غير هذين الوقتين له ثوابه العظيم عند الله . تعالى ..

. وأيضا . خص . سبحانه . التسبيح بالذكر مع دخوله في عموم الذكر ، للتنبيه على مزيد فضله وشرفه ..

قال صاحب الكشاف : والتسبيح من جملة الذكر. وإنما اختصه . تعالى . من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال .. [(٢)].

وقوله . سبحانه . : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ .. استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، من الأمر بالإكثار من الذكر ومن التسبيح.

والصلاة من الله . تعالى . على عباده معناها : الرحمة بهم ، والثناء عليهم ، كما أن الصلاة من الملائكة على الناس معناها : الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة.

قال القرطبي : قوله . تعالى . : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ .. قال ابن عباس : لما نزل : ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.﴾ .. قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصة ، وليس لنا فيه شيء ، فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٤٥.

ثم قال القرطبي : قلت : وهذه نعمة من الله ـ تعالى ـ على هذه الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضلها على سائر الأمم. وقد قال : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

والصلاة من الله على العبد هي رحمته له ، وبركته لديه. وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١).

وقوله : ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ متعلق بقوله : ﴿يُصَلِّي﴾ أى : يرحمكم ـ سبحانه ـ برحمته الواسعة ، ويسخر ملائكته للدعاء لكم ، لكي يخرجكم بفضله ومنته ، من ظلمات الضلال والكفر إلى النور والهداية والإيمان.

﴿وَكانَ﴾ ـ سبحانه ـ وما زال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ رحمة عظيمة واسعة ، تشمل الدنيا والآخرة.

أما رحمته لهم في الدنيا فمن مظاهرها : هدايته إياهم إلى الصراط المستقيم.

وأما رحمته ـ سبحانه ـ لهم في الآخرة فمن مظاهرها : أنهم يأمنون من الفزع الأكبر.

وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال : «أترون هذه تلقى ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟ قالوا : لا. قال : فو الله لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

ثم بين ـ عزّ وجلّ ـ ما أعده للمؤمنين في الآخرة فقال : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾.

والتحية : أن يقول قائل للشخص : حياك الله ، أى : جعل لك حياة طيبة.

وهذه التحية للمؤمنين في الآخرة ، تشمل تحية الله ـ تعالى ـ لهم ، كما في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ (٢).

وتشمل تحية الملائكة لهم ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٣).

كما تشمل تحية بعضهم لبعض كما في قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ، وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٤).

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٩٨.

(٢) سورة يس. الآية ٨٥.

(٣) سورة الرعد. الآية ٢٢ ، ٢٣.

(٤) سورة يونس. الآية ١٠.

أى : تحية المؤمنين يوم يلقون الله ـ تعالى في الآخرة ، أو عند قبض أرواحهم ، سلام وأمان لهم من كل ما يفزعهم أو يخيفهم أو يزعجهم ..

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ ـ سبحانه ـ يوم القيامة ﴿أَجْراً كَرِيماً﴾ هو الجنة التي فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى النبي ﷺ حدد له فيه وظيفته ، وأمره بتبشير المؤمنين بما يسرهم ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾(٤٨)

وقوله : ﴿وَمُبَشِّراً﴾ من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر.

وقوله : ﴿وَنَذِيراً﴾ من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف لكي يجتنب ويحذر.

والمعنى : يا أيها النبي الكريم ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ﴾ إلى الناس ﴿شاهِداً﴾ أى : شاهدا لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا.

﴿وَمُبَشِّراً﴾ أى : ومبشرا المؤمنين منهم برضا الله ـ تعالى ..

﴿وَنَذِيراً﴾ أى : ومنذرا للكافرين بسوء العاقبة ، بسبب إعراضهم عن الحق الذي جئتهم به من عند الخالق ـ عزوجل ..

وقدم ـ سبحانه ـ التبشير على الإنذار ، تكريما للمؤمنين المبشرين ، وإشعارا بأن الأصل في رسالته ﷺ التبشير ، فقد أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين.

وقوله : ﴿وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ أى : وأرسلناك ـ أيضا ـ داعيا للناس إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وهذه الدعوة لهم منك كائنة بإذنه ـ سبحانه ـ وبأمره وبتيسيره.

فالتقييد بقوله ﴿بِإِذْنِهِ﴾ لبيان أنه ﷺ لم يدع الناس إلى ما دعاهم إليه من وجوب إخلاص العبادة له ـ سبحانه ـ ، من تلقاء نفسه ، وإنما دعاهم إلى ذلك بأمر الله ـ تعالى ـ وإذنه ومشيئته ، وللإشارة إلى أن هذه الدعوة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا صاحبها إذن الله ـ تعالى ـ للنفوس بقبولها.

وقوله : ﴿وَسِراجاً مُنِيراً﴾ معطوف على ما قبله. والسراج : المصباح الذي يستضاء به في الظلمات.

أى : وأرسلناك ـ أيها الرسول الكريم ـ بالدين الحق ، لتكون كالسراج المنير الذي يهتدى به الضالون ، ويخرجون بسببه من الظلمات إلى النور.

ووصف السراج بالإنارة ، لأن من المصابيح ما لا يضيء إذا لم يوجد به ما يضيئه من زيت أو ما يشبهه.

قال صاحب الكشاف : جلى الله ـ تعالى ـ بنبيه ﷺ ظلمات الشرك ، فاهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به. أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار. ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه ـ أى : زيته ـ ودقت فتيلته .. [1].

وبعد أن وصف الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بهذه الصفات الكريمة ، اتبع ذلك بأمره بتبشير المؤمنين برضا الله عنهم ، وبنهيه عن طاعة الكافرين ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.﴾ .. أى : انظر ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى أحوال الناس وإلى موقفهم من دعوتك. وبشر المؤمنين منهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿فَضْلاً كَبِيراً﴾ أى : عطاء كبيرا ، وأجرا عظيما ، ومنزلة سامية بين الأمم.

﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ فيا يشيرون به عليك من ترك الناس وما يعبدون ، أو من عدم بيان ما هم عليه من باطل وجهل ، بل اثبت على ما أنت عليه من حق ، وامض في تبليغ دعوتك دون أن تخشى أحدا إلا الله ـ تعالى ..

﴿وَدَعْ أَذاهُمْ﴾ أى : ولا تبال بما ينزلونه بك من أذى ، بسبب دعوتك إياهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، واصبر على ما يصيبك منهم حتى يحكم الله ـ تعالى ـ بحكمه العادل بينك وبينهم.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٤٧.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في كل أمورك ﴿وَكَفى بِاللهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿وَكِيلاً﴾ توكل إليه الأمور ، وترد إليه الشئون ..

هذا ، ومن الأحاديث النبوية التي اشتملت على بعض المعاني التي اشتملت عليها هذه الآيات ، ما رواه الإمام البخاري والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال : والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وحرزا للمؤمنين ، أنت عبدى ورسولي ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله ـ تعالى ـ حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا [(١)].

ثم عادت السورة الكريمة ـ بعد هذا الحديث الجامع عن وظيفة الرسول ﷺ وعن فضله ـ إلى الحديث عن جانب من أحكام الزواج والطلاق ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾(٤٩)

والمراد بالنكاح هنا في قوله ﴿إِذا نَكَحْتُمُ﴾ العقد ، لأن الحديث في حكم المرأة التي تم طلاقها قبل الدخول بها.

وهذا الحكم شامل للمؤمنات ولغيرهن كالكتابيات ، إلا أن الآية الكريمة خصت المؤمنات بالذكر ، للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا للنطفة.

والعدة : هي الشيء المعدود. وعدة المرأة معناها : المدة التي بانقضائها يحل لها الزواج من شخص آخر ، غير الذي كان زوجا لها.

والمعنى : يا من آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان ، ﴿إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ﴾ أى : إذا عقدتم عليهن عقد النكاح ، ولم يبق بينكم وبينهن سوى الدخول بهن.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٤٧.

﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ﴾ أى : ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن.

قال الآلوسى : وفائدة المجيء بثم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على الفور كثبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة ، إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخى الطلاق ، له دخل في إيجاب العدة ، لاحتمال الملاقاة والجماع سرا .. [1].

أى : أن الحكم الذي اشتملت عليه الآية الكريمة ، ثابت سواء تم الطلاق بعد عقد الزواج مباشرة ، أم بعده بمدة طويلة.

وفي التعبير عن الجماع بالمس كناية لطيفة. من شأنها أن تربى في الإنسان حسن الأدب ، وسلامة التعبير ، وتجنب النطق بالألفاظ التي تخدش الحياء.

وقوله : ﴿فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها﴾ جواب إذا ، وبيان للحكم المترتب على طلاق المرأة قبل الدخول بها.

أى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فلا عدة عليهن ، بل من حقهن أن يتزوجن بغيركم ، بعد طلاقكم لهن بدون التقيد بأية مدة من الزمان.

قال الجمل : وقوله : ﴿تَعْتَدُّونَها﴾ صفة لعدة. وتعتدونها تفتعلونها ، إما عن العد ، وإما عن الاعتداد ، أى ، تحسبونها أو تستوفون عددها ، من قولك : عد فلان الدراهم فاعتدها ، أى : فاستوفى عددها .. [2].

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن المطلقة قبل الدخول بها لا عدة عليها إطلاقا بنص الكتاب وإجماع الأمة ، أما المطلقة بعد الدخول بها فعليها العدة إجماعا.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه ، بالنسبة لمن طلقت قبل الدخول بها.

وأصل المتعة والمتاع ، ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك. ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه ، لتنتفع به ، جبرا لخاطرها ، وتعويضا لها عما نالها بسبب هذا الفراق.

وأصل التسريح : أن ترعى الإبل السرح ، وهو شجر له ثمرة ، ثم أطلق على كل إرسال في الرعي ، ثم على كل إرسال وإخراج.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٤٨.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٤٣.

والتسريح الجميل : هو الذي لا ضرر معه. وإنما معه الكلام الطيب ، والفعل الحسن.

والمعنى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فأعطوهن من المال ما يجبر خاطرهن ، وما يكون عوضا عن فراقهن .. وأطلقوا سراحهن ليستأنفن حياة جديدة مع غيركم ، وساعدوهن على ذلك إن استطعتم ، فإن من شأن العقلاء أن يعاشروا أزواجهن بالمعروف ، وأن يفارقوهن ـ أيضا ـ بالمعروف.

ومن العلماء من يرى أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل في حال مفارقتها قبل الدخول بها ، لأن الآية الكريمة قد أمرت بذلك ، والأمر يقتضى الوجوب.

وقد بينا ذلك بالتفصيل عند تفسيرنا لقوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة : ﴿لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ ، عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ، وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

والملاحظ أن الآية الكريمة التي معنا ، قد أضافت حكما جديدا ، وهو أنه لا عدة على المطلقة قبل الدخول بها.

ومن مجموع هذه الآيات ، نرى أحكم التشريعات ، وأسمى التوجيهات.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله عليه. وتكريمه له حيث خصه بأمور تتعلق بالنكاح لم يخص بها أحدا غيره. فقال ـ تعالى ـ :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة ص ٥٤٠ وما بعدها.

خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾(٥٢)

والمراد بالأجور في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ.﴾ .. المهور التي دفعها ﷺ لأزواجه.

قال ابن كثير : يقول ـ تعالى ـ مخاطبا نبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأن قد أحل له من النساء أزواجه اللائي أعطاهن مهورهن ، وهي الأجور هاهنا ، كما قاله مجاهد وغير واحد.

وقد كان مهره ﷺ لنسائه : اثنتي عشرة أوقية ونصف أوقية. فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشيّ ـ رحمه‌الله ـ بأربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها.

وفي قوله : ﴿آتَيْتَ أُجُورَهُنَ﴾ إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملا للمرأة دون إبقاء شيء منه ، هو الأكمل والأفضل ، وأن تأخير شيء منه إنما هو أمر مستحدث ، لم يكن معروفا عند السلف الصالح.

وأطلق على المهر أجر لمقابلته الاستمتاع الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما يقابل الأجر بالمنفعة.

وقوله : ﴿وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ بيان لنوع آخر مما أحله الله ـ تعالى ـ لنبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم .

والمعنى : يا أيها النبي إنا أحللنا لك ـ بفضلنا ـ على سبيل التكريم والتشريف لك ، الاستمتاع بأزواجك الكائنات عندك ، واللاتي أعطيتهن مهورهن ـ كعائشة وحفصة وغيرهما ـ ، لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها.

كما أحللنا لك التمتع بما ملكت يمينك من النساء اللائي دخلن في ملكك عن طريق الغنيمة في الحرب ، كصفية بنت حيي بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث.

ثم بين ـ سبحانه ـ نوعا ثالثا أحله ـ سبحانه ـ له فقال : ﴿وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

أى : وأحللنا لك ـ أيضا ـ الزواج بالنساء اللائي تربطك بهن قرابة من جهة الأب ، أو قرابة من جهة الأم.

وقوله ﴿اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾ إشارة إلى ما هو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر.

والمراد بالمعية هنا. الاشتراك في الهجرة. لا المصاحبة فيها ، لما في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن ملكة سبأ : ﴿قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

قال بعض العلماء : وقد جاء في الآية الكريمة عدة قيود ، ما أريد بواحد منها إلا التنبيه على الحالة الكريمة الفاضلة.

منها : وصف النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم باللاتى آتى أجورهن ، فإنه تنبيه على الحالة الكاملة ، فإن الأكمل إيتاء المهر كاملا دون أن يتأخر منه شيء.

ومنها : أن تخصيص المملوكات بأن يكن من الفيء ، فإن المملوكة إذا كانت غنيمة من أهل الحرب كانت أحل وأطيب مما يشترى من الجلب ، لأن المملوكة عن طريق الغنيمة تكون معروفة الحال والنشأة.

ومنها : قيد الهجرة في قوله : ﴿اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ، ولا شك أن من هاجرت مع النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أولى بشرف زوجية النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ممن عداها [1].

---

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٢٢ للمرحوم الشيخ محمد على السائس.

ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من النساء، أحله لنبيه ﷺ فقال: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ، إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والجملة الكريمة معطوفة على مفعول ﴿أَحْلَلْنا﴾.

وقد اشتملت هذه الجملة على شرطين، الثاني منهما قيد للأول، لأن هبتها نفسها له ﷺ لا توجب حلها له إلا بقبوله الزواج منها.

وقوله ﴿يَسْتَنْكِحَها﴾ بمعنى ينكحها. يقال: نكح واستنكح، بمعنى عجل واستعجل: ويجوز أن يكون بمعنى طلب النكاح.

وقوله: ﴿خالِصَةً﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿وَهَبَتْ﴾ أى: حال كونها خالصة لك دون غيرك. أو نعت لمصدر مقدر. أى: هبة خالصة..

والمعنى وأحللنا لك كذلك امرأة مؤمنة، إن ملكتك نفسها بدون مهر وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك، وهذا الإحلال إنما هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين، لأن غيرك من المؤمنين لا تحل لهم من وهبت نفسها لواحد منهم إلا بولي ومهر.

وقد ذكروا ممن وهبن أنفسهن له ﷺ خولة بنت حكيم، وأم شريك بنت جابر، وليلى بنت الحطيم..

وقد اختلف العلماء في كونه ﷺ قد تزوج بواحدة من هؤلاء الواهبات أنفسهن له أم لا.

والأرجح أنه ﷺ لم يتزوج بواحدة منهن، وإنما زوجهن لغيره. ويشهد لذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي، أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك. فقامت قياما طويلا، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة. فقال رسول الله ﷺ: هل عندك من شيء تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزارى هذا. فقال ﷺ: إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئا. فقال: لا أجد شيئا. فقال: التمس ولو خاتما من حديد، فقام الرجل فلم يجد شيئا. فقال له النبي ﷺ: هل معك من القرآن شيء؟ قال نعم. سورة كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ: زوجتكها بما معك من القرآن [1].

---

(١) صحيح البخاري «كتاب النكاح» ج ٧ ص ١٧.

وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال في الآية الكريمة : الإذن العام والتوسعة عليه ﷺ في الزواج من هذه الأصناف ، والإباحة له في أن يختار منهن من تقتضي الحكمة الزواج منها ، واختصاصه ﷺ بأمور تتعلق بالنكاح ، لا تحل لأحد سواه.

ولهذا قال . سبحانه . بعد ذلك : ﴿قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ .. فإن هذه الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها ، من اختصاصه ﷺ بأمور في النكاح لا تحل لغيره ، كحل زواجه ممن تهبه نفسها بدون مهر ، إن قبل ذلك العرض منها.

أى : هذا الذي أحللناه لك . أيها الرسول الكريم . هو خاص بك ، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم في حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فلا يجوز لهم الإخلال بها ، كما لا يجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله . تعالى . به ، على سبيل التوسعة عليك ، والتكريم لك ، فهم لا يجوز لهم التزوج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لا يجوز لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة.

وعلمنا . أيضا . ما فرضناه عليهم بالنسبة لما ملكت أيمانهم ، من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه ، لا ممن لا يجوز سبيه ، أو كان له عهد مع المسلمين.

وقوله : ﴿لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ متعلق بقوله : ﴿أَحْلَلْنا﴾ وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون المعنى :

أحللنا من آتيت أجورهن من النساء ، والمملوكات ، والأقارب ، والواهبة نفسها لك ، لندفع عنك الضيق والحرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك بتبليغه.

وقيل : إنه متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، فيكون المعنى : خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكي لا يكون عليك حرج في البحث عنه.

ويرى بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما بينا من أحكام خاصة بك ، حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون منا تفعله هو بوحي منا وليس من عند نفسك.

ثم ختم . سبحانه . الآية بقوله : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أى : وكان الله . تعالى . وما زال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين.

وقوله . عزّ وجلّ . ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ﴾ شروع في بيان جانب آخر من التوسعة التي وسعها . سبحانه . لنبيه ﷺ في معاشرته لنسائه ، بعد بيان ما أحله له من النساء.

وقوله : ﴿تُرْجِي﴾ من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية ، وقرئ مهموزا وغير مهموز. تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ، ونحيته جانبا حتى يحين موعده المناسب.

وقوله : ﴿وَتُؤْوِي﴾ من الإيواء بمعنى الضم والتقريب ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ﴾ .. أى : ضمه إليه وقربه منه.

والضمير في قوله ﴿مِنْهُنَ﴾ يعود إلى زوجاته صلى‌الله‌عليه‌وسلم اللائي كن في عصمته.

قال القرطبي ما ملخصه : واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها : التوسعة على النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم في ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته.

وهذا القول هو الذي يناسب ما مضى ، وهو الذي ثبت معناه في الصحيح ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كنت أغار على اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل؟ فلما أنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ.﴾ قالت : قلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

قال ابن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعول عليه. والمعنى المراد : هو أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم كان مخيرا في أزواجه ، إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك. لكنه كان يقسم من جهة نفسه ، تطييبا لنفوس أزواجه.

وقيل كان القسم واجبا عليه ثم نسخ الوجوب بهذه الآية.

وقيل : الآية في الطلاق. أى : تطلق من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء.

وقيل : المراد بالآية : الواهبات أنفسهن له صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

ثم قال القرطبي : وعلى كل معنى ، فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم والإباحة ، وما اخترناه أصح والله أعلم [1].

أى : لقد وسعنا عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ في معاشرة نسائك ، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن ، وأن تضم إليك من شئت منهن ، بدون التقيد بوجوب القسم بينهن ، كما هو الشأن بالنسبة لأتباعك حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج في البيتوتة وما يشبهها.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢١٤.

ومع هذا التكريم من الله ـ تعالى ـ لنبيه ، إلا أنه ﷺ كان يقسم بينهن إلى أن لحق بربه؟ عدا السيدة سودة ، فإنها قد وهبت ليلتها لعائشة ..

أخرج البخاري عن عائشة رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجى من تشاء منهن ..

فقيل لها : ما كنت تقولين؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ﴾. زيادة في التوسعة عليه ﷺ وفي ترك الأمر لإرادته واختياره.

أى : أبحنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تقسم بين نسائك ، وأن تترك القسمة بينهن ، وأبحنا لك ـ أيضا ـ أن تعود إلى طلب من اجتنبت مضاجعتها إذ لا حرج عليك في كل ذلك. بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيئتك واختيارك.

فالابتغاء بمعنى الطلب ، وعزلت بمعنى اجتنبت واعتزلت وابتعدت ، ومن شرطية ، وجوابها : ﴿فَلا جُناحَ عَلَيْكَ﴾ أى : فلا حرج ولا إثم عليك في عدم القسمة بين أزواجك ، وفي طلب إيواء من سبق لك أن اجتنبتها.

قال الشوكانى : والحاصل أن الله ـ سبحانه ـ فوض الأمر إلى رسوله ﷺ كي يصنع مع زوجاته ما شاء ، من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه ، ونفيا للحرج عنه (٢).

واسم الإشارة في قوله : ﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ، وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ .. يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبي ﷺ.

وأدنى بمعنى أقرب. و ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ كناية عن تقبل ما يفعله معهن برضا وارتياح نفس. يقال قرت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح لرؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ..

وقوله : ﴿وَلا يَحْزَنَّ﴾ معطوف على ﴿أَنْ تَقَرَّ﴾ وقوله ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ معطوف عليه ـ أيضا ..

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٣٧.

(٢) تفسير فتح القدير ج ٦ ص ٢٩٣.

والمعنى ، ذلك الذي شرعناه لك من تفويض الأمر إليك في شأن أزواجك ، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن ، وأقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحي من الله ـ تعالى ـ وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء سويت بينهن في القسم والبيتوتة والمجامعة ... أم لم تسو.

قال القرطبي : قال قتادة وغيره : أى : ذلك التخيير الذي خيرناك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من عندنا ـ لا من عندك ـ ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين ..

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن ، تطييبا لقلوبهن ويقول : «اللهم هذه قدرتي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات وجمع بجمع الذكور للتغليب.

أى : والله ـ تعالى ـ يعلم ما في قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شيء ، ومن عدم الميل إلى شيء آخر.

قال صاحب الكشاف : وفي هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله ـ تعالى ـ من ذلك ، وبعث على تواطؤ قلوبهن والتصافي بينهن ، والتوافق على طلب رضا رسول الله ﷺ وما فيه طيب نفسه (٢).

﴿وَكانَ اللهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿عَلِيماً﴾ بكل ما تظهره القلوب وما تسره ﴿حَلِيماً﴾ حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم.

ثم كرم ـ سبحانه ـ أمهات المؤمنين بعد تكريمه لنبيه ﷺ فقال : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ.﴾ ...

أى : لا يحل لك ، ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تتزوج بنساء أخريات من بعد التسع اللائي في عصمتك اليوم ، لأنهن قد اخترنك وآثرنك على زينة الحياة الدنيا ، ورضين عن طيب نفس أن يعشن معك وتحت رعايتك ، مهما كان في حياتك معهن من شظف العيش ، والزهد في متع الدنيا.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢١٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٥٢.

وقوله : ﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ معطوف على ما قبله.

أى : لا يحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن في عصمتك ، كما لا يحل لك . أيضا . أن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو أعجبك جمال من تريد زواجها من غير نسائك اللائي في عصمتك عند نزول هذه الآية.

فالآية الكريمة قد اشتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير التسع اللائي كن في عصمته عند نزولها. والثاني : حرمة تطليق واحدة منهن ، للزواج بأخرى بدلها.

وقوله : ﴿بَعْدُ﴾ ظرف مبنى على الضم لحذف المضاف اليه. أى : من بعد اليوم. و ﴿أَزْواجٍ﴾ مفعول به ، و ﴿مِنْ﴾ مزيدة لاستغراق الجنس. أى : ولا أن تبدل بهن أزواجا أخريات مهما كان شأن هؤلاء الأخريات.

وجملة : ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ﴾ في موضع الحال من الفاعل وهو الضمير في ﴿تَبَدَّلَ﴾. أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا أن تتبدل بهن أزواجا غيرهن في أية حالة من الأحوال ، حتى ولو في حال إعجابك بغيرهن ويصح أن تكون هذه الجملة شرطية ، وقد حذف جوابها لفهمه من الكلام ، ويكون المعنى : ولو أعجبك حسنهن لا يحل لك نكاحهن.

وقوله : ﴿إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من هذا الحكم. أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا استبدال غيرهن بهن ، ولكن يحل لك أن تضيف إليهن ما شئت من النساء اللائي تملكهن عن طريق السبي.

وهذا الذي سرنا عليه من أن الآية الكريمة في شأن أزواجه صلى‌الله‌عليه‌وسلم هو الذي سار عليه جمهور المفسرين.

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم . أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ورضا الله عنهن على حسن صنيعهن ، في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم كما تقدم ، فلما اخترن رسول الله ، كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسرائر ، فلا حجر عليه فيهن.

ثم إنه . سبحانه . رفع عنه الحجر في ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكنه لم يقع منه بعد ذلك زواج لغيرهن ، لتكون المنة للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عليهن. روى الإمام

أحمد عن عائشة قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء [1].

ومن العلماء من يرى أن قوله ـ تعالى ـ ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ المراد به : من بعد من أحللنا لك الزواج بهن ، وهن الأصناف الأربعة اللائي سبق الحديث عنهن في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ ، وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ﴾ ...

وهذا الرأى الثاني وإن كان أشمل من سابقه ، إلا أننا نرجح أن الآية الكريمة مسوقة لتكريم أمهات المؤمنين اللائي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها.

هذا ، والنساء التسع اللائي حرم الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ الزيادة عليهن ، والاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث [2].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾.

أى : وكان الله ـ تعالى ـ وما زال ، مطلعا على كل شيء من أحوالكم ـ أيها الناس ـ فاحذروا أن تتجاوزوا ما حده الله ـ تعالى ـ لكم ، لأن هذا التجاوز يؤدى إلى عدم رضا الله ـ سبحانه ـ عنكم.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت ألوانا متعددة من مظاهر تكريم الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ ومن توسعته عليه في شأن أزواجه ، وفي شأن ما أحله له من عدم التقيد في القسم بينهن ، وفي تقديم أو تأخير من شاء منهن ..

كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريما عظيما. لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها.

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من التشريعات الحكيمة ، والآداب القويمة. التي تتعلق بدخول بيوت النبي ﷺ ، وبحقوق أزواجه ﷺ في حياته وبعد مماته ، وبوجوب احترامه وتوقيره ﷺ فقال ـ تعالى ـ :

---

(١ ، ٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٣٨.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(٥٤)

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ.﴾ .. روايات متعددة منها ، ما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال : وافقت ربي في ثلاث. فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة ﴿عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ﴾ فنزل كذلك.

وروى البخاري عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ﷺ قام معه من قام ، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله ـ تعالى ـ ؛ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ.﴾ .. الآية.

قال ابن كثير : وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت

جحش : التي تولى الله . تعالى . تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة ، في قول قتادة والواقديّ وغيرهما [1].

والمراد ببيوت النبي : المساكن التي أعدها ﷺ لسكنى أزواجه.

والاستثناء في قوله . تعالى . : ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال.

وقوله : ﴿غَيْرَ ناظِرِينَ﴾. حال من ضمير ﴿تَدْخُلُوا﴾ و ﴿إِناهُ﴾ أى : نضجه وبلوغه الحد الذي يؤكل معه. يقال : أنى الطعام يأنى أنيا وإنى . كقلى يقلى . إذا نضج وكان معدا للأكل.

والمعنى : يا من آمنتم بالله . تعالى . حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ في حال من الأحوال ، إلا في حال الإذن لكم بدخولها من أجل حضور طعام تدعون إلى تناوله ، وليكن حضوركم في الوقت المناسب لتناوله ، لا قبل ذلك بأن تدخلوا قبل إعداده بفترة طويلة ، منتظرين نضجه وتقديمه إليكم للأكل منه.

قالوا : وكان من عادة بعضهم في الجاهلية أنهم يلجون البيوت بدون استئذان ، فإذا وجدوا طعاما يعد ، انتظروا حتى ينضج ليأكلوا منه.

فالنهي في الآية الكريمة مخصوص بمن دخل من غير دعوة ، وبمن دخل بدعوة ولكنه مكث منتظرا للطعام حتى ينضج ، دون أن تكون هناك حاجة لهذا الانتظار. أما إذا كان الدخول بدعوة أو لحضور طعام بدون انتظار مقصود لوقت نضجه ، فلا يتناوله النهى.

قال الآلوسى : والآية على ما ذهب إليه جمع من المفسرين ، خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، فهي مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم في المستقبل. فالنهي مخصوص بمن دخل بغير دعوة ، وجلس منتظرا للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهى عن الدخول بإذن لغير طعام ، ولا من الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر [2].

وقوله . سبحانه . ﴿وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ استدراك على ما فهم من النهى عن الدخول بغير إذن ، وفيه إشعار بأن الإذن متضمن معنى الدعوة.

أى : لا تدخلوا بدون إذن ، فإذا أذن لكم ودعيتم إلى الطعام فادخلوا لتناوله وقوله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٤٠ . طبعة دار الشعب.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٧٠.

ـ تعالى ـ ﴿فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ بيان للون آخر من ألوان الآداب الحكيمة التي شرعها الإسلام في تناول الطعام عند الغير.

أى : إذا دعيتم لحضور طعام في بيت النبي ﷺ فادخلوا ، فإذا ما انتهيتم من طعامكم عنده ، فتفرقوا ولا تمكثوا في البيت مستأنسين لحديث بعضكم مع بعض ، أو لحديثكم مع أهل البيت.

فقوله ﴿مُسْتَأْنِسِينَ﴾ مأخوذ من الأنس بمعنى السرور والارتياح للشيء. تقول : أنست ، لحديث فلان ، إذا سررت له ، وفرحت به.

وأطلق ـ سبحانه ـ نفى الاستئناس للحديث ، من غير بيان صاحب الحديث ، للإشعار بأن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، مادام ليس هناك من حاجة إلى هذا المكث. وهذا أدب عام لجميع المسلمين.

واسم الإشارة في قوله : ﴿إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ يعود إلى الانتظار والاستئناس للحديث ، والدخول بغير إذن. والجملة بمثابة التعليل لما قبلها.

أى : إن ذلكم المذكور كان يؤذى النبي ﷺ ويدخل الحزن على قلبه ، لأنه يتنافى مع الأدب الإسلامى الحكيم ، ولكنه ﷺ كان يستحيي أن يصرح لكم بذلك ، لسمو خلقه ، وكمال أدبه ، كما أنه ﷺ كان يستحيي أن يقول لكم كلاما تدركون منه أنه يريد انصرافكم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ﴾ أى : والله ـ تعالى ـ لا يستحيي من إظهار الحق ومن بيانه ، بل من شأنه ـ سبحانه ـ أن يقول الحق ، ولا يسكت عن ذلك.

وإذا كان الرسول ﷺ قد منعه حياؤه من أن يقول قولا تفهمون منه ضجره من بقائكم في بيته بعد تناول طعامكم عنده .. فإن الله ـ تعالى ـ وهو خالقكم لا يمتنع عن بيان الحق في هذه الأمور وفي غيرها ، حتى تتأدبوا بأدب دينه القويم. ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض الآداب التي يجب عليهم أن يلتزموها مع نساء نبيهم ﷺ فقال : ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ، ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ..

أى : وإذا طلبتم ـ أيها المؤمنون ـ من أزواج النبي ﷺ شيئا يتمتع به سواء أكان هذا الشيء حسيا كالطعام أم معنويا كمعرفة بعض الأحكام الشرعية .. إذا سألتموهن شيئا من ذلك فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب ساتر بينكم وبينهن ..

لأن سؤالكم إياهن بهذه الطريقة ، أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأبعد عن الوقوع في

الهواجس الشيطانية التي قد تتولد عن مشاهدتكم لهن ، ومشاهدتهن لكم ..

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾.

أى : وما صح وما استقام لكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تؤذوا رسول الله ﷺ بأى لون من ألوان الأذى ، سواء أكان بدخول بيوته بغير إذنه ، أم بحضوركم إليها انتظارا لنضج الطعام أم بجلوسكم بعد الأكل بدون مقتض لذلك ، أم بغير ذلك مما يتأذى به ﷺ.

كما أنه لا يصح لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواجه من بعده ، أى : من بعد وفاته.

﴿إِنَّ ذلِكُمْ﴾ أى : إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده ﴿كانَ عِنْدَ اللهِ﴾ ـ تعالى ـ ذنبا ﴿عَظِيماً﴾ وإثما جسيما ، لا يقادر قدره.

ثم حذرهم ـ سبحانه ـ من مخالفة أمره ، بأن بين لهم بأنه ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء ، من أمرهم ، فقال : ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً﴾ بأن تظهروه على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ بأن تضمروه في قلوبكم ، فإنه في الحالين لا يعزب عن علمنا ، وسنحاسبكم عليه ، ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء ، في الأرض ولا في السماء.

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة التي تسمى بآية الحجاب ، جملة من الأحكام والآداب منها :

١ ـ وجوب الاستئذان عند دخول البيوت لتناول طعام ، ووجوب الخروج بعد تناوله إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو للبقاء ، كما أن من الواجب الحضور إلى الطعام في الوقت المناسب له ، وليس قبله انتظارا لنضجه وتقديمه.

٢ ـ حرمة الاختلاط بين الرجال والنساء سواء أكان ذلك في الطعام أم في غيره ، فقد أمر ـ سبحانه ـ المؤمنين ، إذا سألوا أزواج النبي ﷺ شيئا أن يسألوهن من وراء حجاب ، وعلل ذلك بأن سؤالهن بهذه الطريقة ، يؤدى إلى طهارة القلوب ، وعفة النفوس ، والبعد عن الريبة وخواطر السوء ..

وحكم نساء المؤمنين في ذلك كحكم أمهات المؤمنين ، لأن قوله ـ سبحانه ـ ﴿ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَ﴾ علة عامة تدل على تعميم الحكم ، إذ جميع الرجال والنساء في كل زمان ومكان في حاجة إلى ما هو أطهر للقلوب ، وأعف للنفوس ..

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : ﴿ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من العقلاء ، إن غير ازواج النبي ﷺ لا حاجة

بهن إلى أطهرية قلوبهن ، وقلوب الرجال من الريبة منهن ..

فالجملة الكريمة فيها الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء ، لا خاص بأمهات المؤمنين ، وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن ، لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه .. [1].

٣ . كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يصافح امرأة أجنبية عنه. ولا يجوز له أن يمس شيء من بدنه شيئا من بدنها.

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ ثبت عنه أن قال : «إني لا أصافح النساء» والله . تعالى . يقول : ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ .. فيلزمنا أن لا نصافح النساء الأجنبيات اقتداء به ﷺ [2].

٤ . تكريم الله . تعالى . لنبيه ﷺ ودفاعه عنه ، وإلزام المؤمنين بالعمل على كل ما يرضيه ولا يؤذيه ، وبعدم نكاح أزواجه من بعده أبدا ...

ثم استثنت السورة الكريمة بعض الأصناف الذين يجوز للمرأة أن تظهر أمامهم بدون حجاب ، وبينت سمو منزلة رسول الله ﷺ ، وأكدت التحذير من إيذائه ، ومن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، وأمرت النبي ﷺ أن يرشد أزواجه وبناته ونساء المؤمنين إلى وجوب الاحتشام في ملابسهن .. فقال . تعالى . :

﴿لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥) إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ

---

(١) راجع «أضواء البيان» ج ٦ ص ٥٨٤ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

(٢) راجع تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٦٠٢.

اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾(٥٩)

قال القرطبي : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية : ﴿لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ﴾ .. [1].

فالآية الكريمة مسوقة لبيان من لا يجب على النساء أن يحتجبن منه.

أى : لا حرج ولا إثم على أمهات المؤمنين ولا على غيرهن من النساء ، في ترك الحجاب بالنسبة لآبائهن ، أو أبنائهن أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو نسائهن اللاتي تربطهن بهن رابطة قرابة أو صداقة ، أو ما ملكت أيمانهن من الذكور أو الإناث.

فهؤلاء يجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب ، وأن تظهر أمامهم بدون ساتر. وهذا لون من ألوان اليسر والسماحة في شريعة الإسلام.

ولم يذكر سبحانه ـ العم والخال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أبا. كما في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن يعقوب : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ، إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ، قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وإسماعيل كان عما ليعقوب لا أبا له.

قال الجمل : وقوله : ﴿وَلا نِسائِهِنَّ﴾ أى : ولا جناح على زوجات النبي ﷺ في عدم الاحتجاب عن نسائهن ، أى : عن النساء المسلمات وإضافتهن لهن من حيث المشاركة في الوصف ، وهو الإسلام ، وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبي الاحتجاب عنهن ،

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٣١.

كما يجب على سائر المسلمات. أى : ما عدا ما يبدو عند المهنة ، أما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات [١].

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : في سورة النور : ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ آبائِهِنَّ ، أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ أَبْنائِهِنَّ ، أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ.﴾ .. الآية.

ثم عقب. سبحانه هذا الترخيص والتيسير بقوله : ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾.

والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : لقد أبحت لكن يا معشر النساء مخاطبة هؤلاء الأصناف بدون حجاب : فامتثلن أمرى ، واتقين الله ـ تعالى ـ في كل أحوالكن ، واحرصن على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله ـ تعالى ـ مطلع على كل ما يصدر عنكن ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

ثم أثنى الله ـ تعالى ـ على نبيه ثناء كبيرا وأمر المؤمنين بأن يعظموه ويوقروه فقال : ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

قال القرطبي ما ملخصه : هذه الآية شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في حياته وموته ، وذكر منزلته منه .. والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره ..

والضمير في ﴿يُصَلُّونَ﴾ لله ـ تعالى ـ ولملائكته. وهذا قول من الله شرف به ملائكته .. أو في الكلام حذف. والتقدير : إن الله يصلى وملائكته يصلون [٢].

وقال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية الكريمة ، أن الله ـ تعالى ـ أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى : بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر الله أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه. ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلى جميعا [٣].

والمعنى : إن الله ـ تعالى ـ يثنى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ويرضى عنه ، وإن الملائكة تثنى عليه صلى الله عليه وسلم وتدعو له بالظفر بأعلى الدرجات وأسماها.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أى : عظموه ووقروه وادعوا له بأرفع الدرجات ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أى : وقولوا : السلام عليك أيها النبي. والسلام : مصدر بمعنى السلامة.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٥٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٣٢.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٤٧.

أى : السلامة من النقائص والآفات ملازمة لك.

والتعبير بالجملة الاسمية في صدر الآية ، للإشعار بوجوب المداومة والاستمرار على ذلك.

وخص المؤمنين بالتسليم ، لأن الآية وردت بعد النهى عن إيذاء النبي ﷺ ، والإيذاء له ﷺ إنما يكون من البشر.

وقد ساق المفسرون . وعلى رأسهم ابن كثير والقرطبي والآلوسى . أحاديث متعددة في فضل الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ ، وفي كيفية الصلاة عليه ..

ومنها : ما رواه الإمام أحمد وابن ماجة عن عامر بن ربيعة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «من صلّى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلّى على ، فليقلّ عبد من ذلك أو ليكثر».

ومنها ما رواه الشيخان وغيرهما عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت هذه الآية قلنا : يا رسول الله ، قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ، قال : قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد [1].

والآية الكريمة تدل على وجوب الصلاة والسلام على النبي ﷺ والمؤمنون الصادقون هم الذين يكثرون من ذلك. قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة أم مندوب إليها؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا في حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره ﷺ ومنهم من قال تجب في كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره.

ومنهم من أوجبها في العمر مرة .. والذي يقتضيه الاحتياط : الصلاة عليه عند كل ذكر .. لما ورد من الأخبار في ذلك.

ومنها : «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على» [2].

ثم توعد . سبحانه . الذين يسيئون إلى رسوله ﷺ بأى لون من ألوان الإساءة فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾.

والمراد بأذى الله ورسوله : ارتكاب ما يبغضان ويكرهان من الكفر والفسوق والعصيان ،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٤٨ وما بعدها إلى صن ٤٦٩.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٥٧.

ويشمل ذلك ما قاله اليهود : عزير ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وما قاله النصارى : من أن المسيح ابن الله ، كما يشمل ما قاله الكافرون في الرسول ﷺ من أنه كاهن أو ساحر أو شاعر ..

وقيل : إن المقصود بالآية هنا : إيذاء الرسول ﷺ خاصة ، وذكر الله . تعالى . معه للتشريف ، وللإشارة إلى أن ما يؤذى الرسول يؤذى الله . تعالى . ، كما جعلت طاعة الرسول ، طاعة لله.

قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من آذى الرسول ﷺ بشيء ، فإن من آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، ففي الحديث الشريف : «الله الله في أصحابى ، لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» (١).

أى : إن الذين يؤذون الله . تعالى . ورسوله ﷺ ، بارتكاب مالا يرضياه من كفر أو شرك أو فسوق أو عصيان ..

﴿لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ أى : طرد الله . تعالى . هؤلاء الذين ارتكبوا الأذى من رحمته ، وأبعدهم من رضاه في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ . سبحانه . في الآخرة ﴿عَذاباً مُهِيناً﴾ أى : عذابا يهينهم ويجعلهم محل الاحتقار والازدراء من غيرهم.

وبعد هذا الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله ، جاء وعيد آخر لمن آذى المؤمنين والمؤمنات ، فقال . تعالى . : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.

أى : والذين يرتكبون في حق المؤمنين والمؤمنات ما يؤذيهم في أعراضهم أو في أنفسهم أو في غير ذلك مما يتعلق بهم ، دون أن يكون المؤمنون أو المؤمنات قد فعلوا ما يوجب أذاهم ..

﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ أى : فقد ارتكبوا إثما شنيعا ، وفعلا قبيحا ، وذنبا ظاهرا بينا ، بسبب إيذائهم للمؤمنين والمؤمنات.

وقال . سبحانه . هنا ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ ولم يقل ذلك في الآية السابقة عليها ، لأن الناس بطبيعتهم يدفع بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض ، ويؤذى بعضهم بعضا ، أما

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٦٩.

الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ فلا يتصور منهما ذلك.

وجمع ـ سبحانه ـ في ذمهم بين البهتان والإثم المبين ، للدلالة على فظاعة ما ارتكبوه في حق المؤمنين والمؤمنات ، إذ البهتان هو الكذب الصريح الذي لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لشدته وبعده عن الحقيقة.

والإثم المبين : هو الذنب العظيم الظاهر البين ، الذي لا يخفى قبحه على أحد.

روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «أى الربا أربى عند الله؟.

قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : أربى الربا عند الله ، استحلال عرض امرئ مسلم» ثم قرأ ﷺ هذه الآية (١).

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين عامة ، بالاحتشام والتستر في ملابسهن فقال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ.﴾ ...

قال الآلوسى : روى عن غير واحد أنه كانت الحرة والأمة ، تخرجان ليلا لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل ، من غير تمييز بين الحرائر والإماء ، وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم قالوا : حسبناهن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي والتستر فلا يطمع فيهن .. (٢).

وقوله : ﴿يُدْنِينَ﴾ من الإدناء بمعنى التقريب ، ولتضمنه معنى السدل والإرخاء عدّى بعلى. وهو جواب للأمر ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ.﴾ ...

والجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن ، تلبسه المرأة ، فوق ثيابها.

والمعنى : يا أيها النبي قل لأزواجك اللائي في عصمتك ، وقل لبناتك اللائي هن من نسلك ، وقل لنساء المؤمنين كافة ، قل لهن : إذا ما خرجن لقضاء حاجتهن ، فعليهن أن يسدلن الجلابيب عليهن ، حتى يسترن أجسامهن سترا تاما ، من رءوسهن إلى أقدامهن ، زيادة في التستر والاحتشام ، وبعدا عن مكان التهمة والريبة.

قالت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ : لما نزلت هذه الآية ، خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٧٠.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٨٨.

وقوله : ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ بيان للحكمة من الأمر بالتستر والاحتشام.

أى : ذلك التستر والاحتشام والإدناء عليهن من جلابيبهن يجعلهن أدنى وأقرب إلى أن يعرفن ويميزن عن غيرهن من الإماء ، فلا يؤذين من جهة من في قلوبهم مرض.

قال بعض العلماء : وقد يقال إن تأويل الآية على هذا الوجه ، وقصرها على الحرائر ، قد يفهم منه أن الشارع قد أهمل أمر الإماء ، ولم يبال بما ينالهن من الإيذاء ممن ضعف إيمانهم ، مع أن في ذلك من الفتنة ما فيه ، فهلا كان التصون والتستر عاما في جميع النساء؟

والجواب ، أن الإماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن في الأسواق ، فإذا كلفن أن يتقنعن ويلبسن الجلباب السابغ كلما خرجن ، كان في ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر فإنهن مأمورات بعدم الخروج من البيوت إلا لضرورة ومع ذلك فإن القرآن الكريم قد نهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات جميعا ، سواء الحرائر والإماء ، وتوعد المؤذين بالعذاب المهين .. والشارع . أيضا . لم يحظر على الإماء التستر والتقنع ، ولكنه لم يكلفهن بذلك دفعا للحرج والعسر ، فللأمة أن تلبس الجلباب السابغ متى تيسر لها ذلك .. [1].

هذا ، ويرى الإمام أبو حيان أن الأرجح أن المراد بنساء المؤمنين ، ما يشمل الحرائر والإماء وأن الأمر بالتستر يشمل الجميع ، وأن الحكمة من وراء هذا الأمر بإسدال الجلابيب عليهن ، درء التعرض لهن بسوء من ضعاف الإيمان.

فقد قال . رحمه الله . : والظاهر أن قوله : ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشمل الحرائر والإماء ، والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ، ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها [2].

ويبدو لنا أن هذا الرأى الذي اتجه إليه أبو حيان . رحمه الله . أولى بالقبول من غيره ، لتمشيه مع شريعة الإسلام التي تدعو جميع النساء إلى التستر والعفاف.

ثم ختم . سبحانه . الآية بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أى : وكان الله . تعالى . وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه توبة صادقة مما وقع فيه من أخطاء وسيئات.

---

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٥٣ للشيخ محمد على السائس . رحمه الله ..

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٧ ص ٢٥٠.

ثم هدد ـ سبحانه ـ المنافقين وأشباههم بسوء المصير ، إذا ما استمروا في إيذائهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين والمؤمنات. وبين ـ عز وجل ـ أن وقت قيام الساعة مرد علمه إليه وحده. وأن الكافرين عند قيامها سيندمون ولكن لن ينفعهم الندم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٦٢) يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾(٦٨)

والمنافقون : جمع منافق ، وهو الذي يظهر الإسلام ويخفى الكفر.

والذين في قلوبهم مرض : هم قوم ضعاف الإيمان ، قليلو الثبات على الحق.

والمرجفون في المدينة : هم الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين ويلقون الأكاذيب الضارة بهم ويذيعونها بين الناس. وأصل الإرجاف : التحريك الشديد للشيء ، مأخوذ من الرجفة التي هي الزلزلة. ووصف به الأخبار الكاذبة ، لكونها في ذاتها متزلزلة غير ثابتة ، أو لإحداثها الاضطراب في قلوب الناس.

وقد سار بعض المفسرين ، على أن هذه الأوصاف الثلاثة ، كل وصف منها لطائفة معينة ، وسار آخرون على أن هذه الأوصاف لطائفة واحدة هي طائفة المنافقين ، وأن العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات.

قال القرطبي : قوله : ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ.﴾ .. أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد ... والواو مقحمة كما في قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة.

وقيل : كان منهم قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين .. [1].

وقد سار صاحب الكشاف على أن هذه الأوصاف لطوائف متعددة من الفاسقين ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان ، وقلة ثبات عليه ..

﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ فيقولون : هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين.

والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عدائكم وكيدكم ، والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم [2].

وقوله : ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ جواب القسم. أى : لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد ، يقال : أغرى فلان فلانا بكذا ، إذا حرضه على فعله.

وقوله : ﴿ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلاً﴾ معطوف على جواب القسم. أى : لنغرينك بهم ثم لا يبقون بعد ذلك مجاورين لك فيها إلا زمانا قليلا ، يرتحلون بعده بعيدا عنكم ، لكي تبتعدوا عن شرورهم.

وجاء العطف بثم في قوله : ﴿ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ﴾ للإشارة إلى أن إجلاءهم عن المدينة نعمة عظيمة بالنسبة للمؤمنين ، ونقمة كبيرة بالنسبة لهؤلاء المنافقين وأشباههم. وقوله : ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا﴾ أى : مطرودين من رحمة الله ـ تعالى ـ ومن فضله ، أينما وجدوا وظفر بهم المؤمنون.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٤٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٦١.

و ﴿مَلْعُونِينَ﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿يُجاوِرُونَكَ﴾ و ﴿ثُقِفُوا﴾ بمعنى وجدوا. تقول ثقفت الرجل في الحرب أثقفه ، إذا أدركته وظفرت به.

وقوله : ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ بيان لما يحيق بهم من عقوبات عند الظفر بهم.

أى : هم ملعونون ومطرودون من رحمة الله بسبب سوء أفعالهم ، فإذا ما أدركوا وظفر بهم ، أخذوا أسارى أذلاء ، وقتلوا تقتيلا شديدا ، وهذا حكم الله ـ تعالى ـ فيهم حتى يقلعوا عن نفاقهم وإشاعتهم قالة السوء في المؤمنين ، وإيذائهم للمسلمين والمسلمات.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن سنته قد اقتضت تأديب الفجار والفسقة حتى يقلعوا عن فجورهم وفسقهم فقال : ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ.﴾ .. وقوله : ﴿لِسُنَّةِ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد. أى : سن الله ـ تعالى ـ ذلك سنة ، في الأمم الماضية من قبلكم ـ أيها المؤمنون ـ بأن جعل تأديب الذين يسعون في الأرض بالفساد ، ويؤذون أهل الحق ، سنة من سننه التي لا تتخلف.

﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ ـ أيها الرسول الكريم ـ ﴿لِسُنَّةِ اللهِ﴾ الماضية في خلقه ﴿تَبْدِيلاً﴾ أو تحويلا ، لقيامها على الإرادة الحكيمة ، والعدالة القويمة.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو فقال : ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ ، وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾.

والسائلون هنا قيل : هم اليهود ، وسؤالهم عنها كان بقصد التعنت والإساءة إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

أى : يسألك اليهود وأشباههم في الكفر والنفاق عن وقت قيام الساعة ، على سبيل التعنت والامتحان لك.

﴿قُلْ﴾ لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ ﴿إِنَّما﴾ علم وقت قيامها عند الله ـ تعالى ـ وحده ، دون أى أحد سواه.

﴿وَما يُدْرِيكَ﴾ أى : وما يعلمك ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ أى. لعل قيامها وحصولها يتحقق في وقت قريب ؛ ولكن هذا الوقت مهما قرب لا يعلمه إلا علام الغيوب ـ سبحانه ..

ولقد كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم يقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ويشير إلى إصبعيه السبابة والوسطى.

ثم بين . تعالى . ما أعده للكافرين من عقاب فقال : ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ﴾ بأن طردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ فوق ذلك في الآخرة ﴿سَعِيراً﴾ أى : نارا شديدة الاشتعال والاتقاد.

﴿خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ أى : خالدين فيها خلودا أبديا لا خروج لهم منها معه.

﴿لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ أى لا يجدون من يحول بينهم وبين الدخول في هذه النار المسعرة ، كما لا يجدون من يخلصهم من عذابها وسعيرها.

ثم بين . سبحانه . حسراتهم عند ما يحل بهم العذاب في الآخرة فقال : يوم تقلب وجوههم في النار ، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا.

و ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لعدم الوجدان لمن يدافع عنهم أو ينصرهم أى : لا يجدون من يدفع عنهم العذاب : يوم تقلب وجوههم في النار تارة إلى جهة ، وتارة إلى جهة أخرى ، كما يقلب اللحم عند شوائه.

وحينئذ يقولون على سبيل التحسر والتفجع : يا ليتنا أطعنا الله . تعالى . فيما أمرنا به ، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من عند ربه.

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿تُقَلَّبُ﴾ بمعنى تتقلب ، ومعنى تقليبها : تصريفها في الجهات ، كما ترى البيضة تدور في القدر إذا غلت ، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها ، أو طرحها في النار مقلوبة منكوسة.

وخصت الوجوه بالذكر ، لأنه الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة [1].

﴿وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ ، أى : وقال هؤلاء الكافرون ـ بعد هذا التحسر والتفجع . يا ربنا إنا أطعنا في الدنيا ﴿سادَتَنا وَكُبَراءَنا﴾ أى : ملوكنا ورؤساءنا وزعماءنا ، فجعلونا في ضلال عن الصراط المستقيم ، وعن السبيل الحق.

﴿رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ﴾ أى : يا ربنا أنزل بهؤلاء السادات والكبراء عذابا مضاعفا ، بسبب ضلالهم في أنفسهم ، وبسبب إضلالهم لغيرهم.

﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ أى واطردهم من رحمتك ، وأبعدهم عن مغفرتك ، إبعادا شديدا عظيما ، فهم الذين كانوا سببا لنا في هذا العذاب المهين الذي نزل بنا.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٦٢.

وهكذا نرى الآيات الكريمة ، تصور لنا أحوال الكافرين في الآخرة هذا التصوير المؤثر ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة.

وبعد أن فصلت السورة الكريمة ما فصلت من أحكام ، وأرشدت إلى ما أرشدت من آداب ، وقصت ما قصت من أحداث .. بعد كل ذلك وجهت في أواخرها نداءين إلى المؤمنين ، أمرتهم فيهما بتقوى الله ـ تعالى ـ وبالاقتداء بالأخيار من عباده ، وباجتناب سلوك الأشرار ، كما ذكرتهم بثقل الأمانة التي رضوا بحملها ، وبحسن عاقبة الصالحين وسوء عاقبة المكذبين ، قال ـ تعالى ـ :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً (٦٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾(٧٣)

والمراد بالذين آذوا موسى ـ عليه‌السلام ـ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى.﴾ .. قومه الذين أرسله الله إليهم.

فقد حكى القرآن الكريم ألوانا من إيذائهم له ، ومن ذلك قولهم له : ﴿يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ.﴾ .. وقولهم : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾.

ومن إيذائهم له ـ عليه السلام ـ ما رواه الإمام البخاري والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، وقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما آفة. وإن الله ـ تعالى ـ أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ بني إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله ـ تعالى ـ ، وأبرأه الله ـ تعالى ـ مما يقولون .. فذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى.﴾ .. [1].

والمعنى : يا من آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان ، التزموا الأدب والطاعة والاحترام لنبيكم ﷺ واحذروا أن تسلكوا معه المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ حيث آذوه بشتى أنواع الأذى.

وقولهم : ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ.﴾ .. واتخاذهم العجل إلها من دون الله في غيبة نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ . . .

﴿فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا﴾ أى : فأظهر الله ـ تعالى ـ براءته من كل ما نسبوه إليه من سوء.

﴿وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ أى : وكان عند الله ـ تعالى ـ ذا جاه عظيم ، ومكانة سامية ، ومنزلة عالية ، حيث نصره ـ سبحانه ـ عليهم ، واصطفاه لحمل رسالته ..

يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، إذا كان ذا جاه وقدر ..

ثم أمرهم ـ سبحانه ـ بمراقبته وبالخوف منه ، بعد أن نهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في إيذائهم لنبيهم فقال : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ ...

والقول السديد : هو القول الصادق الصحيح الخالي من كل انحراف عن الحق والصواب ، مأخوذ من قولك : سدد فلان سهمه يسدده ، إذا وجهه بإحكام الى المرمى الذي يقصده فأصابه. ومنه قولهم : سهم قاصد. إذا أصاب الهدف.

أى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وراقبوه وخافوه في كل ما تأتون وما تذرون ، وفي كل ما تقولون وما تفعلون ، وقولوا قولا كله الصدق والصواب.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٧٤.

فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿يُصْلِحْ﴾ الله ـ تعالى ـ ﴿لَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ بأن يجعلها مقبولة عنده ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي فرطت منكم ، بأن يمحوها عنكم ببركة استقامتكم في أقوالكم وأفعالكم.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل الأقوال والأعمال ﴿فَقَدْ فازَ﴾ في الدارين ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ لا يقادر قدره ، ولا يعلم أحد كنهه وعلو منزلته.

ثم بين ـ سبحانه ـ ضخامة التبعة التي حملها الإنسان فقال : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ﴾ ...

وأرجح الأقوال وأجمعها في المراد بالأمانة هنا : أنها التكاليف والفرائض الشرعية التي كلف الله ـ تعالى ـ بها عباده ، من إخلاص في العبادة ، ومن أداء للطاعات ، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعائره وسننه.

وسمى ـ سبحانه ـ ما كلفنا به أمانة ، لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا ـ سبحانه ـ بها ، وائتمننا عليها ، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها ، وأداءها بدون إخلال بشيء منها.

والمراد بالإنسان : آدم ـ عليه‌السلام ـ أو جنس الإنسان.

والمراد بحمله إياها : تقبله لحمل هذه التكاليف والأوامر والنواهي مع ثقلها وضخامتها.

وللعلماء في تفسير هذه الآية اتجاهات ، فمنهم من يرى أن الكلام على حقيقته ، وأن الله ـ تعالى ـ قد عرض هذه التكاليف الشرعية المعبر عنها بالأمانة ، على السموات والأرض والجبال ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها﴾ لثقلها وضخامتها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْها﴾ أى : وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدى بهن إلى عذاب الله وسخطه بسبب التقصير في أداء ما كلفن بأدائه.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ﴾ أى : وقبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه ، بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها ، وأشفقن منها.

﴿إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ أى : إنه كان مفرطا في ظلمه لنفسه ، ومبالغا في الجهل ، لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعا بأداء ما كلفهم الله ـ تعالى ـ بأدائه. وإنما منهم من أداها على وجهها ـ وهم الأقلون ـ ، ومنهم من لم يؤدها وإنما عصى ما أمره به ربه ، وخان الأمانة التي التزم بأدائها.

فالضمير في قوله ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الذين لم يؤدوا

حقوق هذه الامانة التي التزموا بحملها.

قال الآلوسى : ﴿إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ أى : بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ، دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله ويكفى في صدق الحكم على الجنس بشيء ، وجوده في بعض أفراده ، فضلا عن وجوده في غالبها .. »[1].

وقال بعض العلماء : ورجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن.

وقد جاء فعلا في آية من كتاب الله ، وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ.﴾ .. لأن الضمير في قوله : ﴿وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلي ، كما هو ظاهر.

وهذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة : عندي درهم ونصفه. أى : ونصف درهم آخر[2].

وأصحاب هذا الاتجاه يقولون : لا مانع إطلاقا من أن يخلق الله ـ تعالى ـ إدراكا ونطقا للسموات والأرض والجبال ، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا هو ـ سبحانه ..

ومما يشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[3].

قال الجمل : وكان هذا العرض عليهن ـ أى على السموات والأرض والجبال تخييرا لا إلزاما ، ولو ألزمهن لم يمتنعن عن حملها. والجمادات كلها خاضعة لله ـ تعالى ـ مطيعة لأمره ، ساجدة له.

قال بعض أهل العلم : ركب الله ـ تعالى ـ فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة ، حتى عقلن الخطاب ، وأجبن بما أجبن[4].

ويرى بعضهم أن العرض في الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل ، أو من قبيل المجاز.

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : لما بين ـ تعالى ـ في هذه السورة من الأحكام ما بين ، أمر بالتزام أوامره ، والأمانة تعم جميع وظائف الدين ، على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور ..

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٩٦.

(٢) تفسير «أضواء البيان» ج ٦ ص ٦٠٦ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى.

(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٥٨.

ويصح أن يكون عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة ..

وقال القفال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أى : أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها ، لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب.

أى : أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حمله الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل. وهذا كقوله : ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ ، لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ.﴾ ...

وقال قوم : إن الآية من المجاز : أى : أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبّر عن هذا بعرض الأمانة. كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه ..

وقيل : ﴿عَرَضْنَا﴾ يعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال ، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة. ورجحت الأمانة بثقلها عليها .. [1].

ويبدو لنا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول ، لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه ، فلا داعي لصرفه عن ذلك.

ومما لا شك أن قدرة الله ـ تعالى ـ لا يعجزها أن تخلق في السموات والأرض والجبال إدراكا وتمييزا ونطقا لا يعلمه إلا هو ـ سبحانه.

واللام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ﴾ .. متعلقة بقوله : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ.﴾ ...

أى : وحملها الإنسان ليعذب الله ـ تعالى ـ بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يؤدوا ما التزموا بحمله وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ أى : ويقبل الله ـ تعالى ـ توبة المؤمنين والمؤمنات ، بأن يكفر عنهم سيئاتهم وخطاياهم.

﴿وَكانَ اللهُ﴾ ـ تعالى ـ وما زال ﴿غَفُوراً رَحِيماً﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٥٤.

أما بعد : فهذا تفسير لسورة (الأحزاب) نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة ـ مدينة نصر

مساء الخميس : ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ ه‍

٦ / ٦ / ١٩٨٥ م

**كتبه الراجي عفو ربه**

**د. محمد سيد طنطاوى**

# تفسير

# سورة سبأ

**بسم الله الرّحمن الرّحيم**

## مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة سبأ هي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب المصحف ، أما في ترتيب النزول فهي السورة السابعة والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة لقمان.

٢ ـ وسورة سبأ من السور المكية الخالصة ، وقيل هي مكية إلا الآية السادسة منها وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَ﴾.

٣ ـ وعدد آياتها خمس وخمسون آية في المصحف الشامي ، وأربع وخمسون آية في غيره. وسميت بهذا الاسم ، لاشتمالها على قصة أهل سبأ ، وما أصابهم من نقم بسبب عدم شكرهم لنعم الله ـ تعالى ـ عليهم.

٤ ـ وتبدأ سورة سبأ بالثناء على الله ـ تعالى ـ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ، يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها ، وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال الكافرين في تكذيبهم ليوم القيامة ، كما تحكى ـ أيضا ـ بعض أقوالهم الباطلة التي قالوها في شأن النبي صلى الله عليه وسلم ثم ترد عليهم بما يخرس ألسنتهم.

٥ ـ ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ، فتحكى ما آتاهم الله ـ تعالى ـ إياه من خير وقوة وكيف أنهما قابلا نعم الله ـ تعالى ـ بالشكر والطاعة ، فزادهما ـ سبحانه ـ من فضله وعطائه : ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وكعادة القرآن الكريم في جمعه بين الترغيب والترهيب ، وبين حسن عاقبة الشاكرين ، وسوء عاقبة الجاحدين .. جاءت في أعقاب قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ، قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله الوفيرة بالجحود والإعراض ، فمحقها ـ سبحانه ـ من بين أيديهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

٦ ـ ثم ساقت السورة بعد ذلك بأسلوب تلقيني ألوانا من الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له.

نرى ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ ..

وفي قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وفي قوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ ، كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٧ ـ ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾.

وعن أحوال الكافرين السيئة عند ما يقفون أمام ربهم للحساب ، وكيف أن كل فريق منهم يلقى التبعة على غيره ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾.

٨ ـ ثم ترد السورة الكريمة على أولئك المترفين ، الذين زعموا أن أموالهم وأولادهم ستنفعهم يوم القيامة ، فتقرر أن ما ينفع يوم القيامة إنما هو الإيمان والعمل الصالح ، وأن الله ـ تعالى ـ هو صاحب الإعطاء والمنع والإغناء والإفقار.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ، قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾.

٩ ـ وبعد أن ساقت السورة ما ساقت من شبهات المشركين حول دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وردت عليهم بما يزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم ، أتبعت ذلك بدعوة هؤلاء الكافرين إلى التفكير والتدبر على انفراد ، في شأن دعوة هذا الرسول الكريم الذي يدعوهم إلى الحق ، لعل هذا التفكر يهديهم إلى الرشد.

قال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾.

ثم ختمت السورة الكريمة بتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا في كفرهم وعنادهم ، وأنهم سيندمون . إذا ما استمروا على كفرهم . ولن ينفعهم الندم.

قال . تعالى . : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾.

١٠ . وهكذا نرى سورة سبأ قد ساقت أنواعا من الأدلة على وحدانية الله . تعالى . ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه .. كما أنها حكت شبهات المشركين ، وردت عليهم بما يبطلها ، والحمد لله حمدا كثيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**كتبه الراجي عفو ربه**

**د. محمد سيد طنطاوى**

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾(٥)

افتتحت سورة سبأ بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين ، وهي أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب لعالمين.

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها.

وأل في الحمد للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء ، هو الله ـ تعالى ..

وإنما كان الحمد مقصورا في الحقيقة عليه وحده . سبحانه . ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء ، فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، هو في الحقيقة حمد له . تعالى . ، لأنه . سبحانه . هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه.

وقد اختار . سبحانه . افتتاح هذه السورة بصفة الحمد ، دون المدح أو الشكر ، لأنه وسط بينهما ، إذ المدح أعم من الحمد ، لأن المدح يكون للعاقل وغيره ، فقد يمدح الإنسان لعقله ، وتمدح اللؤلؤة لجمالها ، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر عنه من إحسان.

والحمد أخص من الشكر ، لأن الشكر يكون من أجل نعمة وصلت إليك أما الحمد فيكون من أجل نعمة وصلت إليك أو إلى غيرك [1].

وفي القرآن الكريم خمس سور اشتركت في الافتتاح بقوله . تعالى . : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ..﴾ وهي سورة الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر.

ولكن لكل سورة من هذه السور ، منهج خاص في بيان أسباب أن الحمد لله . تعالى . وحده.

وقد أحسن القرطبي . رحمه الله . عند ما قال : فإن قيل : قد افتتح غيرها أى : سورة الأنعام . بالحمد لله ، فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره؟ فالجواب أن لكل واحدة منه معنى في موضعه ، لا يؤدى عن غيره ، من أجل عقده بالنعم المختلفة ، و . أيضا . فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون [2].

والمعنى : الحمد الكامل الشامل لله . تعالى . وحده ، لأنه هو ، الذي له ما في السموات وما في الأرض ، خلقا وملكا وتصرفا ، بحيث لا يخرج شيء فيهما عن إرادته ومشيئته.

قوله : وله الحمد في الآخرة ، تنبيه إلى أن حمده . عز وجل . ليس مقصورا على الدنيا ، بل يشمل الدنيا والآخرة.

فالمؤمنون يحمدونه في الدنيا على ما وهبهم من نعم الإيمان والإحسان ، ويحمدونه في الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السموات والأرض ، ويقولون : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ [3].

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٢٧.

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٨٤.

(٣) سورة الزمر. الآية ٧٤.

قال صاحب الكشاف : ولما قال . سبحانه . : الحمد لله ، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية ، كان معناه : أنه المحمود على نعم الدنيا ، تقول : احمد أخاك الذي كساك وحملك ، تريد : احمده على كسوته وحملانه.

ولما قال : ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب (١).

وقال الآلوسي : والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل ، أن الأول على نهج العبادة ، والثاني على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد في الخبر أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس (٢).

وقال الجمل : فإن قلت : الحمد مدح للنفس ، ومدحها مستقبح فيما بين الخلق ، فما وجه ذلك؟

فالجواب : ان هذا المدح دليل على أن حاله . تعالى . بخلاف حال الخلق ، وأنه يحسن منه ما يقبح من الخلق ، وذلك يدل على أنه . تعالى . مقدس عن أن تقاس أفعاله ، على أفعال العباد (٣).

ثم ختم . سبحانه . الآية بقوله : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أى : وهو . تعالى . الذي أحكم أمور الدارين ، ودبرها بحكمته ، وهو العليم بظواهر عباده وبواطنهم ، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

ثم فصل . سبحانه . بعض مظاهر علمه فقال : ﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ ، والولوج الدخول ، يقال : ولج فلان منزله ، فهو يلجه ولجا وولوجا ، إذا دخله.

أى : أنه . سبحانه . يعلم ما يلج في الأرض وما يدخل فيها من ماء نازل من السماء ، ومن جواهر دفنت في طياتها ، ومن بذور ومعادن في جوفها.

ويعلم . أيضا . ﴿ما يَخْرُجُ مِنْها﴾ من نبات وحبوب وكنوز ، وغير ذلك من أنواع الخيرات.

ويعلم كذلك ﴿ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ من أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده . تعالى . لأهل الأرض.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٦٦.

(٢) تفسير الآلوسي ج ٢٢ ص ١٠٣.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٥٩.

﴿وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ أى : ويعلم ما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وعدى العروج بفي لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو في الأصل يعدى بإلى قال ـ تعالى ـ : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وقوله : ﴿يَعْرُجُ﴾ من العروج ، وهو الذهاب في صعود. والسماء جهة العلو مطلقا.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أى : وهو ـ سبحانه ـ صاحب الرحمة الواسعة ، والمغفرة العظيمة ، لمن يشاء من عباده.

وهذه الآية الكريمة ـ مع وجازة ألفاظها ـ تصور تصويرا بديعا معجزا ، مظاهر علم الله ـ تعالى ـ ، ولو أن أهل الأرض جميعا حاولوا إحصاء ﴿ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها ، وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ لما استطاعوا أن يصلوا إلى إحصاء بعض تلك الحشود الهائلة من خلق الله ـ تعالى ـ في أرضه أو سمائه.

ولكن هذه الحشود العجيبة في حركاتها ، وأحجامها ، وأنواعها ، وأجناسها ، وصورها ، وأحوالها .. قد أحصاها علم الله ـ تعالى ـ الذي لا يخفى عليه شيء.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله الكافرون في شأن يوم القيامة ، فقال ـ تعالى ـ ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾.

أى : وقال الذين كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لا تأتينا الساعة بحال من الأحوال ، وإنما نحن نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وإذا متنا فإن الأرض تأكل أجسادنا ، ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى.

وعبروا عن إنكارهم لها بقولهم : ﴿لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ مبالغة في نفيها نفيا كليا ، فكأنهم يقولون : لا تأتينا الساعة في حال من الأحوال ، لأننا ننكر وجودها أصلا ، فضلا عن إتيانها.

وقد أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يؤكد وجودها وإتيانها تأكيدا قاطعا فقال : ﴿قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

و «بلى» حرف جواب لرد النفي ، فتفيد إثبات المنفي قبلها ، ثم أكد ـ سبحانه ـ ذلك بجملة القسم.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : ليس الأمر كما زعمتم ، بل هي ستأتيكم بغتة ، وحق ربي الذي أوجدني وأوجدكم.

فالجملة الكريمة قد اشتملت على جملة من المؤكدات التي تثبت أن الساعة آتية لا ريب فيها، ومن ذلك التعبير ب ﴿بَلى﴾ وبالجملة القسمية.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ؛ هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد : فإحداهن في سورة يونس، وهي قوله . تعالى . : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

والثانية : هذه الآية التي معنا. والثالثة : في سورة التغابن وهي قوله . تعالى . : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا، قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ ..[1].

وقوله . تعالى . : ﴿عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ تقوية لتأكيد إتيان الساعة.

قالوا : لأن تأكيد القسم بجلائل نعوت المقسم به يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه، وقوة إثباته، وصحته، لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر[2].

وقوله ﴿يَعْزُبُ﴾ بمعنى يغيب ويخفى، وفعله من باب «قتل وضرب». يقال : عزب الشيء يعزب . بضم الزاى وكسرها . إذا غاب وبعد.

والمعنى : قل . أيها الرسول الكريم . لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : كذبتم في إنكاركم وحق الله . تعالى . لتأتينكم، والذي أخبرنى بذلك هو الله . تعالى . ﴿عالِمِ الْغَيْبِ﴾ أى : عالم ما غاب وخفى عن حسكم، وهو . سبحانه . لا يغيب عن علمه مقدار أو وزن مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك المثقال، ولا أكبر منه، إلا وهو مثبت وكائن في علمه . تعالى . الذي لا يغيب عنه شيء، أو في اللوح المحفوظ الذي فيه تسجل أحوال الخلائق وأقوالهم وأفعالهم.

وقوله . سبحانه . : ﴿عالِمِ الْغَيْبِ﴾ قرأه بعضهم بكسر الميم على أنه نعت لقوله ﴿رَبِّي﴾.

أى : قل بلى وربي عالم الغيب لتأتينكم الساعة.

وقرأه آخرون بضم الميم على أنه مبتدأ، وخبره جملة : ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾، أو هو خبر لمبتدأ محذوف. أى : هو عالم الغيب.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٨٢.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٥٩.

وقوله : ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ﴾ تمثيل لقلة الشيء ، ودقته ، والمراد انه لا يغيب عن علمه شيء ما ، مهما دق أو صغر ، إذ المثقال : مفعال من الثقل ، ويطلق على الشيء البالغ النهاية في الصغر ، والذرة تطلق على النملة ، وعلى الغبار الذي يتطاير من التراب عند النفخ.

وفي قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ﴾ إعجاز علمي بليغ للقرآن الكريم ، إذ كان من المعروف إلى عهد قريب ، أن الذرة أصغر الأجسام ، فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم الذرة ، وتقسيمها إلى جزئيات.

قال الجمل : وقوله : ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ﴾ العامة على رفع أصغر وأكبر ، وفيه وجهان :

أحدهما : الابتداء ، والخبر إلا في كتاب ، والثاني : العطف على ﴿مِثْقالُ﴾ ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿إِلَّا فِي كِتابٍ﴾ تأكيد للنفي في ﴿لا يَعْزُبُ﴾ كأنه قال : لكنه في كتاب مبين.

فإن قيل : فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم ما هو أصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الأكبر؟ فالجواب : لما كان الله ـ تعالى ـ أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال : الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر مكتوب أيضا [1].

واللام في قوله ـ تعالى ـ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ .. متعلقة بقوله ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وهي للتعليل ولبيان الحكمة في إتيانها.

أى : لتأتينكم الساعة أيها الكافرون ، والحكمة في ذلك ليجزي ـ سبحانه ـ الذي آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذي يستحقونه.

﴿أُولئِكَ﴾ الموصوفون بصفتى الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة من ربهم لذنوبهم ﴿وَ﴾ لهم كذلك ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ تنشرح له صدورهم ، وتقرّ به عيونهم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾ أى : والذين سعوا في إبطال آياتنا ، وفي تكذيب رسلنا ﴿مُعاجِزِينَ﴾ أى مسابقين لنا ، لتوهمهم أننا لا نقدر عليهم ، وأنهم يستطيعون الإفلات من عقابنا. يقال : عاجز فلان فلانا وأعجزه إذا غالبه وسبقه.

﴿أُولئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أى : لهم عذاب من أسوأ أنواع العذاب وأشده ألما وإهانة.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٦٠.

وهكذا نرى الآيات الكريمة بعد ثنائها على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله ، وبعد إثباتها لعلمه الذي لا يعزب عنه شيء ، وبعد حكايتها لأقوال المشركين وردها عليهم.

بعد كل ذلك تصرح بأن الحكمة من إتيان الساعة ، مجازاة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يستحقون من ثواب ، ومجازاة الذين كفروا وسعوا في آيات الله بالقدح فيها وصد الناس عنها. بما يستحقون من عقاب.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف أهل العلم النافع مما جاء به الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم من عند ربه ، وموقف الكافرين من ذلك ، ورد ـ سبحانه ـ على هؤلاء الكافرين بما يثبت ضلالهم وجهلهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾(٩)

والمراد بالرؤية في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ المعرفة والعلم واليقين. والمراد بالذين أوتوا العلم : المؤمنون الصادقون الذين اتبعوا النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم في كل ما جاءهم به من عند ربه ، سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم ، كمؤمنى أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

والجملة الكريمة مستأنفة لمدح هؤلاء العلماء العقلاء على إيمانهم بالحق ، أو معطوفة على يجزى في قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾.

والمراد ب ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ القرآن الكريم.

والمعنى : لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ لما يقوله الكافرون بشأنك ولما يفعلونه لإبطال دعوتك ، فإن الذين أوتوا العلم وهم أتباعك الصادقون ، يعلمون ويعتقدون أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وهو الصدق الذي لا يشوبه كذب ، وهو الكتاب الذي يهدى من اتبعه وأطاع توجيهاته إلى دين الله ـ تعالى ـ ، العزيز ، الذي يقهر ولا يقهر ﴿الْحَمِيدِ﴾ أى المحمود في جميع شئونه.

والمفعول الأول ليرى قوله : ﴿الَّذِي أُنْزِلَ﴾ .. والمفعول الثاني «الحق» و «هو» ضمير فصل متوسط بين المفعولين و «يهدى» معطوف على المفعول الثاني من باب عطف الفعل على الاسم لتأويله به ، أى : يرونه حقا وهاديا.

وعبر ـ سبحانه ـ عن إيمان أهل العلم بما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿وَيَرَى﴾ ، للإشعار بأنهم قد آمنوا هذا الإيمان الجازم عن إدراك ومشاهدة ويقين ، وأنهم قد صاروا لا يشكون في كون هذا المنزّل عليه من ربه ، هو الحق الهادي إلى الصراط المستقيم.

وفي وصفهم بقوله : ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ثناء عظيم عليهم ، لأنهم انتفعوا بعلمهم وسخروه لخدمة الحق ، وللشهادة له بأنه حق ، ويهدى إلى السعادة الدينية والدنيوية والأخروية.

وهكذا العلماء العاملون بمقتضى علمهم النافع. يكونون أنصارا للحق والهدى في كل زمان ومكان.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله أولئك الكافرون فيما بينهم ، على سبيل الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ...﴾.

وتمزيق الشيء : تخريقه وجعله قطعا قطعا. يقال : ثوب ممزق ومزيق. إذا كان مقطعا مخرقا. والمراد بالرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم.

أى : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض ، ألا تريدون أن ندلكم ونرشدكم إلى رجل ، هذا الرجل يخبركم ويحدثكم ، بأنكم إذا متم ، وفرقت أجسامكم في الأرض كل تفريق ، وصرتم رفاتا وعظاما ، وأصبحتم طعاما في بطون الطيور والوحوش.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : إنكم بعد هذا التمزيق والتفريق ، تخلقون خلقا جديدا ، وتعودون إلى الحياة مرة أخرى ، للحساب على أعمالكم التي عملتموها في حياتكم.

وقالوا : ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ﴾ وهو ﷺ أشهر من نار على علم بينهم ، لقصد تجاهل أمره ، والاستخفاف بشأنه ، والاستهزاء بدعوته.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : فإن قلت : كان رسول الله ﷺ مشهورا علما في قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا بينهم ، فما معنى قولهم : ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول؟

قلت : كانوا يقصدون بذلك الطّنز . أى : الاستخفاف والسخرية . فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجى التي يتحاجى بها للضحك والتلهي ، متجاهلين به وبأمره [1].

وقال الآلوسى ـ رحمه‌الله ـ : وقوله : ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أى يحدثكم بأمر مستغرب عجيب ...

وإذا في قوله : ﴿إِذا مُزِّقْتُمْ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة ما بعده عليه.

أى : تبعثون أو تحشرون ، وهو العامل في «إذا» على قول الجمهور. والجملة الشرطية بتمامها معمولة لقوله : ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ لأنه في معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق تبعثون ، ثم أكد ذلك بقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [2].

وقوله ـ سبحانه ـ بعد ذلك : ﴿أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ حكاية لقول آخر من أقوالهم الباطلة ، التي قالوها بشأن ما جاءهم به النبي ﷺ.

والاستفهام لتعجبهم مما قاله ﷺ لأن قوله لهم : إنكم ستبعثون وتحاسبون يوم القيامة ، جعلهم لجهلهم وانطماس عقولهم ـ يستنكرون ذلك ، ويرجعون قوله ﷺ إلى أمرين : إما افتراء الكذب واختلاقه على الله ـ تعالى ـ وإما إصابته بالجنون الذي جعله يقول قولا لا يدرى معناه.

وقد رد الله ـ تعالى ـ بما ينفى عن رسوله ﷺ ما اتهموه به ، وبما يثبت جهلهم وغباءهم فقال. ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾.

أى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكافرون ، من أن الرسول ﷺ الذي أخبرهم بأن هناك بعثا وحسابا ، به جنة أو افترى على الله كذبا ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين الذين

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧٠.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٠٩.

لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، غارقون في العذاب الذي لا نهاية له. وفي الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

ثم هددهم ـ سبحانه ـ بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا في ضلالهم وجهالاتهم وذكرهم بما يشاهدونه من عجائب قدرته فقال : ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾.

والاستفهام للتعجب من حالهم ، ومن ذهولهم عن التفكر والتدبر ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام.

والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون فلم يعتبروا ولم يتعظوا بما يشاهدونه من مظاهر قدرته ـ عزوجل ـ المحيطة بهم من كل جانب والمنتشرة في آفاق السموات وفي جوانب الأرض؟

إن تأملهم في مظاهر قدرتنا الواضحة أمام أعينهم ، من شأنه أن يهديهم إلى الحق الذي جاءهم به رسولنا صلى‌الله‌عليه‌وسلم ومن شأنه أن يجعلهم يوقنون بأننا ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما فعلنا بقارون.

﴿أَوْ﴾ إن نشأ ﴿نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ والكسف جمع كسفة بمعنى قطعة أى : لا يعجزنا أن نخسف بهم الأرض. كما لا يعجزنا ـ أيضا ـ أن ننزل عليهم قطعا من العذاب الكائن من السماء فنهلكهم ، كما أنزلناها على أصحاب الأيكة فأهلكناهم بسبب تكذيبهم وجحودهم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

أى : إن في ذلك الذي ذكرناه من مظاهر قدرتنا الواضحة بين أيديهم ، لآية بينة ، وعبرة ظاهرة ، لكل عبد ﴿مُنِيبٍ﴾ أى : راجع إلى الله ـ تعالى ـ بالتوبة الصادقة ، وبالطاعة الخالصة لما جاءه به نبينا صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

ثم ساق ـ سبحانه ـ نموذجين من الناس ، أولهما : أعطاه الله ـ تعالى ـ الكثير من نعمه وفضله وإحسانه ، فوقف من كل ذلك موقف المعترف بنعم الله الشاكر لفضله.

وثانيهما : أعطاه الله ـ تعالى ـ النعم فوقف منها موقف الجاحد البطر الكنود.

أما النموذج الأول فنراه في شخص النبيين الكريمين داود وسليمان ـ عليهما‌السلام ـ فقد قال ـ سبحانه ـ في شأنهما :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾(١٤)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾ بيان لما منّ الله ـ تعالى ـ به على عبده داود ـ عليه‌السلام ـ من خير وبركة.

أى : ولقد آتينا عبدنا داود فضلا عظيما ، وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا ، بسبب إنابته إلينا ، وطاعته لنا.

ثم فصل ـ سبحانه ـ مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ والتأويب الترديد والترجيع. يقال : أوّب فلان تأويبا إذا رجّع مع غيره ما يقوله.

والجملة مقول لقول محذوف : أى : وقلنا يا جبال رددى ورجعي مع عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ﴾.

وقوله : ﴿وَالطَّيْـرَ﴾ بالنصب عطفا على قوله ﴿فَضْلاً﴾ أى : وسخرنا له الطير لتسبح معه بحمدنا. أو معطوف على محل ﴿يا جِبالُ﴾ أى : ودعونا الجبال والطير إلى التسبيح معه.

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : يخبر ـ تعالى ـ عما أنعم به على عبده ورسوله داود ـ عليه السلام ـ مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذي كان إذا سبح به ، تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات. والغاديات الرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات.

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : «لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود» [1].

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : «وآتينا داود منا فضلا» تأويب الجبال معه والطير؟

قلت : كم بينهما من الفرق؟ ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ، بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم بها ـ سبحانه ـ عليه.

أى : وصيرنا الحديد لينا في يده ، بحيث يصبح ـ مع صلابته وقوته ـ كالعجين في يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله في نار ، أو أن يطرقه بمطرقة.

فالجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿آتَيْنا﴾ ، وهي من جملة الفضل الذي منحه ـ سبحانه ـ لنبيه داود ـ عليه السلام ـ ..

و ﴿أَنِ﴾ في قوله : ﴿أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ﴾ مصدرية على حذف حرف الجر. وسابغات صفة لموصوف محذوف.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٨٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧١.

أى : ألنا له الحديد ، لكي يعمل منه دروعا سابغات. والدرع السابغ ، هي الدرع الواسعة التامة. يقال : سبغ الشيء سبوغا ، إذا كان واسعا تاما كاملا. ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة.

قال ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ [1].

وقوله : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير في عمل الشيء. والسرد : نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها.

أى : آتينا داود كل هذا الفضل الذي من جملته إلانة الحديد في يده ، وقلنا له يا داود : اصنع دروعا سابغات تامات ، وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون في أكمل صورة ، وأقوى هيئة.

روى أن الدروع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولا تؤدى وظيفتها في الدفاع عن صاحبها ، فألهم الله ـ تعالى ـ داود ـ عليه‌السلام ـ أن يعملها بطريقة لا تثقل الجسم ولا تتعبه ، وفي الوقت نفسه تكون محكمة إحكاما تاما بحيث لا تنفذ منها الرماح ، ولا تقطعها السيوف ، وكان الأمر كله من باب الإلهام والتعليم من الله ـ تعالى ـ لعبده داود ـ عليه‌السلام ـ.

ثم أمر ـ سبحانه ـ داود وأهله بالعمل الصالح فقال : ﴿وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أى : واعملوا عملا صالحا يرضيني ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذي تستحقونه.

قال القرطبي : وفي هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم. بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم ، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخالي عن الامتنان. وفي الصحيح أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» [2].

هذا ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لنبيه داود من فضل ، أما نبيه سليمان بن داود ، فقد

---

(١) سورة لقمان. الآية ٢٠.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٦٧.

أعطاه ـ سبحانه ـ أفضالا أخرى، عبر عنها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾.

والغدوة والغداة: أول النهار إلى الزوال. والرواح: من الزوال إلى الغروب.

والمعنى: وسخرنا لنبينا سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ الريح، تجرى بأمره في الغدوة الواحدة مسيرة شهر، وتعود بأمره في الروحة الواحدة مسيرة شهر. أى: أنها لسرعتها تقطع في مقدار الغدوة الواحدة ما يقطعه الناس في شهر من الزمان، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة، وهي في كل مرة تسير بأمر سليمان، ووفق إرادته التي منحه الله ـ تعالى ـ إياها.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ (٢).

ثم بين ـ تعالى ـ نعمة ثانية من النعم التي أنعم بها على سليمان فقال: ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾.

والقطر: هو النحاس المذاب. مأخوذ من قطر الشيء يقطر قطرا وقطرانا، إذا سال.

أى: كما ألنا لداود الحديد، أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مذابا، فكان يستعمله في قضاء مصالحه، كما يستعمل الماء، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا.

ثم بين ـ سبحانه ـ نعمة ثالثة أنعم بها على سليمان ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾.

أى: وسخرنا له من الجن من يكونون في خدمته، ومن يعملون بين يديه ما يريده منهم، وهذا كله بأمرنا ومشيئتنا وقدرتنا.

﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا﴾ أى: من ينحرف من هؤلاء الجن عما أمرناه به من طاعة سليمان، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أى: ننزل به عذابنا الأليم، الذي يذله ويخزيه في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١.

(٢) سورة «ص» الآية ٣٦.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض الأشياء التي كان الجن يعملونها لسليمان ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ ، وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ ، وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾.

والمحاريب : جمع محراب. وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان الذي يقف فيه الإمام في المسجد ، كما يطلق على الغرفة التي يصعد إليها ، وعلى أشرف أماكن البيوت.

قالوا والمراد بها : أماكن العبادة ، والقصور المرتفعة.

والتماثيل : جمع تمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غير ذلك.

قال القرطبي ما ملخصه : والتماثيل جمع تمثال. وهو كل ما صور على مثل صورة حيوان أو غير حيوان. وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست بحيوان. وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس. فيزدادوا عبادة واجتهادا.

وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا في زمانهم ، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم [1].

والجفان : جمع جفنة. وهي الآنية الكبيرة. والجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الكبير الذي يجبى فيه الماء ويجمع لتشرب منه الدواب.

والقدور : جمع قدر. وهو الآنية التي يطبخ فيها الطعام من نحاس أو فخار أو غيرهما.

وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة لا تتحرك.

أى : أن الجن يعملون لسليمان ـ عليه السلام ـ ما يشاء من مساجد وقصور ، ومن صور متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ، ومن قدور ثابتات على قواعدها ، بحيث لا تحرك لضخامتها وعظمها.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ مقول لقول محذوف.

أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا يا آل داود عملا صالحا ، شكرا لله ـ تعالى ـ على فضله وعطائه ، وقليل من عبادي هو الذي يشكرني شكرا خالصا على نعمى وفضلي وإحسانى.

وقوله ﴿شُكْراً﴾ يجوز أن يكون مفعولا لأجله. أى : اعملوا من أجل الشكر ، أو مصدرا واقعا موقع الحال. أى : اعملوا شاكرين.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٧٢.

و ﴿قَلِيلٌ﴾ خبر مقدم. و ﴿مِنْ عِبادِيَ﴾ صفة له. و ، ﴿الشَّكُورُ﴾ مبتدأ مؤخر.

وهكذا يختم القرآن هذه النعم بهذا التعقيب الذي يكشف عن طبيعة الناس في كل زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذكر الله ـ تعالى ـ وشكره.

وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، والثناء عليه لإنعامه ، واستعمال نعمه ـ سبحانه ـ فيما خلقت له.

والإنسان الشكور : هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل قصارى جهده في ذلك ، عن طريق قلبه ولسانه وجوارحه.

ثم ختم ـ سبحانه ـ النعم التي أنعم بها على داود وسليمان ، ببيان مشهد وفاة سليمان ، فقال : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾.

والمراد بدابة الأرض : قيل هي الأرضة التي تأكل الخشب وتتغذى به ، يقال : أرضت الدابة الخشب أرضا ـ من باب ضرب ـ ، إذا أكلته. فإضافة الدابة إلى الأرض ـ بمعنى الأكل والقطع ـ من إضافة الشيء إلى فعله.

و ﴿مِنْسَأَتَهُ﴾ أى : عصاه التي كان مستندا عليها. وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها الأغنام إذا جاوزت مرعاها. من نسأ البعير ـ كمنع ـ إذا زجره وساقه ، أو إذا أخره ودفعه.

والمعنى : فلما حكمنا على سليمان ـ عليه‌السلام ـ بالموت ، وأنفذناه فيه ، وأوقعناه عليه ، ﴿ما دَلَّهُمْ﴾ أى : الجن الذين كانوا في خدمته ﴿عَلى مَوْتِهِ﴾ بعد أن مات وظل واقفا متكئا على عصاه ﴿إِلَّا دابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾.

أى : انهم لم يدركوا أنه مات ، واستمروا في أعمالهم الشاقة التي كلفهم بها ، حتى جاءت الدابة التي تفعل الأرض ـ أى الأكل والقطع ـ فأكلت شيئا من عصاه التي كان متكئا عليها ، فسقط واقعا بعد أن كان واقفا.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أى : فلما سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ أى : ظهر لهم ظهورا جليا ﴿أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ كما يزعم بعضهم.

﴿ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ أى : ما بقوا في الأعمال الشاقة التي كلفهم بها سليمان.

وذلك أن الجن استمروا فيما كلفهم به سليمان من أعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ،

حتى جاءت الأرضة فأكلت شيئا من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا أنه قد مات.

قال ابن كثير : يذكر ـ تعالى ـ في هذه الآية كيفية موت سليمان ـ عليه‌السلام ـ وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه ، ـ وهي منسأته ـ مدة طويلة نحوا من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، ـ وهي الأرضة ـ ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضا ـ أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويواهمون الناس ذلك» [1].

هذا هو النموذج الأول الذي ساقه الله ـ تعالى ـ للشاكرين ، متمثلا في موقف داود وسليمان ـ عليهما‌السلام ـ مما أعطاهما ـ سبحانه ـ من نعم جزيله ..

أما النموذج الثاني ـ الذي جاء في أعقاب سابقه ـ فقد ساقه ـ سبحانه ـ لسوء عاقبة الجاحدين ، متمثلا في قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله بالبطر ، فمحقها ـ سبحانه ـ من بين أيديهم وفي شأنهم يقول ـ عزوجل ـ :

(لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٨٩.

أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(٢١)

و ﴿لِسَبَإٍ﴾ في الأصل اسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن ..

والمراد به هنا : الحي أو القبيلة المسماة باسمه ، فيصرف على الأول ويترك صرفه على الثاني.

وكانوا يسكنون بمأرب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سدا ، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب ، ولكنهم لم يشكروا الله ـ تعالى ـ على هذه النعم ، فسلبها ـ سبحانه ـ منهم.

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس منهم ، وكانوا في نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد.

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم عن سبأ : ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال صلى‌الله‌عليه‌وسلم : بل هو رجل. كان له عشرة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مذحج ، وكنده ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير. وسكن الشام منهم أربعة وهم : لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسّان ..

وإنما سمى «سبأ» لأنه أول من سبأ في العرب ـ أى : جمع السبايا ـ ، وكان يقال له الرائش ، لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال ـ ريشا ورياشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، في زمانه المتقدم» (١).

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٩١.

والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ في مساكنهم التي يعيشون فيها ﴿آيَةٌ﴾ بينة واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى فضله على خلقه وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عاقبة الجاحدين لهذه النعم.

فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحذير من معصيته.

ثم وضح ـ سبحانه ـ هذه الآية فقال : ﴿جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ﴾ أى : كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنان : طائفة من يمين بلدهم ، وطائفة أخرى عن شماله.

وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار.

قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل ، فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تتساقط في مكتلها دون جهد منها.

ولفظ ﴿جَنَّتانِ﴾ مرفوع على البدل من ﴿آيَةٌ﴾ أو على أنه مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ.﴾ .. مقول لقول محذوف.

أى : وقلنا لهم على ألسنة رسلنا ، وعلى ألسنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التي أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له ـ سبحانه ـ هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه.

وقوله : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ كلام مستأنف لبيان موجبات الشكر.

أى : هذه البلدة التي تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من خيرات ، وربكم الذي أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أصابهم بسبب جحودهم وبطرهم فقال : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ، وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

والعرم : اسم للوادي الذي كان يأتى منه السيل. وقيل : هو المطر الشديد الذي لا يطاق.

فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة. أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر.

ويرى بعضهم أن المراد بالعرم : السدود التي كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه

السدود ، فتصدعت ، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها ، واكتسحت مساكنهم ، فتفرقوا عنها ، ومزقوا شر ممزق ، وضربت بهم الأمثال التي منها قولهم : تفرقوا أيدى سبأ. وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا اجتماع لهم معه.

وهذا ما حدث لقبيلة سبأ ، فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج ، وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان.

وقوله : ﴿ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ﴾ أى : ثمرها. والخمط : هو ثمر الأراك أو هو النبت المر الذي لا يمكن أكله.

و (الأثل) هو نوع من الشجر يشبه شجر الطرفاء. أو هو نوع من الشجر كثير الشوك و (السدر) هو ما يعرف بالنبق. أو هو نوع من الثمار التي يقل الانتفاع بها.

والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا ... فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف ، الذي اجتاح أراضيهم ، فأفسد مزارعهم ، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق .. وبدلناهم بالجنان اليانعة التي كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل ، وتناثرت في أماكنهم الأشجار التي لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التي كانت تحمل لهم ما لذ وطاب ، وعظم نفعه.

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم.

ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

أى : ذلك الذي فعلناه بهم من تبديل جنتيهم ، بجنتين ذواتي أكل خمط .. هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا.

وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لا نعاقب ولا نجازي هذا الجزاء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا ، وكفر بآياتنا ، وآثر الغي على الرشد ، والعصيان على الطاعة.

فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذي تحدثت عنه الآية السابقة. وهو المفعول الثاني لجزيناهم مقدم عليه. أى : جزيناهم ذلك التبديل لا غيره. والمراد بالجزاء هنا : العقاب.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ بمعنى : وهل يعاقب.

وهو الوجه الصحيح. وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، والجزاء عام للمؤمن والكافر ، لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد

الخاص وهو العقاب [1].

ثم بين . سبحانه . نقمة أخرى أصابتهم بسبب جهلهم وحمقهم ، وكيف أن هذه النقمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال . تعالى . : ﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً ، وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾.

أى : وجعلنا . بقدرتنا ورحمتنا بين أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ كمكة في الجزيرة العربية ، وكبيت المقدس في بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، ﴿قُرىً ظاهِرَةً﴾ أى : قرى متقاربة متواصلة ، بحيث يرى من في إحداها غيرها.

﴿وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرا محددا ، بحيث لا يتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل.

وقالوا : كان المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها.

وقوله : ﴿سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ مقول لقول محذوف. أى : وقلنا لهم : سيروا في تلك القرى المتقاربة العامرة بالخيرات ، والتي توصلكم إلى القرى المباركة .. سيروا فيها ليالي وأياما آمنين من كل شر سواء سرتم بالليل أم بالنهار ، فإن الأمن فيها مستتب في كل الأوقات : وفي كل الأحوال.

فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمى أخرى أنعم الله . تعالى . بها على أهل سبأ ، وهي نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهي نعمة عظمى لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر.

ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحمق والبطر ، أنهم دعوا الله . تعالى . بقولهم . كما حكى القرآن عنهم . : ﴿فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا﴾.

أى : مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكناهم منها ، وهي نعمة تيسير وسائل السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله .. إلا أنهم . لشؤمهم وضيق تفكيرهم وشقائهم . تضرعوا إلينا وقالوا : يا ربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة ، فهم . كما يقول صاحب الكشاف . : بطروا النعمة ، وبشموا. أى : سئموا . من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا النكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم ، مكان المن والسلوى [2].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧٧.

وفي هذه الجملة الكريمة قراءات متعددة ذكرها القرطبي فقال ما ملخصه : فقراءة العامة ﴿رَبَّنا﴾ ـ بالنصب ـ على أنه نداء مضاف .. ﴿باعِدْ﴾ ـ بزنة فاعل ـ سألوا المباعدة في أسفارهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿رَبَّنا﴾ كذلك على الدعاء بعد ـ بتشديد العين ـ من التبعيد.

وقرأ يعقوب وغيره ربنا ـ بالرفع ـ ﴿باعِدْ﴾ ـ بفتح العين والدال ـ على الخبر. أى : لقد باعد ربنا ﴿بَيْنَ أَسْفارِنا﴾ [(١)].

وقوله : ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى : قالوا ذلك القول السيئ ، وظلموا أنفسهم بسببه ، حيث أجيب دعاؤهم ، فكان نقمة عليهم ، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف.

وقوله : ﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم.

والأحاديث : جمع أحدوثة ، وهي ما يتحدث به الناس على سبيل التلهي والتعجب أى : قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا ما فعلوا من منكر ، فكانت نتيجة ذلك. أن صيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم ، ويضربون بهم المثل ، فيقولون : تفرقوا أيدى سبأ ، ومزقناهم كل ممزق في البلاد المتعددة ، فمنهم من ذهب إلى الشام ، ومنهم من ذهب إلى العراق ... بعد أن كانوا أمة متحدة ، يظلها الأمان والاطمئنان ، والغنى والجاه ...

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الذي فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطرهم ﴿لَآياتٍ﴾ واضحات بينات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله ـ تعالى ـ ﴿شَكُورٍ﴾ له ـ سبحانه ـ على نعمه.

وخص ـ سبحانه ـ الصبار والشكور بالذكر. لأنهما هما المنتفعان بآياته وعبره ومواعظه.

ثم بين ـ عزوجل ـ الأسباب التي أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولفظ ﴿صَدَّقَ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة ، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد. وقوله : ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بصدق.

وقوله ﴿ظَنَّهُ﴾ مفعول به على قراءة التشديد ، ومنصوب بنزع الخافض على القراءة بالتخفيف ، وضمير الجمع في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وفي ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ يعود إلى قوم سبأ.

والمعنى على القراءة بالتشديد : ولقد صدق عليهم إبليس ظنه في قدرته على إغوائهم ، وحقق ما كان يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله ـ تعالى ـ وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان ،

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٩٠.

بسبب انغماسهم في الفسوق والعصيان ، إلا فريقا من المؤمنين ، لم يستطع إبليس إغواءهم لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم ـ عَزَّوَجَلَّ ـ ، واستمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

والمعنى على القراءة بالتخفيف : ولقد صدق إبليس في ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه ، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصي أطاعوه ، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه.

قال القرطبي ما ملخصه : وقوله : ﴿إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء وفيه قولان : أحدهما : أنه يراد به بعض المؤمنين ـ فتكون من للتبعيض ـ ، لأن كثيرا من المؤمنين يذنبون وينقادون لإبليس في بعض المعاصي. أى : ما سلم من المؤمنين أيضا إلا فريق ، وهو المقصود بقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ.﴾ ...

والثاني : أن المراد بهم جميع المؤمنين ، فعن ابن عباس أنه قال : هم المؤمنون كلهم.

وعلى هذا تكون ﴿مِنَ﴾ للبيان لا للتبعيض .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم من بنى آدم ، لم يكن عن قسر وإكراه ، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ﴾ ...

والمراد بالسلطان هنا : التسلط بالقهر والغلبة والإكراه. والمراد بالعلم في قوله ـ تعالى ـ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ إظهار هذا العلم للناس ليتميز قوى الإيمان من غيره.

أى : وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه ، وإنما كان له عليهم الوسوسة التي يملكون صرفها ودفعها متى حسنت صلتهم بنا ، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم ، إلا لنظهر في عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وحساب ، ولنميزه عمن هو منها في شك وريب وإنكار ...

قال الشوكانى ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ : والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍ﴾ منقطع أى : لا سلطان له عليهم ، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم.

وقيل : هو متصل مفرغ من أعم العلل. أى : ما كان له عليهم من تسلط بحال من الأحوال ، ولا لعلة من العلل ، إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن ، لأنه ـ سبحانه ـ قد علم ذلك علما أزليا. وقال الفراء : إلا لنعلم ذلك عندكم. والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار [2].

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٩٣.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣٢٢.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى : وربك ـ أيها الرسول الكريم ـ على كل شيء رقيب وحفيظ ، بحيث لا يخرج شيء عن حفظه وهيمنته وعلمه وقدرته.

وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين متعاقبتين ، إحداهما تدل على أن طاعة الله ـ تعالى ـ وشكره ، وإخلاص العبادة له ، وحسن الصلة به ـ سبحانه ـ ، كل ذلك يؤدى إلى المزيد من نعمه ـ تعالى ـ ، كما حدث لداود وسليمان ـ عليهما‌السلام ـ ..

وأما الثانية فتدل على أن الجحود والبطر والانغماس في المعاصي والشهوات. كل ذلك يؤدى إلى زوال النعم ، كما حدث لقبيلة سبأ.

وصدق الله إذ يقول : ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ، وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [1].

ثم نجد السورة الكريمة بعد ذلك ، تلقن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم الحجج التي تؤيد ما هو عليه من حق وصدق ، وتزهق ما عليه أعداؤه من باطل وكذب .. فتقول :

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ

(١) سورة يوسف. الآية ١١١.

لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

والأمر بالدعاء في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ .. للتوبيخ والتعجيز. ومفعولا ﴿زَعَمْتُمْ﴾ محذوفان.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين على سبيل التقريع والتعجيز : هؤلاء آلهتكم الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ، اطلبوا منهم أن ينفعوكم أو أن يرفعوا عنكم ضرا نزل بكم ، إنهم بالقطع لن يستطيعوا شيئا من ذلك.

ولذا جاء التأكيد على عجز هذه الآلهة المزعومة بعد ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ ...

أى : هؤلاء الشركاء لا يملكون شيئا ما قل أو كثر لا في السموات ولا في الأرض ، بل الذي يملك كل شيء ، هو الله ـ تعالى ـ وحده.

فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان حال هذه الآلهة ، وللكشف عن حقيقتها.

والتعبير بعدم ملكيتهم لمثقال ذرة ، المقصود به أنهم لا يملكون شيئا على الإطلاق ، لأن مثقال الذرة أقل ما يتصور في الحقارة والقلة.

وذكر ـ سبحانه ـ السموات والأرض لقصد التعميم ، إذ هما محل الموجودات الخارجية.

أى : لا يملكون شيئا ما في هذا الكون العلوي والسفلى.

وبعد أن نفى عن الشركاء الملكية الخالصة لأى شيء في هذا الكون ، أتبع ذلك بنفي ملكيتهم لشيء ولو على سبيل المشاركة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾.

أى : أن هؤلاء الذين زعمتموهم شركاء لله ـ تعالى ـ في العبادة ، لا يملكون شيئا ما في هذا الكون ملكية خاصة ، ولا يملكون شيئا ما ـ أيضا ـ على سبيل المشاركة لغيرهم. وليس لله

تعالى ـ أحد يعينه أو يظاهره فيما يريد من إيجاد أو إعدام ، بل الأمر كله إليه وحده.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نفت عن تلك الآلهة المزعومة ، ملكية أى شيء في هذا الكون ، سواء أكانت ملكية خالصة ، أم ملكية على سبيل المشاركة ، وأثبتت أن المالك والمتصرف في هذا الكون إنما هو الله ـ تعالى ـ وحده ، دون أن يكون في حاجة إلى عون من تلك الآلهة أو من غيرها.

ثم نفى ـ سبحانه ـ أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه ـ تعالى ـ فقال : ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

والشفاعة : من الشفع الذي هو ضد الوتر ـ أى : الفرد ـ ، ومعناها : انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ما يمكن دفعه من ضر.

أى : ولا تنفع الشفاعة عند الله ـ تعالى ـ من أحد لأحد ، إلا لمن أذن الله ـ تعالى ـ له في ذلك.

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد نفى شفاعة الأصنام لعابديها ، لكنه ـ سبحانه ـ ذكر ذلك على وجه عام ، ليكون طريقا برهانيا. أى : لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال ، أو كائنة لمن كانت ، إلا كائنة لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة. ومن البين أنه لا يؤذن في الشفاعة للكفار ، فقد قال ـ تعالى ـ : ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ والشفاعة لهم بمعزل عن الصواب ، وعدم الإذن للأصنام أبين وأبين ، فتبين حرمان هؤلاء الكفرة منها بالكلية ... [1].

وقوله : ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ﴾ .. بيان لما يكون عليه المنتظرون للشفاعة ، من لهفة وقلق.

والتضعيف في قوله ﴿فُزِّعَ﴾ للسلب. كما في قولهم : مرّضت المريض إذا عملت على إزالة مرضه.

فمعنى : ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ : كشف الفزع عنها ، وهدأت أحوالها بعد أن أصابها ما أصابها من هول وخوف في هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة.

و ﴿حَتَّى﴾ غاية لما فهم من الكلام قبلها ، من أن هناك تلهفا وترقبا من الراجين للشفاعة ومن الشفعاء ، إذ الكل منتظر بقلق لما يؤول إليه أمره من قبول الشفاعة أو عدم قبولها.

والمعنى : ولا تقبل الشفاعة يوم القيامة من أحد إلا لمن أذن الله ـ تعالى ـ له في ذلك ، وفي

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٣٦.

هذا اليوم الهائل الشديد ، يقف الناس في قلق ولهفة منتظرين قبول الشفاعة فيهم. حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بسبب إذن الله ـ تعالى ـ في قبولها ممن يشاء ولمن يشاء ، واستبشر الناس وقال بعضهم لبعض ، أو قالوا للملائكة : ﴿ما ذا قالَ رَبُّكُمْ﴾ أى : ماذا قال ربكم في شأننا ومصيرنا.

وهنا تقول لهم الملائكة ، أو يقول بعضهم لبعض : ﴿قالُوا الْحَقَ﴾ أى : يقولون قال ربنا القول الحق وهو الإذن في الشفاعة لمن ارتضى.

فلفظ ﴿الْحَقَ﴾ منصوب بفعل مضمر. أى : قالوا قال ربنا الحق أو صفة لموصوف محذوف. أى : قالوا : قال ربنا القول الحق.

﴿وَهُوَ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿الْعَلِيُ﴾ أى : المتفرد بالعلو فوق خلقه ﴿الْكَبِيرُ﴾ أى : المتفرد بالكبرياء والعظمة.

قال صاحب الكشاف ـ رحمه‌الله ـ : فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ، ولأى شيء وقعت حتى غاية؟.

قلت : اتصل بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظارا للإذن ، وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أولا؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد مليّ من الزمان ، وطول التربص ...

كأنه قيل : ينتظرون ويتوقفون كليا فزعين وهلين ، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن : تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ﴿ما ذا قالَ رَبُّكُمْ ، قالُوا﴾ قال ﴿الْحَقَ﴾ أى : القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى .. [1].

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يسألهم للمرة الثانية على سبيل التنبيه والتوبيخ ، من الذي يملك أن يرزقهم ، فقال ـ سبحانه ـ : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ...

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين : من الذي يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنباتات والمعادن وغير ذلك من المنافع.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلِ اللهُ﴾ جواب على هذا السؤال ، وهو جواب لا يملكون إلا الاعتراف به.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٨٠.

أى : قل لهم منبها ولافتا أنظارهم إلى ما هم فيه من جهل : الله وحده هو الذي يرزقكم بما لا يحصى من الأرزاق التي بعضها من السموات ، وبعضها من الأرض.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ داخل في حيز الأمر السابق ، ولكن بأسلوب فيه ما فيه من الحكمة والتلطف ، ومن حمل المخاطب على التفكر والتدبر حتى يعود إلى الرشد والصواب.

أى : وقل لهم ـ أيضا ـ أيها الرسول الكريم ـ لقد علمتم ـ يا معشر المشركين أن المستحق للعبادة هو الله ـ تعالى ـ وحده ، لأنه هو الذي خلقكم ورزقكم من السموات والأرض ...

وإن أحدنا لا بد أن يكون على الهدى والآخر على الضلال. وسنترك تحديد من هو المهتدى ومن هو الضال لعقولكم وضمائركم.

وستعلمون ـ علم اليقين ـ بعد التفكر والتدبر أننا نحن المسلمين على الحق ، وأنتم يا معشر المشركين على الباطل ..

فالجملة الكريمة لون من ألوان الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ بأسلوب مهذب حكيم ، من شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق ، إلى الاستسلام له ، والدخول فيه ..

قال القرطبي : وقوله : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ هذا على وجه الإنصاف في الحجة ، كما يقول القائل لغيره : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق ، وأن صاحبه كاذب ، والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن ، والآخر ضال وهو أنتم ، فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب.

والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالله الذي يرزقكم من السموات والأرض ... [1].

وقوله : ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ معطوف على اسم إن ، وخبرها هو المذكور. وحذف خبر الثاني للدلالة عليه.

أى : وإنا لعلى هدى أو في ضلال مبين ، وإنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين.

ثم أتبع ـ سبحانه ـ هذا الكرم الحكيم في الدعوة إلى الحق ، بكلام لا يقل عنه حكمة وبلاغة فقال : ﴿قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أى : وقل لهم للمرة الثالثة ـ أيها الرسول الكريم ـ أنتم ـ أيها المشركون ـ لا تسألون يوم القيامة عن إجرامنا في حق أنفسنا ـ إن كنا قد أجرمنا وأخطأنا في حقها ـ ، ونحن ـ أيضا ـ لا يسألنا الله ـ تعالى ـ

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٩٨.

عن سبب بقائكم في الكفر وفي الأعمال السيئة ، لأننا قد بلغناكم رسالة ربكم . عز وجل . ، ونصحناكم بالإقلاع عن الشرك والمعاصي.

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . ، ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

ثم أمره . سبحانه . أن يذكرهم بيوم القيامة وما فيه من حساب دقيق ، فقال : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

أى : وقل لهم . أيها الرسول الكريم . إن الله . تعالى . بقدرته سيجمعنا وإياكم يوم القيامة ، ثم يحكم بيننا جميعا بحكمه العادل ، وهو . سبحانه . ﴿الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أى : الحاكم في كل أمر بالحكم الحق ، المطلع على جميع أحوال عباده.

ثم ختم . سبحانه . هذه الآيات بتوجيه رسوله ﷺ إلى أن يقول لهم قولا يخرس به ألسنتهم ، ويبطل حججهم فقال : ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ والرؤية هنا بصرية. ومفعولها الأول الياء ، ومفعولها الثاني الاسم الموصول ، ولفظ شركاء : حال.

أى : وقل لهم . أيضا . للمرة الخامسة على سبيل إلزامهم الحجة : أرونى وأطلعونى على أصنامكم التي ألحقتموها بالله . تعالى . في العبادة ، واتخذتموها شركاء له في الطاعة ... إنها ما هي إلا أشياء لا تضر ولا تنفع ، وأنتم تعرفون ذلك عنها ، وها هي أمامكم واقعها وحالها ينبئ بعجزها التام ، فكيف أشركتموها مع الله . تعالى . في العبادة والطاعة؟

فالمقصود من الرؤية إشهادهم على عجزها ، وتبكيتهم على جهالاتهم ، وحضهم على نبذ الشركاء ، وإخلاص العبادة لله الواحد القهار.

ويحتمل أن تكون الرؤية هنا علمية ، فيكون لفظ ﴿شُرَكَاءَ﴾ هو المفعول الثالث.

أى : عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله . تعالى . في العبادة.

ثم زجرهم . سبحانه . عن هذا الضلال فقال : ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى : كلا ليس الأمر كما زعمتم من أن لله . تعالى . شركاء ، بل هو . سبحانه . العزيز الذي لا يغلبه غالب ، الحكيم في كل أقواله وأفعاله.

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد لقنت النبي ﷺ الحجج التي يرد بها على المشركين ، والتي من شأنها أن تحملهم على اعتناق الحق ، واجتناب الباطل ، لو كانوا يعقلون.

---

(١) سورة يونس الآية ٤١.

ثم بين ـ سبحانه ـ وظيفة الرسول ﷺ ورد على شبهات المشركين فقال :

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾(٣٠)

قال الآلوسى : المتبادر أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الناس ، قدم «إلا» عليه للاهتمام ؛ وأصله من الكف بمعنى المنع ، وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج ، واشتهر في ذلك حتى قطع فيه النظر عن معنى المنع بالكلية. فمعنى جاء الناس كافة : جاءوا جميعا ..

قال ابن عباس : أرسل الله ـ تعالى ـ محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله ـ تعالى ـ أطوعهم له ... [1].

أى : وما أرسلناك ـ أيها الرسول الكريم ـ إلا إلى الناس جميعا ، لتبشر المؤمن منهم بحسن الثواب ، وتنذر من أعرض عن الحق الذي جئت به بسوء العقاب. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة ، وهي عموم رسالتك وكونك بشيرا ونذيرا.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أى : المشركون على سبيل الاستهزاء بما جئتهم به ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به وهو قيام الساعة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب.

أخبرونا عنه ـ أيها المؤمنون ـ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ فيما تحدثوننا عنه ، وفيما تدعوننا إليه من إيمان.

وهنا أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يرد عليهم ردا فيه كل معاني التهديد والوعيد فقال : ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ و ﴿مِيعادُ﴾ يجوز أن يكون مصدرا مرادا به الوعد ، وأن يكون اسم زمان ، والإضافة للبيان.

والمراد بالساعة الوقت الذي هو في غاية القلة. وليس ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٤١.

اى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ لا تتعجلوا ـ ايها الكافرون ـ ما أخبرتكم عنه من أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، ومن أن العاقبة الطيبة ستكون لنا لا لكم ؛ فإن لكم ميقاتا محددا ، وموعدا معلوما ، عند ما يأذن الله ـ تعالى ـ بحلوله وبانتهاء حياتكم ويبعثكم ..

﴿لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً﴾ من الزمان ﴿وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عنه ساعة كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (٢).

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض الأقوال الباطلة التي قالها المشركون في شأن القرآن الكريم ، وصور أحوالهم السيئة يوم العرض والحساب ، وكيف أن كل فريق منهم صار يلقى التبعة على غيره ، قال ـ تعالى ـ :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣٣)

---

(١) سورة نوح الآية ٤.

(٢) سورة هود الآيتان ١٠٤ ـ ١٠٥.

والمراد بالذي بين يديه في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ .. : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل.

قالوا : وذلك لأن المشركين سألوا بعض أهل الكتاب ، عن الرسول ﷺ فأخبروهم بأن صفاته في التوراة والإنجيل ، فغضبوا وقالوا ما قالوا .. [1].

أى : وقال الذين كفروا بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق : قالوا لن نؤمن بهذا القرآن الذي جئت به يا محمد ﷺ من عند ربك ، ولا نؤمن ـ أيضا ـ بالكتب السماوية الأخرى التي تؤيد أنك رسول من عند الله ـ تعالى ـ فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه هؤلاء الكافرون من تصميم على الباطل ، ومن نبذ للحق مهما تعددت مصادره.

قال الإمام الرازي : لما بين ـ سبحانه ـ الأمور الثلاثة ، من التوحيد والرسالة والحشر ، وكانوا بالكل كافرين ، بيّن كفرهم العام بقوله : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ ، وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقوله : ﴿وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا ، المشركون المنكرون للنبوات والحشر.

ويحتمل أن يكون المعنى : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بما فيه من الأخبار والآيات والدلائل فيكون المراد بالذي بين يديه ما اشتمل عليه من أخبار وأحكام ـ ويكون المراد بالذين كفروا عموم الكافرين بما فيهم أهل الكتاب لأن الجميع لا يؤمن بالقرآن ولا بما اشتمل عليه [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ بيان لأحوالهم السيئة يوم القيامة ، ولإصرارهم على الكفر.

و ﴿لَوْ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف كما أن مفعول ﴿تَرى﴾ محذوف أيضا و ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ أى محبوسون للحساب يوم القيامة.

يقال : وقفت الرجل عن فعل هذا الشيء ، إذا منعته وحجزته عن فعله.

أى : ولو ترى ـ أيها المخاطب ـ حال الظالمين وقت احتباسهم عند ربهم يوم القيامة ، وهم يتحاورون ويتجادلون فيما بينهم بالأقوال السيئة وكل فريق ، يلقى التبعة على غيره.

لو ترى ذلك لرأيت أمرا عجيبا ، وحالا فظيعة ، تنفطر لها القلوب ، وترتعد من هولها النفوس.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٤٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ـ بتصرف وتلخيص ج ٧ ص ١٨.

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ يشعر بذلتهم وبؤسهم ، فهم محبوسون للحساب على غير إرادة منهم ، كما يحبس المجرم في سجنه انتظارا لمصيره السيئ.

وقوله : ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ تبكيت وتوبيخ لهم ، على ما كانوا يفعلونه في الدنيا من إنكار لليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وحساب.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ، لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ تفصيل لجانب من محاوراتهم فيما بينهم ، ولما كانوا يراجعون فيه القول بعضهم مع بعض.

والمراد بالذين استضعفوا : الأتباع والعامة من الناس ، والمراد بالذين استكبروا : الزعماء والقادة والرؤساء.

أى : يقول الأتباع من الكافرين لقادتهم ورؤسائهم بغيظ وحسرة : لو لا أنتم منعتمونا عن اتباع الحق لكنا مؤمنين به ، ومتبعين لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

إنهم يقولون لهم في موقف الحساب يوم القيامة ، ما كانوا عاجزين عن قوله في الدنيا. عند ما كانوا مستذلين لهم ، وخاضعين لسلطانهم.

وهنا يرد الزعماء باستنكار وضيق ، ويحكى ذلك القرآن فيقول : ﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ﴾ كلا ، إننا ما فعلنا ذلك ، ولسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين اتباع الحق.

﴿بَلْ﴾ أنتم الذين ﴿كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ في حق أنفسكم ، حيث اتبعتمونا باختياركم ، ورضيتم عن طواعية منكم أن تتبعوا غيركم بدون تفكر أو تدبر للأمور.

ولم يقتنع الأتباع بما رد به عليهم السادة والكبراء ، بل حكى القرآن للمرة الثانية ردهم عليهم فقال : ﴿وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الرد عليهم بحسرة وألم : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أى قالوا لهم أنتم لستم صادقين في قولكم لنا : إنكم لم تصدونا عن اتباع الهدى بعد إذ جاءنا بل إن مكركم بنا الليل والنهار وإغراءكم لنا بالبقاء على الكفر. وتهديدكم إيانا بالقتل أو التعذيب إذا ما خالفناكم ، وأمركم لنا بأن نكفر بالله ـ تعالى ـ ونجعل له أندادا ، أى شركاء في العبادة والطاعة. كل ذلك هو الذي حال بيننا وبين اتباع الحق الذي جاءنا به الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمكر : هو الاحتيال والخديعة. يقال مكر فلان بفلان ، إذا خدعه وأراد به شرا.

وهو هنا فاعل لفعل محذوف والتقدير : بل الذي صدنا عن الإيمان مكركم بنا في الليل

والنهار ، فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا.

وقوله : ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنا﴾ .. ظرف للمكر. أى : بل مكركم الدائم بنا وقت أمركم لنا بأن نكفر بالله ونجعل له أشباها ونظراء نعبدها من دونه ـ تعالى ـ هو الذي حال بيننا وبين اتباع الحق والهدى.

قال الجمل : وقوله ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ يجوز رفع ﴿مَكْرُ﴾ من ثلاثة أوجه : أحدها : على الفاعلية بتقدير : بل صدنا مكركم في هذين الوقتين ، الثاني ان يكون مبتدأ خبره محذوف. أى : مكر الليل صدنا عن اتباع الحق. الثالث : العكس ، أى : سبب كفرنا مكركم. وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازى كقولهم : ليل ماكر ، فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه وإما على الاتساع في الظرف ، فجعل كالمفعول به فيكون مضافا لمنصوبه [1].

والضمير المرفوع في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ يعود إلى الأتباع والزعماء. وأسروا من الإسرار بمعنى الكتمان والإخفاء.

أى : وأضمر الذين استضعفوا والمستكبرون الندامة والحسرة حين شاهدوا العذاب المعد لهم جميعا ، وذلك لأنهم بهتوا وشهدوا حين عاينوه ، ودفنت الكلمات في صدورهم فلم يتمكنوا من النطق بها وأصابهم ما أصابهم من الكمد الذي يجعل الشفاه لا تتحرك ، والألسنة لا تنطق.

فالمقصود من إسرار الندامة : بيان عجزهم الشديد عن النطق بما يريدون النطق به لفظاعة ما شهدوه من عذاب غليظ قد أعد لهم.

وقيل إن ﴿أَسَرُّوا النَّدامَةَ﴾ بمعنى أظهروها : لأن لفظ أسر من الأضداد.

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿وَأَسَرُّوا﴾ أى : أضمر الظالمون من الفريقين ﴿النَّدامَةَ﴾ على ما كان منهم في الدنيا .. ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق.

وقيل : أسروا الندامة. بمعنى أظهروها ، فإن لفظ «أسر» من الأضداد ، إذ الهمزة تصلح للإثبات وللسلب ، فمعنى أسره : جعله سره ، أو أزال سره .. [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فقال : ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٧٥.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٤٦.

والأغلال. جمع غل وهي القيود التي يقيد بها المجرمون.

أى : وجعلنا القيود في أعناق الذين كفروا جميعا ، سواء منهم من كان تابعا أم متبوعا. وما جزيناهم بهذا الجزاء المهين الأليم ، إلا بسبب أعمالهم السيئة. وأقوالهم القبيحة.

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور لنا تصويرا مؤثرا بديعا ، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم ، ومن عداوة وبغضاء ، ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر ، بدون احترام من المستضعفين لزعمائهم الذين كانوا يذلونهم في الدنيا ، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التي كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم في الحياة الدنيا ، وأصبح الجميع يوم الحساب في الذلة سواء ﴿وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.

ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من الأقوال الزائفة ، التي كان المترفون يتذرعون بها للبقاء على كفرهم ، ومن الإجابات التي لقنها ـ سبحانه ـ لنبيه ﷺ لكي يخرس بها ألسنتهم ، ويزيل بها شبهاتهم قال ـ تعالى ـ :

﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٣٤) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٣٩)

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ.﴾ .. : هذه تسلية لرسول الله ﷺ مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به ، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد ، والتكبر بذلك على المؤمنين .. وأنه ـ سبحانه ـ لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير ، إلا قالوا له مثل ما قال أهل مكة لرسول الله ﷺ (١).

والمعنى : وما أرسلنا في قرية ، من القرى ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ ينذر أهلها بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم. ﴿إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها﴾ أى : إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها المتسعون في النعم فيها ، لمن جاءوا لإنذارهم وهدايتهم إلى الحق.

﴿إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من الدعوة إلى عبادة الله ـ تعالى ـ ﴿كافِرُونَ﴾ بما نحن عليه من شرك وتقليد للآباء مؤمنون.

فالآية الكريمة تحكى موقف المترفين في كل أمة ، من الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ، وأن هؤلاء المترفين في كل زمان ومكان ، كانوا أعداء للأنبياء وللمصلحين ، لأن الترف من شأنه أن يفسد الفطرة ، ويبعث على الغرور والتطاول ، ويحول بين الإنسان وبين التمسك بالفضائل والقيم العليا ، ويهدى إلى الانغماس في الرذائل والشهوات الدنيا.

ثم يحكى القرآن الكريم أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا بإعلان كفرهم ، وتكذيبهم للأنبياء والمصلحين ، بل أضافوا إلى ذلك التبجح والتعالي على المؤمنين. فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا﴾ أى المترفون الذين أبطرتهم النعمة للمؤمنين الفقراء ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً﴾ منكم ـ أيها المؤمنون ـ ، إذ أموالنا أكثر من أموالكم ، وأولادنا أكثر من أولادكم ، ولو لا أننا أفضل عند الله منكم ، لما أعطانا ـ مالا يعطيكم ...

فنحن نعيش حياتنا في أمان واطمئنان ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ بشيء من العذاب الذي تعدوننا به لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : افتخر المترفون ـ بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم ، واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك. قال ـ تعالى ـ : ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ، إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ (٢).

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٠٩.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يصحح لهؤلاء المترفين خطأهم ، وأن يكشف لهم عن جهلهم ، وأن يبين لهم أن مسألة الغنى والفقر بيد الله ـ تعالى ـ وحده ، وأن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى أو للفقر ، وإنما يتبعان الإيمان أو الكفر ، فقال ـ تعالى ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وبسط الرزق : سعته وكثرته. وتقديره : تقليله وتضييقه.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاهلين ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وحده هو الذي ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ أن يبسطه له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أى : ويقتر الرزق ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه. والأمر في كلتا الحالتين مرده إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، على حسب ما تقتضيه حكمته في خلقه.

وربما يوسع رزق العاصي ويضيق رزق المطيع. أو العكس ، وربما يوسع على شخص في وقت ويضيق عليه في وقت آخر ، ولا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب ، لأن مناطهما الطاعة وعدمها.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة التي اقتضتها حكمة الله ـ تعالى ـ وإرادته ، فزعموا أن بسط الرزق دليل الشرف والكرامة ، وأن ضيق الرزق دليل الهوان والذل ، ولم يدركوا ـ لجهلهم وانطماس بصائرهم ـ أن بسط الرزق قد يكون للاستدراج ، وأن تضييقه قد يكون للابتلاء والاختبار ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه.

ثم زاد ـ سبحانه ـ هذه القضية توضيحا وتبيينا فقال : ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى﴾.

الزلفى : مصدر كالقربى ، وانتصابه على المصدرية من معنى العامل. أى ليست كثرة أموالكم ، ولا كثرة أولادكم بالتي من شأنها أن تقربكم إلينا قربى ، لأن هذه الكثرة ليست دليل محبة منا لكم ، ولا تكريم منا لكم ، وإنما الذي يقربكم منا هو الإيمان والعمل الصالح.

كما وضح ـ سبحانه ـ هذه الحقيقة في قوله بعد ذلك : ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾.

أى : ليس الأمر كما زعمتم ـ أيها المترفون ـ من أن كثرة الأموال والأولاد ستنجيكم من العذاب ، ولكن الحق والصدق أن الذي ينجيكم من ذلك ويقربكم منا ، هو الإيمان والعمل الصالح. فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم عند الله ـ تعالى ـ الجزاء الحسن المضاعف ، وهم في غرفات الجنات آمنون مطمئنون.

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ هو استثناء منقطع فيكون محله النصب. أى : لكن من آمن وعمل صالحا .. والإشارة بقوله : ﴿فَأُولئِكَ﴾ إلى ﴿مَنْ﴾ والجمع باعتبار المعنى. وهو مبتدأ. وخبره ﴿لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ﴾ أى : فأولئك يجازيهم الله الضعف ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول. أو فأولئك لهم الجزاء المضاعف فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة المصرين على كفرهم فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ، أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾.

أى : والذين يسعون في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، ﴿مُعاجِزِينَ﴾.

أى : زاعمين سبقهم لنا ، وعدم قدرتنا عليهم ﴿أُولئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ أى : في عذاب جهنم مخلدون ، حيث تحضرهم ملائكة العذاب بدون شفقة أو رحمة ، وتلقى بهم فيها.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ تأكيد وتقرير لتلك الحقيقة التي سبق الحديث عنها ، وهي أن التوسع والتضييق في الرزق بيد الله ـ تعالى ـ وحده.

والضمير في قوله ـ تعالى ـ ﴿لَهُ﴾ يعود إلى الشخص الموسع عليه أو المضيق عليه في رزقه. أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المترفين على سبيل التأكيد وإزالة ما هم عليه من جهل : إن ربي ـ عزوجل ـ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيق هذا الرزق على من يشاء أن يضيقه منهم ، وليس في ذلك ما يدل على السعادة أو الشقاوة ، لأن هذه الأمور خاضعة لحكمته في خلقه ـ سبحانه ..

﴿وَما أَنْفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ في سبيل الله ـ تعالى ـ وفي أوجه طاعته ﴿فَهُوَ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿يُخْلِفُهُ﴾ أى : يعوضه لكم بما هو خير منه. يقال : فلان أخلف لفلان وأخلف عليه ، إذا أعطاه العوض والبدل.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أى : وهو ـ سبحانه ـ خير رازق لعباده لأن كل رزق يصل إلى الناس إنما هو بتقديره وإرادته ، وقد جرت سنته ـ سبحانه ـ أن يزيد الأسخياء من فضله وكرمه.

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «ما من يوم يصبح العباد فيه ،

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣٣٠.

إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت جانبا من شبهات المشركين ، ومن أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما يزهق باطلهم ، ويمحو شبهاتهم ، لكي يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال أولئك المشركين يوم القيامة ، وكيف أن الملائكة يكذبونهم في مزاعمهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾(٤٢)

أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ أى : يجمع الله ـ سبحانه ـ الكافرين جميعا. الذين استضعفوا في الدنيا والذين استكبروا.

﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ ـ عزّ وجلّ ـ ﴿لِلْمَلائِكَةِ﴾ على سبيل التبكيت والتقريع للمشركين ﴿أَهؤُلاءِ﴾ الكافرون ﴿إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أى : أهؤلاء كانوا يعبدونكم في الدنيا. وأنتم رضيتم بذلك.

و ﴿هؤُلاءِ﴾ مبتدأ ، وخبره «كانوا يعبدون» و ﴿إِيَّاكُمْ﴾ مفعول يعبدون.

وتخصيص الملائكة بالخطاب مع أن من الكفار من كان يعبد الأصنام ، ومن كان يعبد غيرها ، لأن المقصود من الخطاب حكاية ما يقوله الملائكة في الرد عليهم.

قال صاحب الكشاف : هذا الكلام خطاب للملائكة. وتقريع للكفار وارد على المثل السائر : إياك أعنى واسمعي يا جارة ، ونحوه قوله ـ تعالى ـ لعيسى : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وقد علم ـ سبحانه ـ كون الملائكة وعيسى ، منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون التقريع

للمشركين أشد ، والتعبير أبلغ ، وهوانهم ألزم. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ حكاية لأقوال الملائكة.

أى : قال الملائكة في الإجابة على سؤال خالقهم. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أى : ننزهك ونقدسك عن أن يكون لك شريك في عبادتك وطاعتك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أى : أنت الذي نواليك ونتقرب إليك وحدك بالعبادة ، وليس بيننا وبين هؤلاء المشركين أى موالاة أو قرب ، ولا دخل لنا في عبادتهم لغيرك.

ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه في الدنيا فقالوا : ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

أى : إن هؤلاء المشركين لا علم لنا بأنهم كانوا يعبدوننا ، ونبرأ من ذلك إن كانوا قد عبدونا ، وهم إنما كانوا يعبدون في الدنيا ﴿الْجِنَ﴾ أى الشياطين ، وكان أكثر هؤلاء المشركين يؤمنون بعبادة الشياطين ، ويطيعوهم فيما يأمروهم به ، أو ينهوهم عنه.

فقوله ـ تعالى ـ ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ﴾ إضراب انتقالي ، لبيان السبب في شرك هؤلاء المشركين ، وتصريح بمن كانوا يعبدوهم في الدنيا.

قال الجمل : فإن قيل جميعهم كانوا متابعين للشياطين ، فما وجه قوله ـ تعالى ـ ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ فإنه يدل على أن بعضهم لم يؤمن بالجن ولم يطعهم؟

فالجواب من وجهين : أحدهما : أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم ، فقالوا أكثرهم ، لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ، ولعل في الوجود من لم يطلع الله الملائكة على حاله من الكفار.

الثاني : هو أن العبادة عمل ظاهر ، والإيمان عمل باطن ، فقالوا : بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم ، وقالوا : أكثرهم بهم مؤمنون عند عمل القلب ، لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب ، فإن القلب لا يطلع على ما فيه إلا الله [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن الملك في يوم الحساب له وحده فقال : ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾.

أى : فاليوم لا يملك أحد من المعبودين أن ينفع أحدا من العابدين ، أو أن يضره ، بل الذي يملك كل ذلك هو الله ـ تعالى ـ وحده.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٨٧.

(٢) حاشية الجمل ج ٣ ص ٤٧٨.

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن مرد النفع والضر في هذا اليوم إلى الله ـ تعالى. وحده ، فالعابدون لا يملكون شيئا ، والمعبودون كذلك لا يملكون شيئا.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ أى : ونقول في هذا اليوم الهائل الشديد للذين ظلموا أنفسهم وظلموا الحق بعبادتهم لغيرنا ، نقول لهم ﴿ذُوقُوا﴾ فظاعة وشدة عذاب النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ، وتنكرون أن يكون هناك بعث أو حساب أو ثواب أو عقاب.

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من أقوال هؤلاء المشركين في شأن النبي ﷺ وفي شأن القرآن الكريم ، وتهددهم بسوء المصير إذا استمروا في طغيانهم وجهلهم فتقول :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾(٤٥)

وقوله : ﴿تُتْلى﴾ من التلاوة ، وهي قراءة الشيء بتدبر وتفهم.

أى : وإذا ما تليت آياتنا الدالة دلالة واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق رسولنا ﷺ فيما يبلغه عنا.

﴿قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ﴾ أى : قالوا على سبيل الإنكار والاستهزاء ، ما هذا التالي لتلك الآيات إلا رجل يريد أن يمنعكم عن عبادة الآلهة التي كان يعبدها آباؤكم الأقدمون.

ويعنون بقولهم «ما هذا إلا رجل» : الرسول ﷺ ويقصدون بالإشارة إليه ، الاستخفاف به ، والتحقير من شأنه ﷺ .

وقالوا : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ﴾ لإثارة حمية الجاهلية فيهم فكأنهم يقولون لهم : احذروا اتباع هذا الرجل ، لأنه يريد أن يجعلكم من أتباعه ، وأن يقطع الروابط التي تربط بينكم وبين آبائكم الذين أنتم قطعة منهم.

ولم يكتفوا بالتشكيك في صدق الرسول ﷺ بل أضافوا إلى ذلك التكذيب للقرآن الكريم ، ويحكى . سبحانه . ذلك فيقول : ﴿وَقالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً﴾.

أى : وقالوا في شأن القرآن الكريم : ما هذا الذي يتلوه محمد صلى الله عليه وسلم علينا ، إلا ﴿إِفْكٌ﴾ أى : كلام مصروف عن وجهه ، وكذب في ذاته ﴿مُفْتَرىً﴾ أى : مختلق على الله . تعالى . من حيث نسبته إليه.

فقوله ﴿مُفْتَرىً﴾ صفة أخرى وصفوا بها القرآن الكريم ، فكأنهم يقولون . قبحهم الله . ما هذا القرآن إلا كذب في نفسه ، ونسبته إلى الله . تعالى . ليست صحيحة.

ثم أضافوا إلى تكذيبهم للرسول ﷺ وللقرآن ، تكذيبا عاما لكل ما جاءهم به الرسول من حق ، فقالوا . كما حكى القرآن عنهم . : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ ، إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أى : وقال الكافرون في شأن كل حق جاءهم به الرسول ﷺ : ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر واضح.

وهكذا نراهم . لعنادهم وجهلهم . قد كذبوا الرسول ﷺ وكذبوا القرآن. وكذبوا كل توجيه قويم ، وإرشاد حكيم ، أرشدهم إليه ﷺ إذ اسم الإشارة الأول يعود إلى الرسول ﷺ والثاني يعود إلى القرآن ، والثالث يعود إلى تعاليم الإسلام كلها.

ثم بين . سبحانه . أن أقوالهم هذه لا تستند إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون ، فقال . تعالى . : ﴿وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾.

أى : أن هؤلاء الذين قالوا ما قالوا من باطل وزور ، لم نأتهم بكتب يدرسونها ويقرءونها ليعرفوا منها أن الشرك حق ، فيكون لهم عذرهم في التمسك به ، وكذلك لم نرسل إليهم قبلك . أيها الرسول الكريم . نذيرا يدعوهم إلى عبادة الأصنام ، ويخوفهم من ترك عبادتها.

وما دام الأمر كذلك ، فمن أين أتوا بهذا التصميم على شركهم ، وبهذا الإنكار للحق الذي

جاءهم؟ إن أمرهم هذا لهو في غاية الغرابة والعجب.

فالمقصود من الآية الكريمة تجهيلهم والتهكم بهم، ونفى أن يكون عندهم حتى ما يشبه الدليل على صحة ما هم فيه من شرك.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وقوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

ثم بين لهم ـ سبحانه ـ بعد ذلك هوان أمرهم. وتفاهة شأنهم بالنسبة لمن سبقوهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾.

والمعشار بمعنى العشر وهو لغة فيه. تقول: عندي عشر دينار ومعشار دينار، قال أبو حيان: والمعشار مفعال من العشر، ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع. ومعناهما: العشر والربع..[1].

والضمير في قوله ﴿وَما بَلَغُوا﴾ يعود لكفار مكة، وقوله: ﴿ما آتَيْناهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ يعود إلى الأمم السابقة.

والنكير: مصدر كالإنكار، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فعيل.

والمعنى: لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ لتكذيب قومك لك، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم، وإن قومك لم يبلغوا من القوة والغنى والكثرة.. عشر ما كان عليه سابقوهم، ولكن لما كذب أولئك السابقون أنبياءهم، أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، بأن دمرناهم جميعا.

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ ﴿فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ للتهويل. والجملة الكريمة معطوفة على مقدر والمعنى: فحين تمادوا في تكذيب رسلي، جاءهم إنكارى بالتدمير، فكيف كان إنكارى عليهم بالتدمير والإهلاك؟ لقد كان شيئا هائلا فظيعا تركهم في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها، فعلى قومك أن يحذروا من أن يصيبهم مثله.

وجعل ـ سبحانه ـ التدمير إنكارا، تنزيلا للفعل منزلة القول، كما في قول بعضهم: ونشتم بالأفعال لا بالتكلم.

ويرى بعضهم أن الضمير في قوله ﴿وَما بَلَغُوا﴾ يعود على الذين من قبلهم، وفي قوله ﴿آتَيْناهُمْ﴾ يعود إلى كفار مكة.

---

(١) تفسير البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٠.

وقد رجح الإمام الرازي هذا الرأى فقال ما ملخصه : قال المفسرون : معنى الآية : ما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين .. ثم إن الله أخذ هؤلاء المتقدمين ، دون أن تنفعهم قوتهم ، لما كذبوا رسلهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء . وهم قومك.

ثم قال . رحمه الله . : وعندي وجه آخر في معنى الآية ، وهو أن يقال : وكذب الذين من قبلهم ، وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، أى : الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قومك من البيان والبرهان. وذلك لأن كتابك يا محمد أكمل من سائر الكتب.

فإذا كنت قد أنكرت على المتقدمين لما كذبوا رسلهم . مع أنهم لم يؤتوا معشار ما أوتى قومك من البيان . ، فكيف لا أنكر على قومك بعد تكذيبهم لأوضح الكتب ، وأفصح الرسل .. [1] ويبدو لنا أن المعنى الأول الذي عبر عنه الإمام الرازي بقوله : قال المفسرون ، هو الأرجح لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ، لأنه يفيد التقليل من شأن مشركي مكة ، بالنسبة لمن سبقهم من الأمم ، من ناحية القوة والغنى.

وفي القرآن الكريم آيات متعددة تؤيد هذا المعنى ، منها قوله . تعالى . : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها ، وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [2].

وبعد هذا الحديث عن أقوال المشركين في شأن الرسول ﷺ وفي شأن القرآن .. وبعد هذا الرد الملزم لهم ، والمزهق لباطلهم. بعد كل ذلك لقن الله . تعالى . نبيه ﷺ الحجج القاطعة ، والأقوال الحكيمة ، التي تهدى إلى الرشد بأبلغ أسلوب ، وأصدق بيان ، فقال . تعالى . :

﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٢٤.

(٢) سورة الروم. الآية ٩.

﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾(٥٠)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿أَعِظُكُمْ﴾ من الوعظ ، وهو تذكير الغير بالخير والبر بكلام مؤثر رقيق يقال : وعظه يعظه وعظا وعظة ، إذا أمره بالطاعة ووصاه بها.

وقوله ﴿بِواحِدَةٍ﴾ صفة لموصوف محذوف.

والتقدير : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين الذين قالوا الكذب في شأنك وفي شأن ما جئت به ، قل لهم : إنما أعظكم وآمركم وأوصيكم بكلمة واحدة ، أو بخصلة واحدة.

ثم فسر ـ سبحانه ـ هذه الكلمة بقوله : ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى﴾. والمراد بالقيام هنا : التشمير عن ساعد الجد ، وتلقى ما جاءهم به الرسول ﷺ بقلب مفتوح. وعقل واع ، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكوف على التقليد.

و ﴿مَثْنى وَفُرادى﴾ أى : متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، وهما منصوبان على الحال.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ بعد ذلك في أمر هذا الرسول ﷺ وفي أمر رسالته ، وفي أمر ما جاء به من عند ربه ، فعند ذلك ترون أنه على الحق ، وأنه قد جاءكم بما يسعدكم.

فالآية الكريمة تأمرهم أن يفكر كل اثنين بموضوعية وإنصاف في أمر الرسول ﷺ ثم يعرض كل واحد منهما حصيلة تفكيره على صاحبه ، وأن يفكر كل واحد منهم على انفراد ـ أيضا في شأن هذا الرسول ، من غير تعصب وهوى.

وقدم الاثنين في القيام على المنفرد ، لأن تفكير الاثنين في الأمور بإخلاص واجتهاد وتقدير ، أجدى في الوصول إلى الحق من تفكير الشخص الواحد ولم يأمرهم بأن يتفكروا في جماعة ، لأن العقلية الجماعية كثيرا ما تتبع الانفعال الطارئ ، وقلما تتريث في الحكم على الأمور.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها ، أصبتم الحق ، وتخلصتم من الباطل . ، وهي : أن تقوموا لوجه الله خالصا ، متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به.

أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح على جادة الحق.

وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ومجاري أحوالهم. والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى ، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول. ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف : ويثور عجاج التعصب [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ كلام مستأنف جيء به لتنزيه ساحته ﷺ عما افتراه عليه المفترون من كونه قد أصيب بالجنون.

أى : اجتمعوا اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا ، ثم تفكروا بإخلاص وروية فترون بكل تأكيد أن محمدا ﷺ ليس به شيء من الجنون ، إنما هو أرجح الناس عقلا ، وأصدقهم قولا ، وأفضلهم علما ، وأحسنهم عملا ، وأزكاهم نفسا ، وأنقاهم قلبا ، وأجمعهم لكل كمال بشرى.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ بيان لوظيفته ﷺ أى : ليس به ﷺ من جنون ، وإنما هو نذير لكم ، يحذركم ويخوفكم من العذاب الشديد الذي سينزل بكم يوم القيامة ، إذا ما بقيتم على شرككم وكفركم ، وهذا العذاب ليس بعيدا عنكم.

قال الإمام ابن كثير : قال الامام أحمد : حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : «أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : «إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم خافوا عدوا يأتيهم. فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه وقال : أيها الناس أوتيتم. أيها الناس أوتيتم ...»

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٩٠.

وبهذا الاسناد قال رسول الله ﷺ : بعثت أنا والساعة جميعا ، إن كادت لتسبقني» [1].

ثم أمره ـ سبحانه ـ للمرة الثانية أن يصارحهم بأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته إياهم إلى ما يسعدهم فقال : ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أى : وقل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ بعد أن دعوتهم إلى التفكير الهادئ ، المتأنى في أمرك : إنى ما طلبت منكم أجرا على دعوتي إياكم إلى الحق والخير ، وإذا فرض وطلبت فهو مردود عليكم. لأنى لا ألتمس أجرى إلا من الله ـ تعالى ـ وحده ، وهو ـ سبحانه ـ على كل شيء شهيد ورقيب ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الآلوسى قوله : قل ما سألتكم من أجر ، أى : مهما سألتكم من نفع على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفى السؤال رأسا ، كقولك لصاحبك إن أعطيتنى شيئا فخذه ، وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئا : فما شرطية. مفعول ﴿سَأَلْتُكُمْ﴾ وقوله ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ الجواب ـ وقيل هي موصولة ، والعائد محذوف ، ومن للبيان ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط. أى : الذي سألتكموه من الأجر فهو لكم ، وثمرته تعود إليكم [2].

ثم أمره ـ سبحانه ـ للمرة الثالثة ، أن يبين لهم أنهم لا قدرة لهم على مجادلته أو محاربته ، لأن الله ـ تعالى ـ قد سلحه بما ينصره عليهم فقال : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وأصل القذف : الرمي بقوة وشدة والمراد به هنا : ما يوحيه الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ من قرآن وتوجيهات وإلهامات ، والباء في قوله ﴿بِالْحَقِ﴾ للسببية.

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ إن ربي يلقى الوحى إلى وإلى أنبيائه ، بسبب الحق الذي كلفهم بتبليغه إلى الناس ، وهو ـ سبحانه ـ وحده علام الغيوب.

قال الجمل : ما ملخصه قوله : ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِ﴾ يجوز أن يكون مفعوله محذوفا ، لأن القذف في الأصل الرمي ، وعبر به هنا عن الإلقاء. أى : يلقى الوحى إلى أنبيائه بالحق ، أى : بسبب الحق ، أو متلبسا الحق.

ويجوز أن يكون التقدير : يقذف الباطل بالحق ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥١٣.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٥٥.

ويجوز أن يكون المعنى : قل إن ربي يقضي ويحكم بالحق ، بتضمين «يقذف» معنى يقضى ويحكم [1].

ثم أمره . عزّ وجلّ . للمرة الرابعة أن يبين لهم أن باطلهم سيزول لا محالة وسينتهي أمره انتهاء لن تقوم له بعد قائمة فقال . تعالى . ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ والإبداء : هو فعل الأمر ابتداء. والإعادة : فعله مرة أخرى ، ولا يخلو الحي منهما ، فعدمهما كناية عن هلاكه. كما يقول : فلان لا يأكل ولا يشرب ، كناية عن هلاكه.

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين ، لقد جاء الحق المتمثل في دين الإسلام الذي أرسلنى به إليكم ربي ، ومادام الإسلام قد جاء ، فإن الباطل المتمثل في الكفر الذي أنتم عليه ، قد آن له أن يذهب وأن يزول ، وأن لا يبقى له إبداء أو إعادة ، فقد اندثر وأهيل عليه بالتراب إلى غير رجعة.

ثم أمره . سبحانه . للمرة الخامسة أن يصارحهم بأنه مسئول أمام الله عما يرشدهم إليه ، وأنهم ليسوا مسئولين عن هدايته أو ضلاله ، فقال . تعالى . : ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾.

أى : وقل لهم . أيها الرسول الكريم . على سبيل الإرشاد والتنبيه ، إنى إن ضللت عن الصراط المستقيم ، وعن اتباع الحق ، فإنما إثم ضلالي على نفسي وحدها لا عليكم ، وإن اهتديت إلى طريق الحق والصواب ، فاهتدائى بسبب ما يوحيه الله . تعالى . إلى من توجيهات حكيمة ، وإرشادات قويمة ، ﴿إِنَّهُ﴾ . سبحانه . ﴿سَمِيعٌ﴾ لكل شيء ﴿قَرِيبٌ﴾ منى ومنكم.

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة قد أمرت الرسول ﷺ خمس مرات ، أن يخاطب المشركين بما يقطع عليهم كل طريق للتشكيك في شأن دعوته ، وبما يوصلهم إلى طريق الهداية والسعادة لو كانوا يعقلون :

وأخيرا نرى سورة «سبأ» تختتم بهذه الآيات ، التي تصور تصويرا مؤثرا ، حالة الكافرين عند ما يخرجون من قبورهم للبعث والحساب ، يعلوهم الهلع والفزع ، ويحال بينهم وبين ما يشتهون ، لأن توبتهم جاءت في غير أوانها ... قال . تعالى . :

---

(١) حاشية الجمل ج ٣ ص ٤٨٠.

﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾(٥٤)

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف. وكذلك مفعول ﴿تَرى﴾. والفزع : حالة من الخوف والرعب تعترى الإنسان عند ما يشعر بما يزعجه ويخيفه. والفوت : النجاة والمهرب.

وهذا الفزع للكافرين يكون عند خروجهم من قبورهم للبعث والحساب ، أو عند قبض أرواحهم.

أى : ولو ترى ـ أيها العاقل ـ حال الكافرين ، وقت خروجهم من قبورهم للحساب ، وقد اعتراهم الفزع والهلع .. لرأيت شيئا هائلا ، وأمرا عظيما ...

وقوله ﴿فَلا فَوْتَ﴾ أى : فلا مهرب لهم ولا نجاة يومئذ من الوقوف بين يدي الله ـ تعالى ـ للحساب ، ولمعاقبتهم على كفرهم وجحودهم ...

وقوله : ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ معطوف على ﴿فَزِعُوا﴾ أى : فزعوا دون أن ينفعهم هذا الفزع ، وأخذوا ليلقوا مصيرهم السيئ من مكان قريب من موقف الحساب.

قال الآلوسى : والمراد بذكر قرب المكان ، سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم ، وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ ...» [1].

﴿وَقالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أى : وقال هؤلاء الكافرون عند ما رأوا العذاب المعد لهم في الآخرة : آمنا بالله ـ تعالى ـ وبأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لا معبود بحق سواه ، وآمنا بهذا الدين الذي جاءنا به رسوله محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ بيان لعدم انتفاعهم بما قالوه من إظهار الإيمان في هذا الوقت.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٥٧.

والتناوش : التناول. يقال : فلان ناش الشيء ينوشه نوشا إذا تناوله. ومنه قولهم : تناوشوا بالرماح ، أى : تناول بعضهم بعضا بها.

أى : لقد قالوا بعد البعث آمنا بهذا الدين ، ومن أين لهم في الآخرة تناول الإيمان والتوبة من الكفر ، وكان ذلك قريبا منهم في الدنيا فضيعوه ، وكيف يظفرون به في الآخرة وهي بعيدة عن دار الدنيا التي هي محل قبول الإيمان.

فالجملة الكريمة تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد أن فات أوانه ، وأن هذا الطلب في نهاية الاستبعاد كما يدل عليه لفظ ﴿أَنَّى﴾.

قال صاحب الكشاف : والتناوش والتناول أخوان. إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب ...

وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم في هذا الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا. مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة . أى : من مكان بعيد . ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه ...» (١).

وقوله . سبحانه . ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : قالوا آمنا بأن يوم القيامة حق ، والحال أنهم قد كفروا به من قبل في الدنيا ، عند ما دعاهم إلى الإيمان به رسول الله ﷺ.

وقوله . تعالى . : ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ بيان لما كانوا عليه في الدنيا من سفاهة في القول ، وجرأة في النطق بالباطل ، وفيما لا علم لهم به.

والعرب تقول لكل من تكلم فيما لا يعلمه : هو يقذف ويرجم بالغيب ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾.

أى : لقد كفروا بهذا الدين في الدنيا ، وكانوا ينطقون بأقوال لا علم لهم بها ، وبينها وبين الحق والصدق مسافات بعيدة. فقد نسبوا إلى الله . تعالى . الولد والشريك ، ويقولون في الرسول ﷺ إنه ساحر ... ، وفي شأن البعث : إنه لا حقيقة له ، وفي شأن القرآن : إنه أساطير الأولين.

فالمقصود بالآية تقريعهم وتجهيلهم ، على ما كانوا يتفوهون به من كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة.

ثم ختم . سبحانه . السورة الكريمة ببيان حرمانهم التام مما يشتهونه فقال : ﴿وَحِيلَ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٩٣.

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾.

وقوله ﴿حِيلَ﴾ فعل مبنى للمجهول مأخوذ من الحول بمعنى المنع والحجز. تقول حال الموج بيني وبين فلان. أى : منعني من الوصول إليه ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

أى : وحجز وفصل بين هؤلاء المشركين يوم القيامة ﴿وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ﴾ ويتمنون من قبول إيمانهم في هذا اليوم ، أو من العفو عنهم في هذا اليوم ، أو من العفو عنهم ورجوعهم إلى الدنيا .. حيل بينهم وبين كل ذلك ، ﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم ونظرائهم الذين سبقوهم في الكفر.

﴿إِنَّهُمْ كانُوا﴾ جميعا على نمط واحد ﴿فِي شَكٍ﴾ من أمر هذا الدين ﴿مُرِيبٍ﴾ أى : موقع في الريبة.

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة «سبأ» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

# تفسير

# سورة فاطر

## بسم الله الرّحمن الرّحيم

### مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة فاطر هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة الفرقان ـ كما ذكر صاحب الإتقان [١].

وهي من السور المكية الخالصة ، وتسمى أيضا ـ بسورة «الملائكة».

قال القرطبي : هي مكية في قول الجميع. وهي خمس وأربعون آية [٢].

٢ ـ سورة فاطر هي آخر السور التي افتتحت بقوله ـ تعالى ـ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقد سبقها في هذا الافتتاح سور : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ.

قال ـ سبحانه ـ في افتتاح سورة فاطر : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣ ـ ثم تحدث ـ سبحانه ـ بعد ذلك عن مظاهر نعمه على عباده ورحمته بهم ، فقال : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.﴾ ...

٤ ـ ثم توجه السورة الكريمة نداءين إلى الناس ، تأمرهم في أولهما بشكر الله ـ تعالى ـ على نعمه ، وتنهاهم في ثانيهما عن الاغترار بزينة الحياة الدنيا وعن اتباع خطوات الشيطان ..

قال ـ سبحانه ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ ... وقال ـ جل شأنه ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ للسيوطي.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣١٨.

٥ . وبعد أن تسلى السورة الكريمة الرسول ﷺ عما أصابه من أعدائه ، تأخذ في بيان مظاهر قدرة الله . تعالى . في خلقه ، فتذكر قدرته . سبحانه . في إرسال الرياح والسحب ، وفي خلقه للإنسان من تراب ، وفي إيجاده للبحرين : أحدهما عذب فرات سائغ شرابه ، والثاني : ملح أجاج ، وفي إدخاله الليل في النهار ، والنهار في الليل ، وفي تسخيره الشمس والقمر ..

قال . تعالى . : ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ ، وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ، وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

٦ . ثم وجه . سبحانه . نداء ثالثا إلى الناس ، بين لهم فيه : افتقارهم اليه . تعالى . وحاجتهم إلى عونه وعطائه ، وتحمل كل إنسان لمسئولياته ولنتائج أعماله ..

كما بين لهم . سبحانه . أن الفرق بين الهدى والضلال ، كالفرق بين الإبصار والعمى ، وبين النور والظلمات ، وبين الحياة والموت ، وبين الظل والحرور.

قال . تعالى . : ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ. وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

٧ . ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله . تعالى . ورحمته بعباده ، وعن الثواب العظيم الذي أعده . سبحانه . لمن يتلون كتابه ولمن يحافظون على فرائضه . وعن عقابه الأليم للكافرين الجاحدين لنعمه ..

قال . تعالى . : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها ، وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها ، وَغَرابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ ، إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ. إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾.

ثم قال . سبحانه . : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ ، لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

٨ . ثم انتقلت السورة الكريمة في أواخرها إلى الحديث عن جهالات المشركين ، حيث عبدوا من دون الله . تعالى . مالا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، وعن مكرهم السيئ الذي لا يحيق

إلا بأهله ، وعن نقضهم لعهودهم حيث ﴿أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ ...

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببيان سعة رحمته بالناس فقال : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ، ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾.

٩ ـ وهكذا نرى سورة فاطر قد طوفت بالنفس الإنسانية في أرجاء هذا الكون ، وأقامت الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته. عن طريق نعم الله ـ تعالى ـ المبثوثة في الأرض وفي السماء ، وفي الليل وفي النهار ، وفي الشمس وفي القمر : وفي الرياح وفي السحب ، وفي البر وفي البحر .. وفي غير ذلك من النعم التي سخرها ـ سبحانه ـ لعباده.

كما نراها قد حددت وظيفة الرسول ﷺ وساقت له ما يسليه ويزيده ثباتا على ثباته ، وما يرشد كل عاقل إلى حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(٣)

افتتحت سورة «فاطر» كما سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لسورة «سبأ» بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين ، وهي أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين.

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة وغيرها.

و «أل» في الحمد للاستغراق. بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء هو الله ـ تعالى ـ [1].

وقوله : ﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى خالقهما وموجدهما على غير مثال يحتذي ، إذ المراد بالفطر هنا : الابتداء والاختراع للشيء الذي لم يوجد ما يشبهه من قبل.

(١) راجع تفسيرنا لأوائل سور : الفاتحة ـ الأنعام ـ الكهف ـ سبأ.

قال القرطبي : والفاطر : الخالق ، والفطر ـ بفتح الفاء ـ : الشق عن الشيء. يقال : فطرته فانفطر. ومنه : فطر ناب البعير ، أى : طلع. وتفطر الشيء ، أى : تشقق ...

والفطر : الابتداء والاختراع. قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما (فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى : أنا ابتدأتها ..

والمراد بذكر السموات والأرض : العالم كله. ونبه بهذا على أن من قدر على الابتداء ، قادر على الإعادة [1].

والمعنى : الحمد المطلق والثناء التام الكامل لله ـ تعالى ـ وحده ، فهو ـ سبحانه ـ الخالق للسموات والأرض ، ولهذا الكون بأسره ، دون أن يسبقه إلى ذلك سابق ، أو يشاركه فيما خلق وأوجد مشارك.

وقوله ـ تعالى ـ : (جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ) بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته ـ تعالى ـ التي لا يعجزها شيء.

والملائكة : جمع ملك. والتاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملاك. وهم جند من خلق الله ـ تعال ـ وقد وصفهم ـ سبحانه ـ بصفات متعددة ، منها : أنهم (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) وأنهم (عِبادٌ مُكْرَمُونَ). (لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ).

قال الجمل : وقوله : جاعل الملائكة ، أى : بعضهم. إذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم. وقوله : (أُولِي أَجْنِحَةٍ) نعت لقوله (رُسُلاً) ، وهو جيد لفظا لتوافقهما تنكيرا. أو هو نعت للملائكة ، وهو جيد معنى إذ كل الملائكة لها أجنحة ، فهي صفة كاشفة .. [2].

وقوله : (مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ) أسماء معدول بها عن اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وهي ممنوعة من الصرف ، للوصفية والعدل عن المكرر وهي صفة لأجنحة.

أى : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض بقدرته ، والذي جعل الملائكة رسلا إلى أنبيائه. وإلى من يشاء من عباده ، ليبلغوهم ما يأمرهم ـ سبحانه ـ بتبليغه إليهم ..

وهؤلاء الملائكة المكرمون ، ذوو أجنحة عديدة. منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، لأن المراد بهذا الوصف ، بيان كثرة الأجنحة لا حصرها.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣١٩.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٨٣.

قال الآلوسى ما ملخصه قوله : ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ .. معناه : جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسالته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه ، كالأمطار والرياح وغيرهما.

وقوله : ﴿مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ معناه : أن من الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا دلالة في الآية على نفى الزائد ، وما ذكر من عد للدلالة على التكثير والتفاوت ، لا للتعيين ولا لنفى النقصان عن اثنين ..

فقد أخرج الشيخان عن ابن مسعود في قوله ـ تعالى ـ ﴿لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾ أن الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح .. [(١)].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من كمال قدرته ، ونفاذ إرادته.

أى يزيد ـ سبحانه ـ في خلق كل ما يزيد خلقه ما يشاء أن يزيده من الأمور التي لا يحيط بها الوصف ، ومن ذلك أجنحة الملائكة فيزيد فيها ما يشاء ، وكذلك ينقص في الخلق ما يشاء ، والكل جاء على مقتضى الحكمة والتدبير.

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾ أى : يزيد في خلق الأجنحة ، وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته.

والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأى ، وجرأة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التكلم ، وحسن تأن في مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف .. [(٢)].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى : إن الله ـ تعالى ـ لا يعجزه شيء يريده ، لأنه قدير على فعل كل شيء ، فالجملة الكريمة تعليل لما قبلها من كونه ـ سبحانه ـ يزيد في الخلق ما يشاء ، وينقص منه ما يشاء.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها.﴾ .. بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته وفضله على عباده.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٦١.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٩٥.

والمراد بالفتح هنا : الإطلاق والإرسال على سبيل المجاز. بعلاقة السببية لأن فتح الشيء المغلق ، سبب لإطلاق ما فيه وإرساله.

أى : ما يرسل الله ـ تعالى ـ بفضله وإحسانه للناس من رحمة متمثلة في الأمطار ، وفي الأرزاق ، وفي الصحة .. وفي غير ذلك ، فلا أحد يقدر على منعها عنهم.

﴿وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى : وما يمسك من شيء لا يريد إعطاءه لهم ، فلا أحد من الخلق يستطيع إرساله لهم. بعد أن منعه الله ـ تعالى ـ عنهم.

﴿وَهُوَ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه غالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل أقواله وأفعاله.

وعبر ـ سبحانه ـ في جانب الرحمة بالفتح ، للإشعار بأن رحمته ـ سبحانه ـ من أعظم النعم وأعلاها ، حتى لكأنها بمنزلة الخزائن المليئة بالخيرات ، والتي متى فتحت أصاب الناس منها ما أصابوا من نفع وبر.

و ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ للبيان. وجاء الضمير في قوله : ﴿فَلا مُمْسِكَ لَها﴾ مؤنثا ، لأنه يعود إليها وحدها.

وجاء مذكرا في قوله ﴿فَلا مُرْسِلَ لَهُ﴾ لأنه يشملها ويشمل غيرها. أى : وما يمسك من رحمة أو غيرها عن عباده فلا يستطيع أحد أن يرسل ما أمسكه ـ سبحانه ..

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ. وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ .. [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ. وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

قال ابن كثير : وثبت في صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدري. أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده. اللهم ربنا لك الحمد. ملء السموات والأرض. وملء ما شئت من شيء بعد .. اللهم لا مانع لما أعطيت. ولا معطى لما منعت. ولا ينفع ذا الجد منك الجد [3] ـ أى : ولا ينفع صاحب الغنى غناه وإنما الذي ينفعه عمله الصالح ..

---

(١) سورة يونس الآية ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٧.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٢٠.

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء الى الناس. أمرهم فيه بذكره وشكره فقال : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ ...

والمراد من ذكر النعمة : ذكرها باللسان وبالقلب ، وشكر الله تعالى عليها ، واستعمالها فيما خلقت له.

والمراد بالنعمة هنا : النعم الكثيرة التي أنعم بها ـ سبحانه ـ على الناس. كنعمة خلقهم ، ورزقهم ، وتسخير كثير من الكائنات لهم.

والاستفهام في قوله : ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ للنفي والإنكار ، أى : يا أيها الناس اذكروا بألسنتكم وقلوبكم ، نعم الله ـ تعالى ـ عليكم ، واشكروه عليها. واستعملوها في الوجوه التي أمركم باستعمالها فيها ، واعلموا أنه لا خالق غير الله ـ تعالى ـ يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنبات والزروع والثمار وما يشبه ذلك من الأرزاق التي فيها حياتكم وبقاؤكم.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنفة لتقرير النفي المستفاد مما قبله أى : لا إله مستحق للعبادة والطاعة إلا الله ـ تعالى ـ ، إذ هو الخالق لكم ، وهو الذي أعطاكم النعم التي لا تعد ولا تحصى.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أى : ومادام الأمر كذلك : فكيف تصرفون عن إخلاص العبادة لخالقكم ورازقكم ، إلى الشرك في عبادته.

فقوله ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ من الأفك ـ بالفتح ـ بمعنى الصرف والقلب يقال : أفكه عن الشيء ، إذا صرفه عنه ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ .. أى : لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا.

وبعد هذا البيان المعجز لمظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده ، وهيمنته على شئون خلقه .. أخذت السورة الكريمة في تسلية النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم وفي دعوة الناس إلى اتباع ما جاءهم به هذا النبي الكريم ، وفي بيان مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا

وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾(٨)

قال الآلوسى : قوله : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسلية له ﷺ بعموم البلية ، والوعد له ﷺ والوعيد لأعدائه.

والمعنى : وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين .. فتأس بأولئك الرسل في الصبر ، فقد كذبهم قومهم فصبروا على تكذيبهم. فجملة ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قائمة مقام جواب الشرط ، والجواب في الحقيقة تأس. وأقيمت تلك الجملة مقامه ، اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب .. [1].

وجاء لفظ الرسل بصيغة التنكير ، للإشعار بكثرة عددهم ، وسمو منزلتهم.

أى : وإن يكذبك ـ أيها الرسول الكريم ـ قومك ، فلا تحزن ، ولا تبتئس ، فإن إخوانك من الأنبياء الذين سبقوك ، قد كذبهم أقوامهم ، فأنت لست بدعا في ذلك.

ومن الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ .. [2].

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ﴾ .. [3].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٦٧.

(٢) سورة فصلت الآية ٤٣.

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٤.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يزيد في تسليته ﷺ فقال : ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أى : وإلى الله ـ تعالى ـ وحده ترجع أمور الناس وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم. وسيجازى ـ سبحانه ـ الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء ثانيا إلى الناس. بين لهم فيه أن البعث حق ، وأن من الواجب عليهم أن يستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح فقال ـ تعالى ـ ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.﴾ ...

أى : إن ما وعدكم الله ـ تعالى ـ به من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق لا ريب فيه ، وما دام الأمر كذلك ، ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أى : فلا تخدعنكم بمتعها ، وشهواتها ، ولذائذها ، فإنها إلى زوال وفناء ، ولا تشغلنكم هذه الحياة الدنيا من أداء ما كلفكم ـ سبحانه ـ بأدائه من فرائض وتكاليف.

﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ أى : ولا يخدعنكم عن طاعة ربكم ، ومالك أمركم ﴿الْغَرُورُ﴾.

أى : الشيطان المبالغ في خداعكم ، وفي صرفكم عن كل ما هو خير وبر.

فالمراد بالغرور هنا : الشيطان الذي أقسم بالأيمان المغلظة ، بأنه لن يكف عن إغواء بنى آدم ، وعن تزيين الشرور والآثام لهم.

فالمقصود بالآية الكريمة تذكير الناس بيوم القيامة وما فيه من أهوال. وتحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر.

ثم أكد ـ سبحانه ـ هذا التحذير بقوله : ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يا بنى آدم ، عداوة قديمة وباقية إلى يوم القيامة.

وما دام الأمر كذلك ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أى : فاتخذوه أنتم عدوا لكم في عقائدكم. وفي عباداتكم. وفي كل أحوالكم ، بأن تخالفوا وسوسته وهمزاته وخطواته ..

وقوله : ﴿إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ تقرير وتأكيد لهذه العداوة.

أى : اتخذوا ـ يا بنى آدم ـ الشيطان عدوا لكم ، لأنه لا يدعو أتباعه ومن هم من حزبه إلى خير أبدا ، وإنما يدعوهم الى العقائد الباطلة. والأقوال الفاسدة ، والأفعال القبيحة التي تجعلهم يوم القيامة من أهل النار الشديدة الاشتعال ..

ثم بين ـ سبحانه ـ أقسام الناس يوم القيامة فقال : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكل ما يجب

الإيمان به ﴿لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر خالقهم - عَزَّ وَجَلَّ - واتباعهم للشيطان ..

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحاتِ لَهُمْ﴾ من ربهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى ..

ثم بين - سبحانه - الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر، والمطيع، والعاصي، فقال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ ...

والاستفهام للإنكار. و «من» موصولة في موضع رفع على الابتداء. والجملة بعدها صلتها، والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه، و ﴿زُيِّنَ﴾ من التزيين بمعنى التحسين. وقوله ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أى: عمله السيئ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف.

والمعنى: أفمن زين له الشيطان عمله السيئ، فرآه حسنا، كمن ليس كذلك؟ كلا إنهما لا يستويان في عرف أى عاقل، فإن الشخص الذي ارتكب الأفعال القبيحة التي زينها له الشيطان، أو نفسه الأمارة بالسوء، أو هواه .. مصيره إلى الشقاء والتعاسة.

أما الشخص الذي خالف الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى المردى .. فمصيره إلى السعادة والفلاح.

وقد صرح - سبحانه - بالأمرين في آيات منها قوله - تعالى - ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾؟

وجملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ تعليل لسببية التزيين لرؤية القبيح حسنا ..

أى: هؤلاء الذين يعملون الأعمال السيئة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، لا قدرة لك على هدايتهم - أيها الرسول الكريم - فإن الله - تعالى - وحده، هو الذي يضل من يشاء إضلاله، ويهدى من يشاء هدايته.

والفاء في قوله - تعالى -: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾ للتفريع. والحسرات جمعه حسرة، وهي أشد ما يعترى الإنسان من ندم على أمر قد مضى وانتهى والجار والمجرور «عليهم» متعلق بقوله «حسرات».

أى: إذا كان الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فامض في طريقك وبلغ رسالة ربك، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا تهلك نفسك هما وغما وحزنا من أجل هؤلاء الذين أعرضوا عن الحق، واعتنقوا الباطل، وظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا ..

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يزيد في تسلية الرسول ﷺ فقال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾.

أى : إن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء مما يفعله هؤلاء الجاهلون من أفعال قبيحة ، وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقونه من عقاب.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (٢).

وبعد هذه التسلية من الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ وبعد هذا التحذير من وسوسة الشيطان ومن خداعه ، وبعد هذا البيان لسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، بعد كل ذلك .. ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله ـ تعالى ـ على عباده ، ومن رحمته بهم ، نرى ذلك في الرياح وفي السحب ، وفي البحار والأنهار ، وفي الليل نهار ، وفي الشمس القمر .. وفي غير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة في هذا الكون.

**قال ـ تعالى ـ :**

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ

---

(١) سورة الشعراء الآية ٣.

(٢) سورة الكهف الآية ٦.

وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١١) وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١٤)

قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ لما ذكر ـ سبحانه ـ أشياء من الأمور السماوية ، وإرسال الملائكة ، أتبع ذلك بذكر أشياء من الأمور الأرضية كالرياح وإرسالها ، وفي هذا احتجاج على منكري البعث ، دلهم على المثال الذي يعاينونه ، وهو وإحياء الموتى سيان. وفي الحديث أنه قيل لرسول الله ﷺ : كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ فقال : «هل مررت بوادي أهلا محلا ـ أى مجدبا لا نبات فيه ـ ثم مررت به يهتز خضرا؟ فقالوا : نعم ، فقال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك آيته في خلقه» [1].

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته ـ عزّ وجلّ ـ ومن سعة رحمته بعباده.

---

(١) تفسير البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٢ لأبى حيان.

وقوله : ﴿فَتُثِيرُ﴾ من الإثارة بمعنى التهييج والتحريك من حال إلى حال.

أى : والله ـ تعالى ـ وحده ، هو الذي أرسل الرياح ، فجعلها بقدرته النافذة تحرك السحب من مكان إلى مكان ، فتذهب بها تارة إلى جهة الشمال ، وتارة إلى جهة الجنوب ، وتارة إلى غير ذلك.

وقوله : ﴿فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ بيان للحكمة من هذه الإثارة. والمراد بالبلد الميت : الأرض الجدباء التي لا نبات فيها. والضمير في ﴿فَسُقْناهُ﴾ يعود إلى السحاب.

وقوله : ﴿فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ أى : فأحيينا بالمطر النازل من السحاب الأرض الجدباء ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فالضمير في قوله ﴿بِهِ﴾ يعود إلى المطر ، لأن السحاب يدل عليه لما بينهما من تلازم ، ويصح أن يعود إلى السحاب لأنه سبب نزول الأمطار.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿فَتُثِيرُ﴾ بصيغة المضارع. استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على قدرة الله ـ تعالى ـ ، والتي من شأنها أن تغرس العظات والعبر في النفوس.

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَسُقْناهُ فَأَحْيَيْنا﴾ بنون العظمة ، وبالفعل الماضي ، للدلالة على تحقق قدرته ورحمته بعباده.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : لم جاء ﴿فَتُثِيرُ﴾ على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟.

قلت : ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح للسحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية ..

ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة ، إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه .. (١).

والكاف في قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ بمعنى مثل ، وهي في محل رفع على الخبرية. أى : مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه للأرض بعد نزول المطر عليها ، يكون إحياء الأموات منكم.

قال الإمام الرازي : فإن قيل ما وجه التشبيه بقوله : ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾؟ فالجواب من وجوه :

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٠١.

أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة.

ثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابية ، كذلك يجمع ـ سبحانه ـ بين أجزاء الأعضاء ..

ثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت ، كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت (١).

والنشور : الإحياء والبعث بعد الموت. يقال : أنشر الله ـ تعالى ـ الموتى ونشرهم ، إذا أحياهم بعد موتهم. ونشر الراعي غنمه ، إذا بثها بعد أن آواها.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن العزة الكاملة إنما هي لله ـ تعالى ـ وحده فقال : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً.﴾ ...

والمراد بالعزة : الشرف والمنعة والاستعلاء ، من قولهم : أرض عزاز ، أى : صلبة قوية.

و ﴿مَنْ﴾ شرطية ، وجواب الشرط محذوف. وقوله : ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ تعليل للجواب المحذوف.

والمعنى من كان من الناس يريد العزة التي لا ذلة معها. فليطع الله وليعتمد عليه وحده فلله ـ تعالى ـ العزة كلها في الدنيا والآخرة ، وليس لغيره منها شيء.

وفي هذا رد على المشركين وغيرهم ممن يطلبون العزة من الأصنام أو من غيرها من المخلوقات قال ـ تعالى ـ : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٢).

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (٣).

قال القرطبي ما ملخصه : يريد ـ سبحانه ـ في هذه الآية ، أن ينبه ذوى الأقدار والهمم ، من أين تنال العزة ومن أين تستحق ، فمن طلب العزة من الله ـ تعالى ـ وجدها عنده ، ـ إن شاء الله ـ ، غير ممنوعة ولا محجوبة عنه .. ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده.

وقال صلى‌الله‌عليه‌وسلم مفسرا لهذه الآية : «من أراد عز الدارين فليطع العزيز» ، ولقد أحسن القائل.

وإذا تذللت الرقاب تواضعا ... منا إليك فعزها في ذلها

---

(١) تفسير البحر الرازي ج ٧ ص ٣٢.

(٢) سورة مريم الآيتان ٨١ ، ٨٢.

(٣) سورة النساء الآية ١٣٩.

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، فليعتز بالله . تعالى . ، فإن من اعتز بغير الله ، أذله الله ، ومن اعتز به . سبحانه أعزه [1].

ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله . تعالى . : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن العزة الكاملة لله . تعالى . وحده ، أما عزة الرسول ﷺ فمستمدة من قربه من الله . تعالى . ، كما أن عزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله . تعالى . وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة أن هذه الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى الطريق الذي يوصلهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية. ألا وهو طاعة الله . تعالى . ، والاعتماد عليه والاعتزاز به.

وقوله . سبحانه . : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ حض للمؤمنين على النطق بالكلام الحسن ، وعلى الإكثار من العمل الصالح.

و ﴿يَصْعَدُ﴾ من الصعود بمعنى الارتفاع إلى أعلى والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع. يقال صعد في السلم ويصعد صعودا إذا ارتقاه وارتفع فيه.

و ﴿الْكَلِمُ﴾ اسم جنس جمعي واحده كلمة.

والمراد بالكلم الطيب : كل كلام يرضى الله . تعالى . من تسبيح وتحميد وتكبير. وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وغير ذلك من الأقوال الحسنة.

والمراد بصعوده : قبوله عند الله . تعالى . ورضاه عن صاحبه ، أو صعود صحائف هذه الأقوال الطيبة.

والمعنى : إليه . تعالى . وحده ، لا إلى غيره يصعد الكلم الطيب ، أى : يقبل عنده ، ويكون مرضيا لديه ، أو إليه . وحده . ترفع صحائف أعمال عباده ، الصادقين فيجازيهم بما يستحقون من ثواب ، والعمل الصالح الصادر عن عباده المؤمنين يرفعه الله . تعالى . إليه ، ويقبله منهم ، ويكافئهم عليه.

فالفاعل لقوله ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ضمير يعود على الله . تعالى . ، والضمير المنصوب يعود إلى العمل الصالح أى : يرفع الله . تعالى . العمل الصالح إليه ، ويقبله من أصحابه.

ومنهم من يرى أن الفاعل لقوله ﴿يَرْفَعُهُ﴾ هو العمل الصالح. والضمير المنصوب يعود إلى الكلم الطيب. أى : أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب. بأنه يجعله مقبولا عند الله . تعالى ..

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٢٨.

ومنهم من يرى العكس. أى : أن الكلم الطيب هو الذي يرفع العمل الصالح.

قال الشوكانى ما ملخصه : ومعنى : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. كما قال الحسن وغيره. ووجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا من العمل الصالح وقيل : إن فاعل ﴿يَرْفَعُهُ﴾ هو الكلم الطيب ، ومفعوله العمل الصالح. ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل : إن فاعل ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ضمير يعود إلى الله ـ تعالى ..

والمعنى : أن الله ـ تعالى ـ يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ، لأن العمل يحقق الكلام. وقيل : والعمل الصالح هو الذي يرفع صاحبه. [1].

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال ، أن يكون الفاعل لقوله ﴿يَرْفَعُهُ﴾ هو الله ـ تعالى ـ ، وأن الضمير المنصوب عائد إلى العمل الصالح لأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يقبل الأقوال الطيبة ، وهو ـ سبحانه ـ الذي يرفع الأعمال الصالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين.

ثم بين ـ تعالى ـ بعد ذلك سوء عاقبة الذين يمكرون السوء فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

والمكر : التدبير المحكم. أو صرف غيرك عما يريده بحيلة. وهو مذموم إن تحرى به صاحبه الشر والسوء. كما في الآية الكريمة ، ومحمود إن تحرى به صاحبه الخير والنفع و ﴿السَّيِّئاتِ﴾ جمع سيئة وهي صفة لموصوف محذوف.

وقوله ﴿يَبُورُ﴾ أى : يبطل ويفسد ، من البوار : يقال : بار المتاع بوارا إذا كسد وصار في حكم الهالك.

أى : والذين يمكرون المكرات السيئات من المشركين والمنافقين وأشباههم ، لهم عذاب شديد من الله ـ تعالى ـ ، ومكر أولئك الماكرين المفسدين ، مصيره إلى الفساد والخسران ، لأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

ويدخل في هذا المكر السيئ ما فعله المشركون مع الرسول ﷺ في دار الندوة ، حيث بيتوا قتله ، ولكن الله ـ تعالى ـ نجاه من شرورهم ، كما دخل فيه غير ذلك من أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، ونياتهم الخبيثة.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك دليلا آخر على صحة البعث والنشور ، وعلى كمال قدرته ـ تعالى ـ فقال : ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ أى : خلقكم ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣٤٠.

من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وأصلها الماء الصافي أو الماء القليل الذي يبقى في الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف. يقال : نطفت القربة إذا قطرت.

والمراد بها هنا : المنى الذي هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة.

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً﴾ أى : أصنافا ذكرانا وإناثا ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً﴾. أو المراد : ثم جعلكم تتزاوجون ، فالرجل يتزوج المرأة ، والمرأة تتزوج الرجل.

﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أى : لا يحصل من الأنثى حمل ، كما لا يحصل منها وضع لما في بطنها ، إلا والله ـ تعالى ـ عالم به علما تاما لأنه ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء.

﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ﴾ والمراد بالعمر الشخص الذي يطيل الله ـ تعالى ـ عمره.

والضمير في قوله ﴿مِنْ عُمُرِهِ﴾ يعود إلى شخص آخر ، فيكون المعنى : ما يمد ـ سبحانه ـ في عمر أحد من الناس ، ولا ينقص من عمر أحد آخر ، إلا وكل ذلك كائن وثابت في كتاب عنده ـ تعالى ـ وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ ، أو صحائف أعمال العباد أو علم الله الأزلى.

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله ﴿مِنْ عُمُرِهِ﴾ يعود إلى الشخص ذاته وهو المعمر فيكون المعنى : وما يمد الله ـ تعالى ـ في عمر إنسان ، ولا ينقص من عمره بمضى أيام حياته ، إلا وكل ذلك ثابت في علمه ـ سبحانه ..

قال بعض العلماء : وقد أطال بعضهم الكلام في ذلك ومحصله : أنه اختلف في معنى ﴿مُعَمَّرٍ﴾ فقيل : هو المزاد عمره بدليل ما يقابله من قوله ولا ينقص ، وقيل : المراد بقوله ﴿مُعَمَّرٍ﴾ من يجعل له عمر. وهل هو شخص واحد أو شخصان؟

فعلى رأى من قال بأن المعمر ، هو من يجعل له عمر يكون شخصا واحدا بمعنى انه يكتب عمره مائة سنة ـ مثلا ـ ، ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا فكتابة الأصل هي التعمير .. والكتابة بعد ذلك هو النقص كما قيل :

حياتك أنفاس تعدّ فكلما مضى نفس منها انتقصت به جزءا

والضمير حينئذ راجع إلى المذكور. والمعمر على هذا هو الذي جعل الله ـ تعالى ـ له عمرا طال هذا العمر أو قصر.

وعلى رأى من قال بأن المعمر هو من يزاد في عمره ، يكون من ينقص في عمره غير الذي

يزاد في عمره فهما شخصان. والضمير في «عمره» على هذا الرأى يعود إلى شخص آخر ، إذ لا يكون المزيد في عمره منقوصا من عمره ..» [(١)].

وقد رجح ابن جرير ـ رحمه الله ـ الرأى الأول وهو أن الضمير في قوله ﴿مِنْ عُمُرِهِ﴾ يعود إلى شخص آخر ـ فقال : وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب ، التأويل الأول ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه ، وأشبههما بظاهر التنزيل [(٢)].

واسم الإشارة في قوله ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ يعود إلى الخلق من تراب وما بعده.

أى : إن ذلك الذي ذكرناه لكم من خلقكم من تراب ، ثم من نطفة .. يسيروهين على الله ـ تعالى ـ لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء على الإطلاق.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ نوعا آخر من أنواع بديع صنعه ، وعجيب قدرته ، فقال : ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ ، هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ ...

والماء العذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذي يشعر الإنسان عند شربه باللذة وهو ماء الأنهار. وسمى فراتا لأنه يفرت العطش ، أى : يقطعه ويزيله ويكسره.

والماء الملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار. سمى أجاجا من الأجيج وهو تلهب النار ، لأن شربه يزيد العطشان عطشا وتعبا.

قالوا : والآية الكريمة مثل للمؤمن والكافر. فالبحر العذب : مثل للمؤمن ، والبحر الملح : مثل للكافر.

فكما أن البحرين اللذين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه. والآخر ملح أجاج. لا يتساويان في طعمهما ومذاقهما. وإن اشتركا في بعض الفوائد ـ فكذلك المؤمن والكافر ، لا يتساويان في الخاصية العظمى التي خلقا من أجلها ، وهي إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإن اشتركا في بعض الصفات الأخرى كالسخاء والشجاعة ـ لأن المؤمن استجاب لفطرته فآمن بالحق ، أما الكافر فقد عاند فطرته ، فأصر على الكفر.

وقوله : ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا﴾ بيان لبعض النعم التي وهبها ـ سبحانه ـ لعباده من وجود البحرين.

أى : ومن كل واحد منهما تأكلون لحما طريا ، أى : غضا شهيا مفيدا لأجسادكم ، عن طريق ما تصطادونه منهما من أسماك وما يشبهها.

---

(١) تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٤٩٧٦.

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢٢ ص ٨١.

قال بعض العلماء. وفي وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغيير. وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر المأكولات فسبحان الخبير بشئون خلقه ..

وفيه ـ أيضا ـ إيماء إلى كمال قدرته ـ تعالى ـ حيث أوجد هذا اللحم الطري النافع في الماء الملح الأجاج الذي لا يشرب.

وقد كره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء ، وهو الذي يموت حتف أنفه في الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أنه قال : «ما نضب عنه الماء فكلوه. وما لفظه الماء فكلوه ، وما طفا ـ على وجه الماء ـ فلا تأكلوه».

فالمراد من ميتة البحر في حديث : «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» ما لفظه البحر لا ما مات فيه من غير آفة» [1].

وقوله ـ تعالى ـ : (وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها) بيان لنعمة ثانية من النعم التي تصل إلى الناس عن طريق البحرين.

والحلية ـ بكسر الحاء ـ : اسم لما يتحلى به الناس ، ويتزينون بلبسه ، وجمع حلية : حلى وحلى ـ بكسر الحاء وضمها ـ يقال : تحلت المرأة إذا لبست الحلي.

أى : ومن النعم التي تصل إليكم عن طريق البحرين ، استخراجكم منهما ما ينفعكم ، وما تتحلى به نساؤكم ، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما.

والتعبير بقوله : (وَتَسْتَخْرِجُونَ) يشير إلى كثرة الإخراج. فالسين والتاء للتأكيد. كما يشير بأن من الواجب على المسلمين ، أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما في البحرين من كنوز نافعة ، وأن لا يتركوا ذلك لأعدائهم.

وأسند ـ سبحانه ـ لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور ، فقال (تَلْبَسُونَها) على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء في الأعم الأغلب من الأحوال.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : (تَلْبَسُونَها) أى : تلبسها نساؤكم وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهن ، وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب لتزينهن فإن النساء يتزين ـ في الغالب ـ ليحسن في أعين الرجال ..» [2].

---

(١) تفسير المراغي ج ١٤ ص ٦١.

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١١٣.

وقال بعض العلماء : وفي الآية دليل قرآني واضح على بطلان دعوى بعض العلماء من أن اللؤلؤ والمرجان ، لا يستخرجان إلا من البحر الملح خاصة» [1].

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ بيان لنعمة ثالثة من نعمه ـ تعالى ـ عن طريق وجود البحار في الأرض.

وأصل المخر : الشق. يقال مخرت السفينة البحر إذا شقته وسارت بين أمواجه ، ومخر الماء الأرض إذا شقها.

أى : وترى ـ أيها العاقل ـ ببصرك السفن في كل من البحرين ﴿مَوَاخِرَ﴾ أى تشق الماء بمقدماتها ، وتسرع السير فيه من جهة إلى جهة ..

والضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى البحر الملح ، لأن أمر الفلك فيه أعظم من أمرها في البحر العذب ، وإن كانت السفن تجرى في البحرين.

ويجوز أن يكون الضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى جنس البحر. أى : وترى السفن تشق كل بحر ، لتسير فيه من مكان إلى مكان ..

واللام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام السابق.

أى : أوجدنا البحرين ، وسخرناهما لمنفعتكم ، لتطلبوا أرزاقكم فيهما ، وهذه الأرزاق هي من فضل الله ـ تعالى ـ عليكم ، ومن رحمته بكم ، ولعلكم بعد ذلك تشكروننا على آلائنا ونعمنا ، فإن من شكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا.

ثم بين ـ سبحانه ـ نعما أخرى تتجلى في الليل وفي النهار ، وفي الشمس والقمر ، فقال : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ..

أى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه أوجد لكم الليل والنهار بهذا النظام البديع ، بأن أدخل أحدهما في الآخر ، وجعلهما متعاقبين ، مع زيادة أحدهما عن الآخر في الزمان ، على حسب اختلاف المطالع ، والمغارب ، وأوجد ـ أيضا ـ بفضله ورحمته الشمس والقمر لمنفعتكم ، وكل واحد منهما يسير بنظام بديع محكم ، إلى الأجل والوقت الذي حدده الله ـ تعالى ـ لانتهاء عمر هذه الدنيا ..

---

(١) اضواء البيان ج ٦ ص ٦٤٠ للشيخ الشنقيطى ـ رحمه‌الله ـ ..

والإشارة في قوله : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ.﴾ .. تعود إلى الخالق والموجد لتلك الكائنات العجيبة البديعة ، وهو الله . عَزَّجَلَّ ..

أى : ذلكم الذي أوجد كل هذه المخلوقات لمنفعتكم ، هو الله . تعالى . ربكم وهو وحده الذي له ملك هذا الكون ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه في ملكيته منازع ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى : والذين تعبدونهم من دون الله . تعالى . ، وتصفونهم بأنهم آلهة.

﴿ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ والقطمير : القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة.

أو هو النقطة في ظهر النواة ، ويضرب مثلا لأقل شيء وأحقره.

أى : والذين تعبدونهم من دون الله . تعالى . لا يملكون معه . سبحانه . شيئا ، ولو كان هذا الشيء في نهاية القلة والحقارة والصغر ، كالنكتة التي تكون في ظهر النواة.

ثم أكد . سبحانه . هذا المعنى وقرره فقال : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ.﴾ ...

أى : إن هذه المعبودات الباطلة لا تملك من شيء مع الله . تعالى . ، بدليل أنكم إن تدعوهم لنفعكم ، لن يسمعوا دعاءكم ، وإن تستغيثوا بهم عند المصائب والنوائب ، لن يلبوا استغاثتكم ..

﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا قدرة لهم على هذه الاستجابة لعجزهم عن ذلك.

﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ الذي تتجلى فيه الحقائق ، وتنكشف الأمور ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

أى : يتبرءون من عبادتكم لهم ، ومن إشراككم إياهم العبادة مع الله . تعالى . ، فضلا عن عدم استجابتهم لكم إذا دعوتموهم لنصرتكم.

﴿وَلا يُنَبِّئُكَ﴾ أى : ولا يخبرك بهذه الحقائق التي لا تقبل الشك أو الريب.

﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أى : مثل من هو خبير بأحوال النفوس وبظواهرها وببواطنها. وهو الله . عَزَّجَلَّ . ، فإنه . سبحانه . هو الذي يعلم السر وأخفى.

وبهذا نرى الآيات الكريمة ، قد طوفت بنا في أرجاء هذا الكون ، وساقت لنا ألوانا من نعم الله . تعالى . على الناس ، كالرياح ، والسحاب ، والأمطار والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ... وهي نعم تدل على وحدانية المنعم بها ، وعلى قدرته . عَزَّجَلَّ . وفي كل ذلك هداية إلى الحق لكل عبد منيب.

ثم وجه . سبحانه . نداء ثالثا إلى الناس ، نبههم فيه إلى فقرهم إليه . سبحانه . ، وإلى غناه عنهم ، وإلى مسئولية كل إنسان عن نفسه ، وإلى وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي

أرسله إليهم ، وإلى الفرق الشاسع بين الإيمان والكفر ، وإلى سوء مصير المكذبين ، فقال . تعالى . :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾(٢٦)

وقوله . تعالى . : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ.﴾ .. نداء منه . سبحانه . للناس ، يعرفهم فيه حقيقة أمرهم ، ولأنهم لا غنى لهم عن خالقهم . عزّ وجلّ ..

أى : يا أيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله . تعالى . في كل شئونكم الدنيوية والأخروية ﴿وَاللهُ﴾ . تعالى . وحده هو الغنى ، عن كل مخلوق سواه ، وهو ﴿الْحَمِيدُ﴾ أى :

المحمود من جميع الموجودات ، لأنه هو الخالق لكل شيء ، وهو المنعم عليكم وعلى غيركم بالنعم التي لا تحصى.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عرف الفقراء؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنه لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ، وقد شهد الله ـ سبحانه ـ على الإنسان بالضعف في قوله : ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء» [1].

وجمع ـ سبحانه ـ في وصف ذاته بين الغنى والحميد ، للإشعار بأنه ـ تعالى ـ بجانب غناه عن خلقه ، هو الذي يفيض عليهم من نعمه ، وهو الذي يعطيهم من خيره وفضله ، ما يجعلهم يحمدونه بألسنتهم وقلوبهم.

قال الآلوسى : قوله ﴿الْحَمِيدُ﴾ أى : المنعم على جميع الموجودات ، المستحق بإنعامه للحمد ، وأصله المحمود ، وأريد به ذلك عن طريق الكناية ، ليناسب ذكره بعد فقرهم ، إذ الغنى لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادا منعما ، ومثله مستحق للحمد ، وهذا كالتكميل لما قبله ..» [2].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيان لمظهر من مظاهر غناه عن الناس.

أى : إن يشأ ـ سبحانه ـ يهلككم ويزيلكم من هذا الوجود ، ويأت بأقوام آخرين سواكم ، فوجودكم في هذه الحياة متوقف على مشيئته وإرادته.

واسم الإشارة في قوله ﴿وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ يعود على الإذهاب بهم ، والإتيان بغيرهم.

وما ذلك الذي ذكرناه لكم من إفنائكم والإتيان بغيركم ، بعزيز ، أى : بصعب أو عسير أو ممتنع على الله ـ تعالى ـ ، لأن قدرته ـ تعالى ـ لا يعجزها شيء.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن كل نفس تتحمل نتائج أعمالها وحدها فقال : ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾.

وقوله : ﴿تَزِرُ﴾ من الوزر بمعنى الحمل. يقال : فلان وزر هذا الشيء إذا حمله. وفعله

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٠٦.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٨٣.

من باب «وعد» ، وأكثر ما يكون استعمالا في حمل الآثام.

وقوله ﴿وازِرَةٌ﴾ : صفة لموصوف محذوف. أى : ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما كل نفس مسئولة وحدها عن أفعالها وأقوالها التي باشرتها ، أو تسببت فيها.

وقوله : ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ مؤكد لمضمون ما قبله ، من مسئولية كل نفس عن أفعالها.

وقوله : ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ صفة لموصوف محذوف ، والمفعول محذوف ـ أيضا ـ للعلم به.

وقوله ﴿حِمْلِها﴾ أى : ما تحمله من الذنوب والآثام ، إذ الحمل ـ بكسر الحاء ـ ما يحمله الإنسان من أمتعة على ظهره أو رأسه أو كتفه.

والمعنى : لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، وإن تطلب نفس مثقلة بالذنوب من نفس أخرى ، أن تحمل عنها شيئا من ذنوبها التي أثقلتها ، لا تجد استجابة منها ، ولو كانت تلك النفس الأخرى من أقربائها وذوى رحمها.

قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً﴾ ...

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى؟ قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها ، لا وزر غيرها.

فإن قلت : كيف توفق بين هذا ، وبين قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾؟

قلت : تلك الآية في الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلالهم لغيرهم ، مع أثقالهم ، وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شيء من وزر غيرهم.

فإن قلت : فما الفرق بين معنى ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ وبين معنى : ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ..؟

قلت : الأول في الدلالة على عدل الله ـ تعالى ـ في حكمه ، وأنه ـ تعالى ـ لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها.

والثاني : في أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث .. وإن كان المستغاث به بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ ...

فإن قلت : إلام أسند كان في قوله ﴿وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾؟ قلت : إلى المدعو المفهوم من قوله : ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾.

فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو؟ قلت : «ليعم ويشمل كل مدعو ..» (١).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾.

كلام مستأنف مسوق لبيان من هم أهل للاتعاظ والاستجابة للحق.

أى : أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ إنما ينفع وعظك وإنذارك. أولئك العقلاء الذين يخشون ربهم ـ عزّ وجلّ ـ دون أن يروه ، أو يروا عذابه ، والذين يؤدون الصلاة في مواقيتها بإخلاص وخشوع واطمئنان.

ثم حض ـ سبحانه ـ على تزكية النفوس وتطهيرها فقال : ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ أى : ومن تطهر من دنس الكفر والفسوق والعصيان. وحصن نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتوبة النصوح ، فإن ثمرة تطهره إنما تعود إلى نفسه وحدها ، وإليها يرجع الأجر والثواب ، والله ـ تعالى ـ إليه وحده مصير العباد لا إلى غيره.

فالجملة الكريمة دعوة من الله ـ تعالى ـ للناس ، إلى تزكية النفوس وتطهيرها من كل سوء ، بعد بيان أن كل نفس مسئولة وحدها عن نتائج أفعالها ، وأن أحدا لن يلبى طلب غيره في أن يحمل شيئا عنه من أوزاره.

ثم ساق ـ سبحانه ـ أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، وبين الحق والباطل ، وبين العلم والجهل .. فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ. وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ. وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ. وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾ ...

والحرور : هو الريح الحارة التي تلفح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر.

أى : وكما أنه لا يستوي في عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ، وكما لا تصلح المساواة بين الظلمات والنور ، كذلك لا تصلح المساواة بين الكفر والإيمان ، وكما لا يتساوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة ، كذلك لا يستوي أصحاب الجنة وأصحاب النار.

فأنت ترى أن الآيات الكريمة قد مثلت الكافر في عدم اهتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، كما مثلت الكفر بالظلمات والإيمان بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار بالريح الحارة التي تشبه السموم.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٠٧.

وكرر ـ سبحانه ـ لفظ ﴿لَا﴾ أكثر من مرة، لتأكيد نفى الاستواء، بأية صورة من الصور.

وقوله: ﴿وما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق، وللكافرين الذين أصروا على باطلهم. أو هو تمثيل للعلماء والجهلاء قال الإمام ابن كثير: يقول ـ تعالى ـ كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا يستوي الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ ...

وقال ـ تعالى ـ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾ فالمؤمن سميع بصير في نور يمشى .. والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمشى، ولا خروج له منها، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ..» [1].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ بيان لنفاذ قدرة الله ـ تعالى ـ، ومشيئته.

أى: إن الله ـ تعالى ـ يسمع من يشاء أن يسمعه، ويجعله مدركا للحق، ومستجيبا له أما أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ فليس في استطاعتك أن تسمع هؤلاء الكافرين المصرين على كفرهم وباطلهم، والذين هم أشبه ما يكونون بالموتى في فقدان الحس، وفي عدم السماع لما تدعوهم إليه.

فالجملة الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من هؤلاء الجاحدين.

ثم حدد الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ وظيفته فقال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

أى: ما أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ إلا منذر للناس من حلول عذاب الله ـ تعالى ـ بهم، إذا ما استمروا على كفرهم، أما الهداية والضلال فهما بيد الله ـ تعالى ـ وحده.

﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ﴾ ـ أيها الرسول الكريم ـ إرسالا ملتبسا ﴿بِالْحَقِ﴾ الذي لا يحوم حوله الباطل ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أى: أرسلناك بالحق مبشرا المؤمنين بحسن الثواب، ومنذرا الكافرين بأشد ألوان العقاب.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ أى: وما من أمة من الأمم الماضية، إلا وجاءها

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٢٩.

نذير ينذرها من سوء عاقبة الكفر ، ويدعوها إلى إخلاص العبادة لله . تعالى ..

فمن أفراد هذه الأمة من أطاعوا هذا النذير فسعدوا وفازوا ، ومنهم من استحب العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان فشقوا وخابوا.

ثم أضاف . سبحانه . إلى تسليته لرسوله ﷺ تسلية أخرى فقال : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ، فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.﴾ ...

أى : وإن يكذبك قومك يا محمد فلا تحزن ، فإن الأقوام السابقين قد كذبوا إخوانك الذين أرسلناهم إليهم ، كما كذبك قومك.

وإن هؤلاء السابقين قد ﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ أى : بالمعجزات الواضحات ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أى : وبالكتب المنزلة من عند الله . تعالى . جمع زبور وهو المكتوب ، كصحف إبراهيم وموسى.

﴿وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ﴾ أى : وبالكتاب الساطع في براهينه وحججه ، كالتوراة التي أنزلناها على موسى ، والإنجيل الذي أنزلناه على عيسى.

قال الشوكانى : قيل : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ، والعطف لتغير المفهومات ، وإن كانت متحدة في الصدق. والأولى تخصيص البينات بالمعجزات. والزبر بالكتب التي فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام» (١).

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالعذاب الشديد ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتكذيبهم لرسلهم.

ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، لذمهم وللأشعار بعلة الأخذ.

والاستفهام في قوله . تعالى . ﴿فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ للتهويل. أى : فانظر . أيها العاقل . كيف كان إنكارى عليهم ، لقد كان إنكارا مصحوبا بالعذاب الأليم الذي دمرهم تدميرا ، واستأصلهم عن آخرهم.

ثم ذكر . سبحانه . بعد ذلك أدلة أخرى على عظيم قدرته. وبين من هم أولى الناس بخشيته ، ومدح الذين يكثرون من تلاوة كتابه ، ويحافظون على أداء فرائضه ، ووعدهم على ذلك بالأجر الجزيل فقال . تعالى . :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣٤٦.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(٣١)

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ ..

لتقرير ما قبله ، من أن اختلاف الناس في عقائدهم وأحوالهم أمر مطرد ، وأن هذا الاختلاف موجود حتى في الحيوان والحجارة والنبات ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ .. هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك ، فتكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشيء ، بحال من رآه. في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه. كما يجرى مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة في شهرته ..» (١).

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٦٠.

والخطاب للرسول ﷺ ، أو لكل من يتأتى له الخطاب ، بتقرير دليل من أدلة القدرة الباهرة.

والمعنى : لقد علمت ـ أيها العاقل ـ علما لا يخالطه شك ، أن الله ـ تعالى ـ أنزل من السماء ماء كثيرا ، فأخرج بسببه من الأرض ، ثمرات مختلفا ألوانها. فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر .. وبعضها حلو المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعا تسقى بماء واحد ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ، صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١).

وجاء قوله ﴿فَأَخْرَجْنا﴾ .. على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة ، ولأن المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء.

وقوله ﴿مُخْتَلِفاً﴾ صفة لثمرات ، وقوله ﴿أَلْوانُها﴾ فاعل به.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾ معطوف على ما قبله ، لبيان مظهر آخر من مظاهر قدرته ـ عزوجل ـ ..

قال القرطبي ما ملخصه : «الجدد جمع جدّة ـ بضم الجيم ـ وهي الطرائق المختلفة الألوان» .. والجدّة : الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه. والجدة : الطريقة والجمع جدد .. أى : طرائق تخالف لون الجبل ، ومنه قولهم : ركب فلان جدّة من الأمر ، إذا رأى فيه رأيا» (٢).

وغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشيء الشديد السواد ، والعرب تقول للشيء الشديد السواد ، أسود غربيب.

وقوله : ﴿سُودٌ﴾ بدل من ﴿غَرابِيبُ﴾.

أى : أنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، وجعلنا بقدرتنا من الجبال قطعا ذات ألوان مختلفة ، فمنها الأبيض ، ومنها الأحمر ، ومنها ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس كذلك ، مما يدل على عظيم قدرتنا. وبديع صنعنا ..

---

(١) سورة الرعد الآية ٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٤٢.

ثم بين . سبحانه . أن هذا الاختلاف ليس مقصورا على الجبال فقال : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ﴾ ...

وقوله : ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ صفة لموصوف محذوف. وقوله ﴿كَذلِكَ﴾ صفة . أيضا . لمصدر محذوف ، معمول لمختلف.

أى : ليس اختلاف الألوان مقصورا على قطع الجبال وطرقها وأجزائها ، بل . أيضا . من الناس والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلف ألوانها اختلافا ، كذلك الاختلاف الكائن في قطع الجبال ، وفي أنواع الثمار.

وإنما ذكر . سبحانه . هنا اختلاف الألوان في هذه الأشياء ، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله . تعالى . وعلى بديع صنعه.

ثم بين . سبحانه . أولى الناس بخشيته فقال : ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ أى : إنما يخاف الله . تعالى . ويخشاه ، العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعة وإخلاص في العبادة ، أما الجاهلون بذاته وصفاته . تعالى . ، فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة الكريمة مدحا للعلماء ، حيث قصر . سبحانه . خشيته عليهم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ قلت : لا بد من ذلك ، فإنك إذا قدمت اسم الله ، وأخرت العلماء ، كان المعنى. إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله ، كقوله . تعالى . : ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ وهما معنيان مختلفان.

فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟

قلت : لما قال ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعته .. أتبع ذلك بقوله : ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته ، وعلمه كنه علمه.

وعن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أنه قال : «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به» (١).

وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على أنه يعاقب على المعصية ، ويغفر الذنوب لمن تاب من عباده توبة نصوحا.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦١١.

ثم مدح ـ سبحانه ـ المكثرين من تلاوة كتابه ، المحافظين على أداء فرائضه فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ﴾ ...

أى : إن الذين يداومون على قراءة القرآن الكريم بتدبر لمعانيه ، وعمل بتوجيهاته ، ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ بأن أدوها في مواقيتها بخشوع وإخلاص.

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أى : وبذلوا مما رزقناهم من خيرات ، تارة في السر وتارة في العلانية.

وجملة ﴿يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ في محل رفع خبر إن. والمراد بالتجارة : ثواب الله ـ تعالى ـ ومغفرته.

وقوله : ﴿تَبُورَ﴾ بمعنى تكسد وتهلك. يقال : بار الشيء يبور بورا وبوارا ، إذا هلك وكسد.

أى : هؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم ، ويؤدون ما أوجبه الله ـ تعالى ـ عليهم ، يرجون من الله ـ تعالى ـ الثواب الجزيل ، والربح الدائم ، لأنهم جمعوا في طاعتهم له ـ تعالى ـ بين الإكثار من ذكره ، وبين العبادات البدنية والمالية.

واللام في قوله : ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .. متعلقة بقوله ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ على معنى ، يرجون تجارة لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجورهم التي وعدهم بها ، ويزيدهم في الدنيا والآخرة من فضله ونعمه وعطائه.

أو متعلقة بمحذوف ، والتقدير : فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴿إِنَّهُ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿غَفُورٌ﴾ أى : واسع المغفرة ﴿شَكُورٌ﴾ أى : كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدى ما كلفه به.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات الكريمة ، بتثبيت فؤاد النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، وتسليته عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ﴾ أى القرآن الكريم ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يحوم حوله باطل.

﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى : أن من صفات هذا القرآن أنه مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية. كالتوراة والإنجيل.

﴿إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى : إن الله ـ تعالى ـ لمحيط إحاطة تامة بأحوال عباده ، مطلع على ما يسرونه وما يعلنونه من أقوال أو أفعال.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ.

وقدرته ، وأثنت على العلماء ، وعلى التالين للقرآن الكريم ، والمحافظين على أداء ما كلفهم الله - تعالى - ثناء عظيما.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان أقسام الناس في هذه الحياة. ووعدت المؤمنين الصادقين بجنات النعيم ، فقال - تعالى - :

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾(٣٥)

و «ثم» في قوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ للتراخي الرتبي. و ﴿أَوْرَثْنَا﴾ أى أعطينا ومنحنا ، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره.

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة .. وهو المفعول الثاني لأورثنا ، وقدم على المفعول الأول ، وهو الموصول للتشريف.

و ﴿اصْطَفَيْنا﴾ بمعنى اخترنا واستخلصنا ، واشتقاقه من الصفو ، بمعنى الخلوص من الكدر والشوائب.

والمراد بقوله : ﴿مِنْ عِبادِنا﴾ الأمة الإسلامية التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس.

والمعنى : ثم جعلنا هذا القرآن الذي أوحيناه إليك - أيها الرسول الكريم - ميراثا منك

لأمتك ، التي اصطفيناها على سائر الأمم ، وجعلناها أمة وسطا. وقد ورثناها هذا الكتاب لتنتفع بهداياته .. وتسترشد بتوجيهاته ، وتعمل بأوامره ونواهيه.

قال الآلوسى : قوله : ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ هم ـ كما قال ابن عباس وغيره ـ أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله ـ تعالى ـ اصطفاهم على سائر الأمم ..» [1].

وفي التعبير بالاصطفاء ، تنويه بفضل هؤلاء العباد ، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم ، كما أن التعبير بالماضي يدل على تحقق هذا الاصطفاء.

ثم قسم ـ سبحانه ـ هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال : ﴿فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ. وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ ...

وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعود إلى أفراد هذه الأمة الإسلامية.

وأن المراد بالظالم لنفسه ، من زادت سيئاته على حسناته.

وأن المراد بالمقتصد : من تساوت حسناته مع سيئاته.

وأن المراد بالسابقين بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم.

وعلى هذا يكون الضمير في قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها﴾ .. يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة ، لأنهم جميعا من أهل الجنة بفضل الله ورحمته.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون الضمير في قوله : ﴿يَدْخُلُونَها﴾ يعود إلى المقتصد والسابق بالخيرات ، وأن هذه الآية نظير قوله ـ تعالى ـ في سورة الواقعة : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً. فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ...

ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ما ملخصه : يقول ـ تعالى ـ ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ... وهم هذه الأمة على ثلاثة أقسام : ﴿فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو المفرط في بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات.

﴿وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات.

قال ابن عباس : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورثهم الله ـ تعالى ـ كل كتاب أنزله. فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٩٤.

وفي رواية عنه : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ـ تعالى ـ ، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول ﷺ .

وفي الحديث الشريف : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» ..

وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو الكافر.

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضا.

ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة».

ومعنى قوله «بمنزلة واحدة» أى : في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة» (١).

وقال الإمام ابن جرير : فإن قال لنا قائل : إن قوله ﴿يَدْخُلُونَها﴾ إنما عنى به المقتصد والسابق بالخيرات؟

قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر أو عقل؟ فإن قال : قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولو لم يدخل النار من هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد.

قيل : إنه ليس في الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من الله ـ تعالى ـ أنهم يدخلون جنات عدن : وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه بعد عقوبة الله إياه على ذنوبه التي أصابها في الدنيا ... ثم يدخلون الجنة بعد ذلك ، فيكون ممن عمه خبر الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها﴾ (٢).

وقال الشوكاني : والظالم لنفسه : هو الذي عمل الصغائر. وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعائشة. وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور ... ووجه كونه ظالما لنفسه ، أنها نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب حظا عظيما .. (٣).

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٣٢.

(٢) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٢ ص ٩٠.

(٣) تفسير الشوكانى ج ٤ ص ٣٤٩.

قالوا : وتقديم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات. لا يقتضى تشريفا ، كما في قوله . تعالى . ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ﴾ ...

ولعل السر في مجيء هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم أكثر الأقسام عددا ، ويليهم المقتصدون ، ويليهم السابقون بالخيرات ، كما قال . تعالى . ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وقوله : ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ أى : بتوفيقه وإرادته وفضله.

واسم الإشارة في قوله : ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء.

أى : ذلك الذي أعطيناه . أيها الرسول الكريم . لأمتك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب ، هو الفضل الواسع الكبير ، الذي لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله . تعالى ..

ثم بين . سبحانه . مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها﴾ والضمير للأنواع الثلاثة.

أى : هؤلاء الظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون بالخيرات ، ندخلهم بفضلنا ورحمتنا ، الجنات الدائمة التي يخلدون فيها خلودا أبديا.

يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام به إقامة دائمة.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ أى أنهم يدخلون الجنات دخولا دائما ، وهم في تلك الجنات يتزينون بأجمل الزينات ، وبأفخر الملابس ، حيث يلبسون في أيديهم أساور من ذهب ولؤلؤا ، أما ثيابهم فهي من الحرير الخالص.

ثم حكى . سبحانه . ما يقولونه بعد فوزهم بهذا النعيم فقال : ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾.

والحزن : غم يعترى الإنسان لخوفه من زوال نعمة هو فيها. والمراد به هنا : جنس الحزن الشامل لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة.

أى : وقالوا عند دخولهم الجنات الدائمة ، وشعورهم بالأمان والسعادة والاطمئنان : الحمد لله الذي أذهب عنا جميع ما يحزننا من أمور الدنيا أو الآخرة.

﴿إِنَّ رَبَّنا﴾ بفضله وكرمه ﴿لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أى : لواسع المغفرة لعباده ولكثير العطاء للمطيعين ، حيث أعطاهم الخيرات الوفيرة في مقابل الأعمال القليلة. ﴿الَّذِي أَحَلَّنا دارَ

﴿الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى : الحمد لله الذي أذهب عنا الأحزان بفضله ورحمته ، والذي ﴿أَحَلَّنا﴾ أى : أنزلنا ﴿دارَ الْمُقامَةِ﴾ أى : الدار التي لا انتقال لنا منها ، وإنما نحن سنقيم فيها إقامة دائمة وهي الجنة التي منحنا إياها بفضله وكرمه.

وهذه الدار ﴿لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ﴾ أى : لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ولا عناء. يقال : نصب فلان ـ كفرح ـ إذا نزل به التعب والإعياء.

﴿وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ أى : ولا يصيبنا فيها كلال وإعياء بسبب التعب والهموم ، يقال : لغب فلان لغبا ولغوبا. إذا اشتد به الإعياء والهزال.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين النصب واللّغوب؟

قلت : النصب ، التعب والمشقة ، التي تصيب المنتصب للأمر ، المزاول له.

وأما اللغوب ، فما يلحقه من الفتور بسبب النصب. فالنصب : نفس المشقة والكلفة. واللغوب : نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفتور» [1].

وبعد هذا البيان البليغ الذي يشرح الصدور لحسن عاقبة المفلحين ، ساقت السورة الكريمة حال الكافرين ، وما هم فيه من عذاب مهين ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾(٣٨)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦١٤.

اى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الدنيا بكل ما يجب الإيمان به ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿نارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها تعذيبا أليما.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم في جهنم فقال : ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾ أى : لا يحكم عليهم فيها بالموت مرة أخرى كما ماتوا بعد انقضاء آجالهم في الدنيا ، وبذلك يستريحون من العذاب. ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم ، بل هي كلما خبت أو هدأ لهيبها ، عادت مرة أخرى إلى شدتها ، وازدادت سعيرا.

والمراد أنهم باقون في العذاب الأليم بدون موت ، أو حياة يستريحون فيها.

﴿كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع ، نجزى في الآخرة ، كل شخص كان في الدنيا شديد الجحود والكفران لآيات ربه ، الدالة على وحدانيته وقدرته ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بيان لما يجأرون به إلى ربهم وهم ملقون في نار جهنم.

ويصطرخون ، بمعنى يستغيثون ويضجون بالدعاء رافعين أصواتهم ، افتعال من الصراخ ، وهو الصياح الشديد المصحوب بالتعب والمشقة ، ويستعمل كثيرا في العويل والاستغاثة. وأصله يصترخون ، فأبدلت التاء طاء.

وجملة ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا ..﴾ .. مقول لقول محذوف.

أى : وهم بعد أن ألقى بهم في نار جهنم ، أخذوا يستغيثون ويضجون بالدعاء والعويل ويقولون : يا ربنا أخرجنا من هذه النار ، وأعدنا إلى الحياة الدنيا ، لكي نؤمن بك وبرسولك ، ونعمل أعمالا صالحة أخرى ترضيك ، غير التي كنا نعملها في الدنيا.

وقولهم هذا يدل على شدة حسرتهم ، وعلى اعترافهم بجرمهم ، وبسوء أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا.

وهنا يأتيهم من ربهم الرد الذي يخزيهم فيقول ـ سبحانه ـ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ ..﴾ ...

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والكلام على إضمار القول ، وقوله ﴿نُعَمِّرْكُمْ﴾ من التعمير بمعنى الإبقاء والإمهال في الحياة الدنيا إلى الوقت الذي كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان.

و ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ نكرة موصوفة بمعنى مدة. والضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى عمرهم الذي قضوه في الدنيا.

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين عند ما يقولون بحسرة وضراعة : يا ربنا أخرجنا من النار وأعدنا إلى الدنيا لنعمل عملا صالحا غير الذي كنا نعمله فيها ، يرد عليهم ربهم بقوله لهم على سبيل الزجر والتأنيب : أو لم نمهلكم في الحياة الدنيا ، ونعطيكم العمر والوقت الذي كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار واتباع طريق الحق ، وفضلا عن كل ذلك فقد جاءكم النذير الذي ينذركم بسوء عاقبة إصراركم على كفركم ، ولكنكم كذبتموه وأعرضتم عن دعوته.

والمراد بالنذير : جنسه فيتناول كل رسول أرسله الله ـ تعالى ـ إلى قومه ، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته ، وعلى رأس هؤلاء المنذرين سيدنا رسول الله ﷺ.

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجيء النذير.

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فاخسئوا في جهنم ، واتركوا الصراخ والعويل ، وذوقوا عذابها الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ، فليس للمصرين على كفرهم من نصير ينصرهم ، أو يدفع عنهم شيئا من العذاب الذي يستحقونه.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآيات الكريمة ببيان سعة علمه. فقال : ﴿إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾.

أى : إن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء سواء أكان هذا الشيء في السموات أم في الأرض ، إنه ـ سبحانه ـ عليم بما تضمره القلوب ، وما تخفيه الصدور ، وما توسوس به النفوس.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله على عباده ، وأقام الأدلة على وحدانيته وقدرته ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ

﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾(٤١)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ .. بيان لجانب من فضله ـ تعالى ـ على بنى آدم.

و ﴿خَلائِفَ﴾ جمع خليفة ، وهو من يخلف غيره.

أى : هو ـ سبحانه ـ الذي جعلكم خلفاء في أرضه ، وملككم كنوزها وخيراتها ومنافعها ، لكي تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة والطاعة.

أو جعلكم خلفاء لمن سبقكم من الأمم البائدة ، فاعتبروا بما أصابهم من النقم بسبب إعراضهم عن الهدى ، واتبعوا ما جاءكم به رسولكم صلى الله عليه وسلم.

وقوله ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أى : فمن كفر بالحق الذي جاءه به الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر على ذلك ، فعلى نفسه يكون وبال كفره لا على غيره.

﴿وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً﴾ أى : لا يزيدهم إلا بغضا شديدا من ربهم لهم ، واحتقارا لحالهم وغضبا عليهم ...

فالمقت : مصدر بمعنى البغض والكراهية ، وكانوا يقولون لمن يتزوج امرأة أبيه وللولد الذي يأتى عن طريق هذا الزواج ، المقتى ، أى : المبغوض.

﴿وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً﴾ أى : ولا يزيدهم إصرارهم على كفرهم إلا خسارا وبوارا وهلاكا في الدنيا والآخرة.

فالآية الكريمة تنفر أشد التنفير من الكفر ، وتؤكد سوء عاقبته ، تارة عن طريق بيان أنه مبغوض من الله ـ تعالى ـ ، وتارة عن طريق بيان أن المتلبس به ، لن يزداد إلا خسرانا وبوارا.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى هؤلاء المشركين ، وأن يوبخهم على

عنادهم وجحودهم فقال : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ.﴾ ...

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل التبكيت والتأنيب لهؤلاء المشركين. أخبرونى وأنبئونى عن حال شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، ماذا فعلوا لكم من خير أو شر ، وأرونى أى جزء خلقوه من الأرض حتى استحقوا منكم الألوهية والشركة مع الله ـ تعالى ـ في العبادة؟

إنهم لم يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ شيئا من ذلك ، فكيف أبحتم لأنفسكم عبادتهم؟

وقوله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ تبكيت آخر لهم. أى : وقل لهم : إذا كانوا لم يخلقوا شيئا من الأرض ، فهل لهم معنا شركة في خلق السموات أو في التصرف فيها ، حتى يستحقوا لذلك مشاركتنا في العبادة والطاعة.

وقوله : ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ تبكيت ثالث لهم. أى : وقل لهم إذا كانوا لم يخلقوا شيئا من الأرض ، ولم يشاركونا في خلق السموات ، فهل نحن أنزلنا عليهم كتابا أقررنا لهم فيه بمشاركتنا ، فتكون لهم الحجة الظاهرة البينة على صدق ما يدعون؟

والاستفهام في جميع أجزاء الآية الكريمة للإنكار والتوبيخ.

والمقصود بها قطع كل حجة يتذرعون بها في شركهم ، وإزهاق باطلهم بألوان من الأدلة الواضحة التي تثبت جهالاتهم ، حيث أشركوا مع الله ـ تعالى ـ ما لا يضر ولا ينفع ، وما لا يوجد دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما ذهبوا إليه من كفر وشرك.

ولذا ختمت الآية الكريمة بالإضراب عن أوهامهم وبيان الأسباب التي حملتهم على الشرك ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾.

أى : أن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئا لا من الأرض ولا من السماء ، ولم نؤتهم كتابا بأنهم شركاء لنا في شيء ، بل الحق أن الظالمين يخدع بعضهم بعضا ، ويعد بعضهم بعضا بالوعود الباطلة ، بأن يقول الزعماء لأتباعهم : إن هؤلاء الآلهة هم شفعاؤنا عند الله ، وأننا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فيترتب على قولهم هذا ، أن ينساق الأتباع وراءهم كما تنساق الأنعام وراء راعيها.

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ ما عليه المعبودات الباطلة من عجز وضعف ، أتبع ذلك ببيان جانب من عظيم قدرته ، وعميم فضله فقال : ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ، وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ...

أى : إن الله ـ تعالى ـ بقدرته وحدها ، يمسك السموات والأرض كراهة أن تزولا ، أو يمنعهما ويحفظهما من الزوال أو الاضمحلال أو الاضطراب ، ولئن زالتا ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ فلن يستطيع أحد أن يمسكهما ويمنعهما عن هذا الزوال سوى الله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّهُ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿انَ﴾ وما زال ﴿حَلِيماً﴾ بعباده ﴿غَفُوراً﴾ لمن تاب إليه وأناب ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾.

قال الآلوسى : قوله : ﴿وَلَئِنْ زالَتا﴾ أى : إن أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير ، ﴿إِنْ أَمْسَكَهُما﴾ أى : ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى : من بعد إمساكه ـ تعالى ـ أو من بعد الزوال ، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة في ﴿لَئِنْ﴾ ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ... و ﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدة لتأكيد العموم. والثانية للابتداء (١).

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بما كان عليه المشركون من نقض العهود ، ومن مكر سيء حاق بهم ، ودعاهم ـ سبحانه ـ إلى الاعتبار بمن سبقهم ، وبين لهم جانبا من مظاهر فضله عليهم. ورأفته بهم فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٠٤.

فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾(٤٥)

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ .. : هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا ﷺ حين بلغهم أن أهل الكتاب ، كذبوا رسلهم ، فلعنوا من كذب نبيه منهم ..» [(١)].

و ﴿جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ أى : أقوى أيمانهم وأغلظها والجهد : الطاقة والوسع والمشقة.

يقال : جهد نفسه يجهدها في الأمر ، إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه.

والمراد : أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها ، بكل ألفاظ التوكيد والتوثيق.

أى : أن كفار مكة ، أقسموا بالله ـ تعالى ـ قسما مؤكدا موثقا مغلظا ، ﴿لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أى : نبي ينذرهم بأن الكفر باطل وأن الإيمان بالله هو الحق.

﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدى﴾ سبيلا ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أى : ليكونن أهدى من اليهود ومن النصارى ومن غيرهم في اتباعهم وطاعتهم ، لهذا الرسول الذي يأتيهم من عند ربهم لهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ ـ الذي هو أشرف الرسل.

﴿ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ أى : ما زادهم مجيئه لهم إلا نفورا عن الحق ، وتباعدا عن الهدى. أى : أنهم قبل مجيء الرسول ﷺ كانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم ، لا من غيرهم ، وأقسموا بالله بأنهم سيطيعونه فلما جاءهم الرسول ﷺ نفروا عنه ولم يؤمنوا به.

وإنما كان القسم بالله ـ تعالى ـ غاية أيمانهم ، لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وبأصنامهم ، فإذا اشتد عليهم الحال ، وأرادوا تحقيق الحق ، حلفوا بالله ـ تعالى ـ..

وقوله ﴿لَيَكُونُنَ﴾ جواب للقسم المقدر. وقوله : ﴿ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ جواب لما.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٥٨.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿نُفُوراً﴾ أو مفعول لأجله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ معطوف على استكبارا.

والمراد بمكرهم السيئ : تصميمهم على الشرك ، وتكذيبهم للرسول ﷺ ، من أجل المعاندة للحق ، والاستكبار عنه ، ومن أجل المكر السيئ الذي استولى على نفوسهم ، والحقد الدفين الذي في قلوبهم.

وقوله ﴿السَّيِّئِ﴾ صفة لموصوف محذوف. وأصل التركيب : وأن مكروا المكر السيئ ، فأقيم المصدر مقام أن والفعل ، وأضيف إلى ما كان صفة له.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ بيان لسوء عاقبة مكرهم ، وأن شره ما نزل إلا بهم.

وقوله : ﴿يَحِيقُ﴾ بمعنى يحيط وينزل. يقول : حاق بفلان الشيء ، إذا أحاط ونزل به. أى : ولا ينزل ولا يحيط شر ذلك المكر السيئ إلا بأهله الماكرين.

قال صاحب الكشاف : لقد حاق بهم يوم بدر. وعن النبي ﷺ : لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، فإن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ [1].

وقال الآلوسى ـ رحمه‌الله ـ : والآية عامة على الصحيح ، والأمور بعواقبها ، والله ـ تعالى ـ يمهل ولا يهمل ، ووراء الدنيا الآخرة ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

وبالجملة : من مكر به غيره ، ونفذ فيه المكر عاجلا في الظاهر ، ففي الحقيقة هو الفائز ، والماكر هو الهالك [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ حض لهم على الاستجابة للحق ، وترك المكر والمخادعة والعناد. والسنة : الطريقة ..

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ، فهل ينتظر هؤلاء الماكرون ، إلا طريقتنا في الماكرين من قبلهم. وهي إهلاكهم ونزول العذاب والخسران بهم؟ إنهم ما ينتظرون إلا ذلك.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ تأكيد لثبات سنته ـ تعالى ـ في خلقه ، وتعليل لما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦١٨.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٠٦.

أى : هذه سنتنا وطريقتنا في الماكرين والمكذبين لرسلهم ، أننا نمهلهم ولا نهملهم ، ونجعل العاقبة السيئة لهم. ولن تجد لسنة الله ـ تعالى ـ في خلقه تبديلا بأن يضع غيرها مكانها ، ولن تجد لها تحويلا عما سارت عليه وجرت به.

قال الجمل ما ملخصه : قوله : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ) مصدر مضاف لمفعوله تارة كما هنا ، ولفاعله أخرى كقوله (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً) لأنه ـ تعالى ـ سنها بهم ، فصحت إضافتها للفاعل وللمفعول. والفاء في قوله (فَلَنْ تَجِدَ) لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب. ونفى وجدان التبديل والتحويل ، عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهاني ، وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما.

والمراد : بعدم التبديل. أن العذاب لا يبدل بغيره. وبعدم التحويل : أنه لا يحول عن مستحقه إلى غيره. وجمع بينهما هنا : تعميما لتهديد المسيء لقبح مكره [(١)].

ثم ساق لهم ـ سبحانه ـ ما يؤكد عدم تغيير سنته في خلقه ، بأن حضهم على الاعتبار بأحوال المهلكين من قبلهم ، والذين يرون بأعينهم آثارهم ، فقال ـ تعالى ـ : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً).

أى أعمى هؤلاء الماكرون عن التدبر ، ولم يسيروا في الأرض ، فيروا بأعينهم في رحلاتهم إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى غيرهما ، كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم ، لقد دمرناهم تدميرا ، مع أنهم كانوا أشد من مشركي مكة قوة ، وأكثر جمعا (وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) أى وما كان من شأن الله ـ تعالى ـ أن يعجزه شيء من الأشياء ، سواء أكان في السموات أم في الأرض. بل كل شيء تحت أمره وتصرفه.

(إِنَّهُ) ـ سبحانه ـ (كانَ عَلِيماً) بكل شيء (قَدِيراً) على كل شيء.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببيان جانب من رحمته بعباده فقال (وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا) من الذنوب أو الخطايا.

(ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها) أى : على ظهر الأرض (مِنْ دَابَّةٍ) من الدواب التي تدب عليها. (وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) وهو يوم القيامة.

(فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ) الذي حدده ـ سبحانه ـ لحسابهم ، جازاهم بما يستحقون (فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً) أى : لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٠٠.

وبعد : فهذا لسورة فاطر. نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## فهرس إجمالى لسورة «العنكبوت»


المقدمة والتمهيد........................................ ٥

١ . الم. أحسب الناس أن يتركوا ................................ ١١

٨ . ووصينا الإنسان بوالديه........................................ ١٥

١٠ . ومن الناس من يقول آمنا بالله ................................ ١٧

١٤ . ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه........................................ ٢٠

١٨ . وإن تكذبوا فقد كذب أمم........................................ ٢٣

٢٤ . فما كان جواب قومه ........................................ ٢٧

٢٨ . ولوطا إذ قال لقومه........................................ ٣٠

٣٦ . وإلى مدين أخاهم شعيبا ........................................ ٣٥

٤١ . مثل الذين اتخذوا من دون الله ................................ ٣٩

٤٤ . خلق الله السموات والأرض ................................ ٤١

٤٦ . ولا تجادلوا أهل الكتاب........................................ ٤٤

٥٠ . وقالوا لو لا أنزل عليه آيات ................................ ٤٨

٥٧ . يا عبادي الذين آمنوا إن أرضى........................................ ٥١

٦١ . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض........................................ ٦٤

## فهرس إجمالى لسورة «الروم»

المقدمة ........................................ ٦١
١ . الم ........................................ ٦٥
٨ . أولم يتفكروا في أنفسهم........................................ ٦٨
١١ . الله يبدأ الخلق ثم يعيده........................................ ٧١
١٧ . فسبحان الله حين تمسون........................................ ٧٣
٢٨ . ضرب لكم مثلا ........................................ ٨٠
٢٣ . وإذا مس الناس ضر ........................................ ٨٥
٣٨ . فآت ذا القربى حقه........................................ ٨٨
٤١ . ظهر الفساد في البر والبحر........................................ ٩١
٤٦ . ومن آياته أن يرسل........................................ ٩٤
٥٤ . الله الذي خلقكم من ضعف........................................ ٩٩

## فهرس إجمالى لتفسير سورة «لقمان»


المقدمة ........................ ١٠٧

١ . الم ........................ ١٠٩

٦ . ومن الناس من يشترى لهو الحديث........................ ١١١

٨ . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ........................ ١١٣

١٢ . ولقد آتينا لقمان الحكمة........................ ١١٥

٢٠ . ألم تروا أن الله سخر لكم ........................ ١٢٤

٢٢ . ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن........................ ١٢٦

٢٧ . ولو أن ما في الأرض من شجرة........................ ١٢٨

٢٩ . ألم تر أن الله يولج ........................ ١٣٠

٣٣ . يا أيها الناس اتقوا ربكم ........................ ١٣٣

## فهرس إجمالى لتفسير سورة «السجدة»

المقدمة ........ ١٣٩
١ . الم ........ ١٤١
١٠ . وقالوا أإذا ضللنا في الأرض........ ١٤٧
١٥ . إنما يؤمن بآياتنا الذين ........ ١٥٠
١٨ . أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ........ ١٥٢
٢٣ . ولقد آتينا موسى الكتاب ........ ١٥٤
٢٦ . أو لم يهد لهم كم أهلكنا........ ١٥٧

## فهرس إجمالي لتفسير سورة «الأحزاب»

المقدمة ........................................ ١٦٣
١ . يا أيها النبي اتق الله ........................................ ١٦٩
٤ . ما جعل الله لرجل من قلبين........................................ ١٧١
٦ . النبي أولى بالمؤمنين ........................................ ١٧٥
٧ . وإذ أخذنا من النبيين........................................ ١٧٨
٩ . يا أيها الذين آمنوا اذكروا ........................................ ١٨٠
١٦ . قل لن ينفعكم الفرار ........................................ ١٨٦
٢١ . لقد كان لكم في رسول الله........................................ ١٩٢
٢٨ . يا أيها النبي قل لأزواجك ........................................ ٢٠٠
٣٠ . يا نساء النبي من يأت منكن ........................................ ٢٠٢
٣٥ . إن المسلمين والمسلمات........................................ ٢٠٩
٣٦ . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ........................................ ٢١١
٤١ . يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ........................................ ٢١٩
٤٥ . يا أيها النبي إنا أرسلناك........................................ ٢٢٢
٤٩ . يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم ........................................ ٢٢٤
٥٠ . يا أيها النبي إنا أحللنا لك........................................ ٢٢٦
٥٣ . يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا ........................................ ٢٣٦
٥٥ . لا جناح عليهن في آبائهن ........................................ ٢٤٠
٦٠ . لئن لم ينته المنافقون ........................................ ٢٤٧
٦٩ . يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا........................................ ٢٥١

## فهرس إجمالى لتفسير سورة «سبأ»


المقدمة ........................................ ٢٥٩

١ . الحمد لله الذي له ما في السموات ........................ ٢٦٢

٦ . ويرى الذين أوتوا العلم ........................ ٢٦٨

١٠ . ولقد آتينا داود منا فضلا ........................ ٢٧٢

١٥ . لقد كان لسبأ في مسكنهم ........................ ٢٧٨

٢٢ . قل ادعوا الذين زعمتم ........................ ٢٨٥

٢٨ . وما أرسلناك إلا كافة ........................ ٢٩١

٣١ . وقال الذين كفروا لن نؤمن ........................ ٢٩٢

٣٤ . وما أرسلنا في قرية من نذير ........................ ٢٩٦

٤٠ . ويوم يحشرهم جميعا ........................ ٣٠٠

٤٣ . وإذا تتلى عليهم آياتنا ........................ ٣٠٢

٤٦ . قل إنما أعظكم بواحدة ........................ ٣٠٥

٥١ . ولو ترى إذ فزعوا ........................ ٣١٠

## فهرس إجمالى لتفسير سورة «فاطر»

المقدمة ........................................ ٣١٥
١ . الحمد لله فاطر السموات والأرض ........................................ ٣١٨
٤ . وإن يكذبوك فقد كذبت ........................................ ٣٢٢
٩ . والله الذي أرسل الرياح ........................................ ٣٢٦
١٥ . يا أيها الناس أنتم الفقراء........................................ ٣٣٧
٢٧ . ألم تر أن الله أنزل........................................ ٣٤٣
٣٢ . ثم أورثنا الكتاب ........................................ ٣٤٧
٣٦ . والذين كفروا لهم نار جهنم........................................ ٣٥١
٣٩ . هو الذي جعلكم خلائف ........................................ ٣٥٣
٤٢ . وأقسموا بالله جهد أيمانهم........................................ ٣٥٦